"الرواية الحائزة على جائزة الاتحاد الأوروبي للأدب الأيرلندي 2019"

فريق متميزون

E-BOOK

مشعلو الحرائق

جان كارسون

ترجمة : هند عادل

روايات مترجمة

العربي للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

مشعلو الحرائق

رواية مترجمة..

"الرواية الحائزة على جائزة الاتحاد الأوربي للأدب الأيرلندي ٢٠١٩"

چان كارسون

ترجمة: هند عادل

عن الرواية..

الثاني عشر من يوليو.. بلفاست.. المدينة كلها تشتعل، المناسبة السنوية التي يجتمعون فيها لإشعال كل شيء، لتحترق المدينة بأكملها وتخرج الأمور عن السيطرة! وعندما تصير الأمور في حالة جنون، يعاني المسؤولون والحكومة لإخماد هذا الحريق وذلك الشغب. ويبقى السؤال: من المسؤولون بالأساس عن هذا الشغب؟ من هم مشعلو الحرائق؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى والديَّ..

مع حبي وشكري..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

“قديمًا كانت هناك ملائكة أتوا وأخذوا أناسًا من أيديهم وقادوهم بعيدًا عن دمار المدينة. أما الآن فلا نرى ملائكة بأجنحة بيضاء. لكن ما زال بإمكان البشر الهروب بعيدًا عن الدمار الذي يهددهم؛ يد تمد العون لهم، وتقودهم بسلاسة إلى حيث أرض الهدوء والنعيم، فلا يعودون ينظرون مرة أخرى إلى الخلف؛ وقد تكون هذه اليد هي يد طفل».

- چورچ إليوت، سايلس مارنر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يونيو

"جوناثان"

أذناكِ مختلفتان عن أذنيَّ.

استغرقت ثلاثة أشهرٍ لألاحظ ذلك. آسف، بصراحة لست آسفًا جدًّا؛ كنت مشغولًا. هناك الكثير من الأمور التي أقلق بشأنها بما أننا أصبحنا معًا الآن. لم تكوني هنا، ثم جئتِ فجأة. لم ترسلي خطابًا تبلغينني بقدومكِ، ولم تتصلي حتى. كيف فعلتِ هذا؟ كانت صدمةً لي. ذات صباحٍ، كنت وحدي، وفجأة أصبحتِ معي. لم يكن هناك وقت لأستعد.. أو لأهرب.

كنت بالفعل خائفًا قبل قدومكِ أصلًا. كانت مخاوفي منتشرة في غرفٍ منفصلة داخل عقلي، وكل أبوابها مغلقة بإحكام. ظللت أسمع صرخاتها تعلو، لكنني تجاهلتها. أما بعد وصولكِ، اختفى الحد الفاصل بين مخاوفي. لقد امتزجت ببعضها مثل بركٍ متفرقة تجمعت في بحيرةٍ كبيرة بلا قرار. لم أرَ القاع ولا الضفاف حتى كدت أغرق فيها.

جهزت في عقلي قائمة بالمخاوف التي لم أشعر بها في غيابكِ؛ الخوف من الناس، والخوف من فقدان الناس، الخوف من المال والتليفونات والوقت، الخوف من الصمت ومن الأصوات، الخوف من أن أوقعكِ على رأسكِ فتنكسر مثل البيضة ويسيل دمكِ. حاولت أن أعد هذه القائمة مثل السلم، وسأصعد درجة كلما تغلبت على أحد المخاوف حتى أخرج من الحفرة التي وقعت فيها، لكن المخاوف غذَّت بعضها لتتزايد، ولم يكن هناك ما يكفي من الورق لأكتب عن أفكاري المخيفة. لم أكتب قائمتي على الورق خوفًا من أن يجدها أحدًا ويبتزني، وهذا خوفٌ آخر يضاف إلى قائمتي.

ما بين انشغالي بكِ وخوفي عليكِ، اختفى كل شيءٍ من عقلي. لم يكن لديَّ الوقت لألاحظ أذنيكِ، لكن هذا الصباح عندما حملتكِ بعد الاستحمام، لم أفكر في عملي أو إفطاركِ. لم أفكر في المشكلات التي تنهال علينا في هذا البيت. كنت في عطلة نهاية الأسبوع، ومنحت لنفسي بعض الوقت لأسترخي وأستريح.

مضت أسابيع كثيرة منذ آخر مرة جلست باسترخاء دون أن أضطر للنهوض مباشرةً. الوقت هو أكثر ما سرقته مني، الوقت وحرية الخروج في أي وقت. هذا الصباح، أخذت وقتي في النظر إليكِ، حتى أنني أشعلت أنوار مرآة الحمام القوية لأنظر جيدًا. أظنكِ استمتعتِ بأن أحدهم ينظر إليكِ؛ لقد ابتسمتِ لي، كانت المرة الأولى. أنا متأكد، فقد ظللت أراقب فمكِ وكأنني

أراقب الساعة. أتعلمين أن فمكِ بالفعل مثل ساعةٍ تدق باستمرار ولا أستطيع إيقافها؟

كان جلدكِ ورديّا بسبب الاستحمام. في الحقيقة، كان أبيض لكن مليء بآلاف النقاط الوردية الصغيرة، بدا مثل لوحةٍ فنية. أظفاركِ كانت حادة، كانت بحاجة للتقليم إما بقصها أو قرضها بأسناني. قرأت على الإنترنت أن قرض أظفار الأطفال - وليس قصها - هو الموصى به في الشهور الأولى. ربما أفعل ذلك الليلة. كان شعركِ مبتلًا وملتصقًا بجبهتكِ. وكانت خصلاتكِ مثل خطوط تحيط بوجهكِ فتحدده مثل الخريطة. عادة، يكون شعركِ مموجًا ومنفوشًا، فيبدو مثل درعٍ يحيط بوجهكِ ويظلله، وكأنكِ تخفين سرّا ما لنفسكِ. أحببت وقتها رؤية وجهكِ بدون الشعر الذي يخفيه. ذكرني بصغار الطيور قبل أن ينمو لها ريش، أو بالرجال العجائز الذين سقط شعرهم. حملتكِ إلى نافذة الحمام وأدرتكِ نحو النور لأرى كل جوانبكِ. عندها لاحظت أذنيكِ.

هذا لا يعني أنني كنت أظنكِ بلا أذنين! كنت أعرف أنهما موجودتان. كنت أعرف أن لديكِ أذنين مثلما لديكِ أصابع يدين وقدمين وعينان وربما أسنان. أعرف أن أعضاءكِ كاملة وتنبض بهدوء، لكن عدم ملاحظتي لهما لم يكن تصرفًا احترافيّا مني. فمعكِ أحب تدوين كل الملاحظات. عندما ننظر إلى جسم الإنسان، نتجاهل المعجزات الظاهرة، لكنني أتحدث عن التفاصيل الخاصة بكل إنسان على حدة. أضيف لذلك شكل الابتسامة، وعادات النوم، وردود الأفعال من ضمن تفاصيل أخرى بالطبع. أكثر ما همَّني هو نمشكِ وشعركِ، كلاهما واضح ولافت للنظر. لا أعرف إن كانا سيصبحان جميلين أم قبيحين في نظر أقرانكِ. ليس من حقي الحكم.

شعركِ حالك السواد ولامع لدرجة أنه يبدو مبتلًا حتى وإن كان جافًّا. هذا ليس جيدًا، وليس سيئًا. الكثير من الناس لديهم شعرٌ لامع. هكذا أقول لنفسي، لكن أحيانًا يكون من الصعب تقبل الحقيقة ومن السهل تقبل الأسوأ منها.

بصراحة، شعركِ هو السبب في أنني ألبسكِ قبعة. وفمكِ هو السبب الذي يجعلني أفكر في إلباسكِ قناعًا. كلما رأيت شعركِ الأسود خفتُ. ولا أريد التصديق بأن لديك فمًا أصلًا. أعرف أن الفم مهمٌ للتنفس وما إلى ذلك، لكنني لا أستطيع النظر إلى فمكِ مباشرةً؛ ففمكِ الأحمر يشبه سرينة إسعاف تنذر بمصيبةٍ قادمة، وسأكتشفها قريبًا بنفسي. أريد أن أضع يدي على فمكِ وأجعله يختفي.

والآن، هذا الصباح، أضيف خوفًا على قائمتي؛ لقد لاحظت أن أذنيكِ مختلفتان عن أذنيَّ.

هذه ليست إشارةً جيدة؛ لقد أخذتِ صفتين من أمكِ وصفة واحدة مني، عيناكِ.. عيناكِ تشدانني إليك. إنهما بنيتان بدرجة عينيَّ نفسها. أحب النظر لعينيكِ ورؤية انعكاسي في سوادهما. أحب أن أقول لكِ في سري: «أحسنتِ أيتها الصغيرة. أنتِ ابنتي مثلما أنتِ ابنتها».

عينا أمكِ زرقاوان، لا يليق بهما لونٌ آخر. أما عيناكِ فبنيتان؛ مثل الأرض، والتربة، وجذوع الأشجار، وأوراق الخريف المتساقطة تمهيدًا للشتاء. أنتِ بنت الأرض. في الأيام الهانئة، أقول لنفسي إنكِ ابنتي وحدي، ولا يهم شكل أذنيكِ وشعركِ. فلتحصل عليهما أمكِ، إنهما لا يهمانني. المهم أن لديكِ عينيَّ. ألا يقولون إن العيون مقدسة مثل القلب؟ كما يقولون إن العين نافذة على الروح، والكثير من الجمل المطمئنة الأخرى. العين أهم من الأذن والشعر معًا. أنا متفائل بشأن يديكِ أيضًا، فقبضتكِ تشبه قبضتي عندما تغلقين يديكِ وأنتِ نائمة. قدماكِ الصغيرتان البدينتان، والطريقة التي تنحنين بها قليلًا للأمام في أثناء سيركِ في الغرفة تشبهانني.

سأبذل جهدي لزرع نفسي بداخلكِ، سأقول لكِ: "سيري هكذا وحركي رجليكِ هكذا». سأذكركِ مرارًا وتكرارًا أن البشر لا يمكنهم السباحة. سأمنع عنكِ مشاهدة حمامات السباحة والسباحين في التليفزيون. سأقول لكِ إن الماء للشرب والاستحمام فقط. سأقول لكِ: "ضمي يديكِ يا صغيرتي، أنتِ لي وحدي".

أتمنى أن تسمعني أذنيكِ، لكنني أخشى أنه لا يتردد فيهما الآن سوى أغاني أمكِ.

سأنتظر وأراقب فمكِ.

عالمي كله يتوقف على كلمةٍ من فمكِ. لا أطيق النظر إليه، مع ذلك أراقبه كالساعة. حتى الآن، أنتظر سماع ما ستقولينه، لأعرف إن كنتِ ابنتي أم ابنتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1
هذه بلفاست

هذه بلفاست، هذه ليست بلفاست.

من الأفضل أن تتجنب الصراحة في هذا البلد. تجنب الأسماء والأماكن والتواريخ والألقاب. في هذا البلد، الأسماء مثل علاماتٍ على خريطة أو كلماتٍ مكتوبة بالحبر، تحاول جاهدةً التنكر في شكل الحقيقة، لكن الحقيقة خادعة في هذه المدينة. إنها مثل شكلٍ هندسي نصفه مربع ونصفه الآخر دائرة. قد تصاب بالعمى من النظر إليه بارتباك. حتى الآن بعد خمس عشرة سنة من انتهاء فترة "المتاعب"، من الآمن أن تبتعد قليلًا وتتظاهر بأن الشكل متماثل ولا مشكلة فيه.

انتهت «المتاعب» الآن، هكذا قالوا في الجرائد والتليفزيون. نجيد التعامل مع الأمور التي تحتاج لإيمان وتصديق، نؤمن بالأمور بعد أن نُصِر على البحث والتأكد بأنفسنا. لم نصدق الجرائد والتليفزيون، لم نصدق حرفًا أبدًا. بعد سنواتٍ من التعود، لم نستطع تغيير عادتنا، نحتاج قرونًا لنتغير.

لقد بدأت «المتاعب» للتو، حتى هذا ليس دقيقًا تمامًا؛ فهو يعتمد على من تتحدث معه ورأيه واليوم الذي اخترته للمحادثة. من لا يعرف وضعنا يمكنه البحث عنه في موقع "ويكيبيديا"، وسيجد مقالًا من ثلاثة آلاف كلمة. هناك المزيد من المقالات على الإنترنت، وفي المجلات الأكاديمية. كما يمكنك أن تعرف أكثر عن التاريخ من خلال التحدث مع الناس. النقاش في هذا الموضوع متعب؛ يشبه محاولة تركيب أحجية واحدة، لكن قطعها متداخلة مع قطع أحجية أخرى، لا بل مع عشرين أحجية أخرى.

كلمة «متاعب» لا تصف الوضع حق وصفه. إنها تناسب المشكلات البسيطة؛ مثل انتهاء الرصيد في البنك، أو تسرب الهواء من عجلات السيارة، أو وقت الدورة الشهرية لدى النساء. كلمة «متاعب» ليست كلمة عنيفة بحد ذاتها. أما نحن فبالتأكيد نستحق كلمة تنطوي على العنف، كلمة همجية ووحشية مثل «تمييز عنصري»، أو مثلًا كلمة لا تأتي إلا مفردة لكن تدل على الجمع، مثل قوم. «المتاعب» بالنسبة لنا مثل الوحش، سواء انتهت أو ما زالت مستمرة. إنها مجموعة من الشرور الفردية التي تجمعت معًا وتداخلت لتصبح كيانًا شريرًا كبيرًا. هناك كلمات كثيرة لا تأتي إلا جمعًا. دائمًا نشدد في نطق كلمة «متاعب» وكأنها حدثٌ مهم له بداية ونهاية وتاريخ، مثل معركة «هاستينجز». سيثبت التاريخ أن كلمة «متاعب» ليست فقط اسمًا، بل أيضًا فعلًا يقع على الناس مرارًا وتكرارًا، مثل السرقة.

وهكذا لا نضع لأنفسنا حدودًا. نقول إن هذه ليست بلفاست، بل مدينة تشبهها مكونة من جانبين يفصلهما نهر بني ضحل، فيها طرقٌ كثيرة وسكك حديدية ومداخن. كل هذه الأشياء المشتركة في المدن الحديثة موجودة هنا لكن بصورةٍ محدودة. يوجد مراكز تجارية ومدارس ومتنزهات، ومن المحتمل أن تزهر بعض المناطق الخضراء في الربيع. كما توجد ثلاثة مستشفيات، وحديقة حيوان تهرب منها الحيوانات أحيانًا. في شرق المدينة، توجد رافعتان ضخمتان صفراوان تخترقان الأفق، وتشبهان ساقين مقوستين. أما في الغرب، يوجد تلٌ صغير بمقاييس جبال "الألب"، يلتقي في النهاية بالخليج. على طول الساحل، توجد مبانٍ كثيرة أساساتها راسخة في البحر وكأنها مجموعة من الناس أقدامهم متدلية في البحر الأخضر. هناك قوارب كبيرة وصغيرة. وهناك القارب الغارق الذي يشكل حاجزًا بين المحيط والمدينة، لكن لا توجد قوارب ذاهبة للمستقبل.

هناك هياكل مصنوعة من الزجاج والنحاس الأحمر منتشرة على خط الأفق. إنها مثل سلالم تصل إلى السحاب الأبيض، حيث سكنت الآلهة يومًا. هذه المباني عبارة عن مكاتب وفنادق يرتادها الغرباء، معظمهم أمريكيون ومن بلاد مهمة أخرى. نحن لا نحترمهم، ونحتقر الصور التي يلتقطونها. يظنون أنفسهم شجعانًا أو متفتحين لقدومهم إلى هذه المدينة. نود لو نقول لهم: «هل أنتم مجانين؟ لماذا أتيتم إلى هنا؟ ألا تعلمون بأنه توجد مدن كثيرة مناسبة أكثر ولا تبعد إلا ساعة واحدة بالطيران الاقتصادي؟ يمكنكم الذهاب إلى دبلن حتى". لكن لا يفترض بنا قول هذا؛ لقد بدأنا بالاعتماد على أموالهم بالفعل.

نضع السياح في سيارات أجرة سوداء صغيرة، ونلف بهم في الطريق الدائري، ونقود في الشوارع الضيقة حتى يتعبوا من رؤية كل زوايا المدينة. نطعمهم بيضًا مقليًّا ولحمًا في أطباق بيضاء مصفرة، ونقول: «تفضل تذوق طعامنا المحلي، سيمنحك طاقة طوال اليوم». نرقص لهم طمعًا في عملتهم الأجنبية، نحن مستعدون للبكاء لو لزم الأمر. أتساءل ماذا سيقول أجدادنا عن كل هذا.

نحن نحب الكلام في هذه المدينة؛ يمكننا الكلام في الباص، وعلى مقاعد الحدائق، وفوق المنابر، أو أي مكانٍ عالٍ. عادةً نُعَبِّر عما نريد في جملٍ شعرية نكتبها على الجدران، تظهر قوة الكلمات المؤلمة مع وجود شخصٍ يقرؤها، لكن ليس ضروريًّا أن تحظى بجمهور. لا يكفي الوقت أبدًا لاحتواء كلامنا كله. نتحدث بحرص عن مواضيع مثل: السياسة، والدين، والتاريخ، والمطر، والطريقة القاسية التي تربط كل هذه العناصر ببعضها وكأنها دورة وحشية. نخدع أنفسنا بأنه خلف هذا البحر، تنتظر أوروبا وباقي العالم لمعرفة

الفصل التالي من قصتنا الحزينة، لكن العالم لا ينتظرنا. هناك أشخاصٌ آخرون على طاولة المناقشات صوت مشاكلهم أعلى منا؛ مثل الأفارقة والروس واللاجئين. يقولون أشياء بشعة بحاجةٍ للترجمة، نحن لا شيء مقارنةً بهم.

هذه المدينة تواصل الحديث. إنها تتحدث مع كل من يهتم بالاستماع، وتقول إنها مدينة أوروبية مثل غيرها.. من تخدع هذه المدينة؟ ليس فيها بيتزا أو نوافير رخام أو فن مهم وبارز. إنها منبوذة على أطراف القارة، وكأنها جراج لأوروبا. يتحدث الناس بطريقة رتيبة وبسيطة خالية من الحماس. ليس لدينا شمس مشرقة نتحدث عنها، ولا يجلس الناس أمام المقاهي. حتى عندما تظهر الشمس، تبدو مثل الغيمة التي تخفي الأمطار. هذه المدينة ليست مثل "برشلونة"، أو باريس، أو حتى أمستردام، بل هي مثل كلمة نابية يجب التكفير عنها، هذه المدينة «غريبة».

لا أقول إنها ليست جذَّابة. رغم محاولاتها المستميتة لإحباط الناس، فإنهم لا يرحلون، ومن يغادرون يعودون مجددًا. يقولون إن السبب هو شعبها، وإنك ستضطر للسفر طويلًا حتى تجد شعبًا طيبًا مثله. يقولون إنهم لم يأتوا لجمال جوَّها بالتأكيد، هناك جزءٌ من الحقيقة في كل كلامهم.

عاش «سامي أجنيو» في هذه المدينة طوال حياته حتى انحفرت خريطتها في عقله بكل شوارعها وأنهارها مثل البصمة. عندما يفتح فمه، تسمع صوت المدينة الحاد القاسي يخرج منه بصخب، حتى هو لا يحتمل سماع صوته. لا يطيق «سامي» هذا المكان، ولا يمكنه سبه أيضًا. سيفعل أي شيءٍ ليتخلص منه؛ ليهرب ويبدأ من جديد في مكانٍ أكثر دفئًا مثل «فلوريدا» أو «بنيدورم». مكان لا يشعره بأنه محاصر. لقد حاول، يعلم الله كم حاول بجد. لكن هذا البلد مثل المغناطيس، يجذبه ويسحبه ويعيده إليه. مهما سافر بالطائرة أو القارب أو حتى في خياله - وهي أصعب وسيلة للابتعاد - يظل دومًا ابن هذه المدينة. حتى لو كان ابنًا عاقًّا، فهو مربوط بها.

يحاول «سامي» العيش بأسلوبٍ وسطي الآن؛ مثل أن يقف على الخط الفاصل بين أفضل الأحياء وأسوئها. إنه يعلم بأنه لن يتخلص من وضعه هكذا؛ فرائحة القذارة لن تزول ببعض الصابون، أو بالابتعاد عن مصدرها. إنه من هذا المكان، وهكذا أولاده. هذا ليس جيدًا، لكن في هذه الأيام هناك بعض الأمل المتزايد الذي يلوِّح به الشباب. هناك بعض الأفراد يرفعون رؤوسهم فخرًا ويقولون: «أنا من هذه المدينة ولست آسفًا على ذلك". يظن "سامي" أن هؤلاء الشباب حمقى. إنه يخشى على أطفاله، خاصةً ابنه. الفتى يتمتع ببعض الصلابة في قلبه، مثل صلابة هذا المكان. الصلابة ليست أسوأ طريقة لتتمالك أعصابك في مدينة مُحبِطة كهذه، لكن «سامي» يعرف أن الصلابة المتزايدة

تولد الغضب، والغضب يولد القسوة. وهذا ما يراه في كل مرة ينظر إلى ابنه «مارك». هذه المدينة تفسد الفتى، كما أفسدته ذات مرة.

ولد «جوناثان موراي» هنا أيضًا، على بعد خمس دقائق من منزل «سامي»، لكن المسافة الحقيقية بينهما شاسعة. ليس الوضع المالي وحده مَن يمنع رجلين من الاختلاط ببعضهما. هناك أيضًا مستوى التعليم والسمعة، وشيءٌ آخر أكثر صعوبة في الشرح. إنه الأسلوب الذي يتَّبعه كلٌ منهما لمواجهة الحياة. لا يمكن أن يَدَّعي «جوناثان» بأنه يعرف هذه المدينة مثل «سامي». فالمعرفة تتطلب ألفة مع الشيء، أما هو فيُبعد نفسه عن كل شيء منذ البداية. هذا المكان ليس وطنه، لا يبدو كذلك أبدًا. يقود في شوارع المدينة كل يوم ولا يسترق النظر إليها حتى. لا يمكنه التمييز بين شكل المدينة الآن وشكلها قبل عشر سنوات، لا يمكنه معرفة ما اختلف فيها بين الحاضر وبين السبعينيات والثمانينيات. بالنسبة له، مثلها مثل أي مدينة صناعية متوسطة المساحة تطل على البحر. «كارديف"، "ليفربول"، "جلاسجو"، "هول". كل المدن الكبيرة الكئيبة تتشابه. لا يشعر «جوناثان» بالانتماء أو الارتباط مع هذا المكان، لا يعرف شعور الوطن.

هذه بلفاست، هذه ليست بلفاست. هذه هي المدينة التي لن تدع رجلًا يهرب.

حلَّ الصيف على المدينة. ما زال في أوله، لكنه حارٌ بما يكفي لكي يخلع الشباب قمصانهم، وتظهر أكتافهم وبطونهم وظهورهم الحمراء من الشمس وكأنها قطعة لحم. هذا الصيف يضم كأس العالم لكرة القدم، الناس هنا يعشقون كرة القدم لأنها لعبة تتضمن فريقين والكثير من الركل. يمكن سماع تشجيع الجماهير في التليفزيون وهو يخرج من نوافذ كل بيوت الحي الشرقي. الناس يشربون وسيشربون المزيد، لذلك في الصباح، ستفوح رائحة عفنة من المدينة. حلقت هليكوبتر في السماء، إنها تشبه حشرة تطن، حركت مروحتها الهواء الساخن في كل مكان بينما ظلت ثابتة مكانها تقريبًا.

أما النساء اللواتي لا يهتممن بالرياضة، أخذن كراسي من حول طاولة الطعام وخرجن بها إلى الشارع. وضعت كل واحدة كرسيها أمام بيتها وجلست مثل تمثال "بوذا" البدين، وظلت تشاهد السيارات المارة. أحيانًا ينادين بعضهن عبر الشارع ويقلن: «من الجيد أن الجو تحسن قليلًا»، أو «سمعت أنه سيسوء مجددًا آخر الأسبوع». أحيانًا يعدن لمطابخهن ليحضرن مشروبًا غازيًّا في كوب أو في علبة معدنية، يضعن المشروب البارد على جبهاتهن ويزفرن قبل أن يشربن. تصبح بشرتهن وردية وكأنها متوهجة بسبب الحر. وكذلك صدورهن تصبح وردية ثم تتحول للون الأحمر. بحلول الساعة العاشرة، تؤلمهن بشرتهن بشدة وكأن الحشرات لسعتها، لكنهن لا يفكرن لحظةً في شراء الآيس كريم؛ الآيس كريم للإجازات خارج البلاد فقط. فشمس بلادهن ليست قوية إلى هذه

الدرجة، أشعتها أضعف من أن تسبب سرطانًا، فهي ليست كشمس باقي أوروبا. كل امرأة في الشارع تصر على أن تجعل بشرة جسمها سمراء بحلول سبتمبر. يرتدين تنورات ويرفعنها حتى ركبهن فتظهر أفخاذهن وعروقهن، ويمكنك أن تلمح بعض الفرو في الشتاء وأحيانًا لمحة من الملابس الداخلية الدانتيل الرقيقة! هذه الشوارع ملكٌ لأمهاتهن وجداتهن. إنهن يحرسنها بالأسلوب نفسه منذ طالبت أحواض بناء السفن بالحصول على البيوت المجاورة لها، فثارت البيوت في مائة شارع ردًّا على ذلك. منذ ذلك الحين، أصبحت المنطقة الشرقية معروفة باسم «الشرق العظيم».

أطفال هؤلاء النساء إما يشاهدون المباراة أو يلعبون الكرة بين السيارات. يتجولون في الشارع صعودًا ونزولًا بدراجاتهم، يتركون المقود ويرفعون أذرعهم عاليًا وكأنهم في طقسٍ ديني. ما زال هناك شهران على بداية الدراسة، يوليو وأغسطس. بالنسبة لهم، ما زالت الإجازة طويلة، بل أبدية، والأطفال سعداء بذلك.

الجو حار في الحي الشرقي. يعد أحدهم شواءً، فتخترق رائحة اللحم أنوف النساء حتى يسيل ريقهن. إن تحسن الجو؛ فسيقمن بشواءٍ في آخر الأسبوع. ولو تحسن الجو لفترةٍ أطول، قد يذهبن إلى الساحل شمال "بورت راش» حيث يوجد أصدقاؤهن بعربات «كارافان»، أو قد يذهبن جنوبًا إلى الملاهي المائية في «نيوكاسل». إن الأطفال الصغار يحبون الملاهي المائية والشواطئ الرملية الواسعة.

لا يوجد شاطئٌ عادي يناسب الأطفال في المنطقة الشرقية، لا تطل الشواطئ هنا إلا على الشارع والمحل الذي في آخره، لا يوجد حديقة أو مساحة عشبية. يظن الناس أن المنطقة الشرقية ألوانها أحمر وأبيض وأزرق، لكن نساء المنطقة يعرفن الحقيقة. الشرق لونه رمادي وله أربعين ظلًّا مختلفًا، كل واحد داكن أكثر من الآخر. هذه ألطف طريقة لوصف المطر إلى أن تشرق الشمس. لا يوجد مكان مناسب للشواء في الخارج؛ فالشارع يحيط بالبيوت من الأمام والخلف، ولا توجد مساحة كافية لوضع كراسي الشاطئ القابلة للطي. في الصيف، تفوح في المدينة رائحة العشب المقصوص والشجيرات النامية. لكن في الجانب الشرقي، لا يوجد عشب لقصه، بدلًا من ذلك، هناك رائحة قار ذائب من الحرارة، والكثير من القمامة، وعوادم السيارات المارة في طريق «نيوتاوناردز». في الأيام الدافئة، يمكن شم رائحة البحر وهو يدخل خليج «كونزووتر» وتزيد كثافته، عندها تصبح رائحته عفنة مثل رائحة البيض ورائحة المراحيض العمومية الكريهة.

أوشكت الساعة على الخامسة. لقد انتهت المباراة، وربحوا. هذا يعني أن الفريق الخاص بالجانب الآخر من المدينة خسر. هناك طرفان لكل شيءٍ هنا،

خاصةً كرة القدم. كل واحدٍ مجبر على اختيار طرف والالتزام به.

ينهض كل رجلٍ من على الأريكة ويلغي صوت التليفزيون، ثم يقول لزوجته: «أعدي الشاي»، فترد عليه: «أعده بنفسك».

تقول ذلك بوقاحة وهي تضع يدها في وسطها، وتلوي كتفها كفتاة شابة ترتدي حذاءً بكعب. في المنطقة الشرقية، هناك مواجهة قبل كل وجبة، ولا يمكن التأكد من انتهاء المشكلة إلا بعد البدء في الأكل. الطعام في الثلاجة مقسم ومنظم بعناية إلى قسمين، إما بقايا طعامٍ وإما طعامٍ جديد. يحضرون وجبتهم من بقايا الطعام. إذا كان الطعام الموجودَ لا يكفي وجبةً مشبعة، يتم إرسال أحد الأطفال إلى أقرب محل ليشتري ما يكملون به.

في الليل، وهم يأكلون فطيرة اللحم بالبطاطس و"وافل" البطاطس والأرز، يشم أهل الحي الشرقي رائحة لحم مشوي. ستشعرهم هذه الرائحة بعدم الرضا عن عشائهم البسيط. لا شيء سيأكلونه اليوم سيرتقي لمستوى اللحم المشوي الذي يتخيلونه في عقولهم. بجانب رائحة اللحم المشوي، هناك رائحة احتراق وسخونة جافة في الجو، تشبه رائحة مجفف الشعر عندما يتم تشغيله فترةً طويلة. هذا يعني أن إحدى مناطق الحي الشرقي تحترق. لن يكون أول ولا آخر حريقٍ في هذا الموسم.

بعض مناطق المدينة مضيئة؛ حريقٌ هنا وآخر هناك، كل واحدٍ بيد فاعلٍ مختلف. وهذه الحرائق ليست تابعة لطقس «الليلة الحادية عشرة» التابع لجماعة «أولستر" البروتستانتية، حيث يقومون كل عامٍ بإشعال حرائق محدودة احتفالًا بالثاني عشر من يوليو حسب مذهبهم الدينيِّ. فهذه الحرائق ليست تقليدية أو متوقعة. تغلق النساء النوافذ بانزعاجٍ بسبب الدخان. إنهن يستمتعن بالحرائق الاحتفالية، لكن يكرهن الحرائق المفاجئة التي تأتي في غير موعدها. شهر يوليو لم يأتِ بعد. بالكاد بدأ موسم المواكب!

يبدو منظر الحرائق ليلًا من الجبل الأسود وطريق «كرايجانتليت» مثل شموع أعياد الميلاد، أو أزهار صفراء محمرة منتشرة في الأفق، شكلها بديع، لا تشعر بحرارتها عن بعد. لن تجد لها ترتيبًا منطقيًّا أيضًا، العامل المشترك بين كل حريقٍ وآخر هو الارتفاع، كل الحرائق لا يقل ارتفاعها عن ثلاثين قدمًا. بالإضافة أيضًا إلى الهدف، أو كما يحب أن يقول السياسيون: الرغبة في إحداث أكبر فوضى ممكنة.

على المستوى السياسي، تم تجريم هذه الحرائق بشدة. يقول السياسيون: «لقد انتهى هذا العهد، لقد تخطينا هذا الأمر». تبدو عيونهم في التليفزيون باردة، هذا نتيجة سنوات من النظر إلى الكاميرا والكذب. لم تحدث اعتقالات ولم تتوقف الحرائق. أصيبت المدينة بالصداع من صفَّارات شاحنات المطافئ

وهي تسرع من حريقٍ لآخر. الشرطة تحتشد في المكان، يأتون مع قوات مكافحة الشغب تحسبًا للمتاعب. سلاح المطافئ منهك، ويفكر في الحصول على مساعدة خارجية من أوروبا. المزيد من الرجال والشاحنات والأفكار الجديدة حول المشكلة نفسها. ربما يتم منع مياه الخراطيم وحاويات الماء.

لن تكون المرة الأولى التي يحدث فيها هذا؛ الصيف دائمًا عَصِيب في هذه المدينة. نسمع دائمًا أصوات صفَّارات المطافئ، والحرائق، والمتظاهرين الغاضبين. من يمكنهم تحمل تكلفة المغادرة، يذهبون إلى أوروبا ثم يعودون حين تهدأ الأمور. هكذا الحال منذ عقود، لكن هذا الصيف مختلف؛ فهو سيُعرف باسم «صيف النيران العالية». وسنشدد على اسمه كما شددنا على كلمة «متاعب»، وذلك لارتباطه بها.

ما زلنا في يونيو ولم يشتد الصيف بعد، ومع ذلك يعجز الناس عن إيجاد كلمة مناسبة لوصفه خلال المحادثات. يحتاجون كلمة شاملة ولكن مخصصة في الوقت نفسه، كلمة خاصة تميز حرائق هذه السنة عن نيران الاحتفالات المعتادة في نهاية كل صيف. لنسميها «تعميد النار" مثلًا؟ لا، هذا غير مناسب. فالتعميد طقس مقدسٌ، ولا شيء مقدسٌ في هذا الفصل. إنه مثل الغارة. أحيانًا يبدو كأن المدينة كلها تشتعل، كل مبنى يوصل النار إلى المبنى المجاور له. ما زال المسنون يتذكرون الليالي الحارقة عام ١٩٤١، حين أشعل الألمان المدينة كلها، وذهب الجميع - ماعدا الأغنياء - إلى الجبال حاملين وسائدهم وأغطيتهم. عن بعد، تبدو الليالي متشابهة، لكنها مختلفة جدًّا في الحقيقة. فـ»النيران العالية» لم يفتعلها عدوٌ خارجي. هذا النوع من العنف يفتعله الشعب داخليًّا.

من المستحيل معرفة مَن أطلق هذا الوصف أولًا، صحفي أم مذيع أم طفلٌ صغير؛ فالوصف بسيطٌ جدًّا حتى بالنسبة لطفل. بنهاية شهر يونيو، لم يعد أحد يطلق عليها اسم «حرائق متفرقة" أو "هجمات نارية"، بل اسم "نيران عالية". لم تعد الصحف المحلية فقط مَن تتحدث عنها، بل أيضًا الصحف الأوروبية وشبكة الـ»بي بي سي». يخشى السياسيون من أن هذه الأخبار ستمنع عنا الزوَّار الأمريكيين بسبب انعدام الأمن في المدينة. يجب تجنب هذا بأي وسيلة.

الناس في الحي الشرقي محتارون. حرق الأشياء جزءٌ من ثقافتهم، لكن ليس بغير نظام أو مواعيد محددة. يترنح هذا الأمر ما بين الصواب والخطأ، والناس في جدال. يتنصت الناس على بعضهم من خلال الجدران الرفيعة التي تفصل البيوت عن بعضها، لعلهم يسمعون أطرافًا من الجدال عبر ورق الحائط. "إنها تقاليدنا"، "لماذا نطيع السياسيين؟"، "إنها مسألة وقت حتى يتأذى شخصٌ ما». نعم، الناس في الحي الشرقي في حيرة، لديهم رأيٌ خاص حول الموضوع.

لطالما كانت هناك نيران احتفالات في هذه المنطقة. ليس تلك الحرائق العشوائية، بل نيران احتفالات تقليدية يتم إشعالها لليلةٍ واحدة. في الليلة الحادية عشرة من كل شهر يوليو، تُشعِل المدينة كلها نارًا لكن سرعان ما تخمد. يبدو الوضع جحيمًا، لكن على الأقل يحدث هذا الأمر ليلة واحدة في السنة. هناك تاريخ وراء هذه العادة. ربما يتعلق بالملك «ويليام الثالث» المعروف باسم «الملك بيلي» وهو يسير في مدينةٍ مظلمة والنيران هي ما تنير طريقه. وربما يتعلق بـ»مواكب أورانج» في الليلة الثانية عشرة. معظم الناس لا يتذكرون القصة بأي تفصيل، لكن ذكرى النار يصعب نسيانها. فهذه ليست نيران احتفالات عادية محاطة بالأخشاب وتشتعل فيها صورة «جاي فوكس" كما يتخيلها الغرباء. بل هي جبال من الحطب يستغرق بناؤها شهرين أو أكثر.

يشترك الجميع في بناء الموقد الخشبي، خاصةً الأطفال. يطرقون أبواب البيوت طالبين بعض الحطب والأثاث القديم، ثم يكومون كل شيء في عربات يدٍ أو «ترولي»، ويجرونها بين الشوارع حيث مكان الموقد الخشبي. ينامون بالتناوب بجانب خشبهم ليحرسوه من السرقة، ومن الأشخاص الغرباء الذين يريدون إشعال النار قبل موعدها. يقوم الشباب ببناء الموقد، لقد تعلموا ذلك من آبائهم ومن أعمامهم الفاسدين الذين علموهم أيضًا الشرب والتبول في الشارع. هناك قواعد هندسية في رص الإطارات والخشب ليتماسك الموقد. يجب توصيل وتثبيت كل العناصر معًا حتى يعلو الموقد عن جميع المداخن المجاورة له.

عند إشعال الموقد، تندفع النيران مائة قدمٍ في الهواء؛ يغطي ضبابٌ داكن المدينة كلها، تشتد الحرارة وكأنها إلهٍ غاضبٍ، تتمايل النوافذ وتنحني أطباق الأقمار الصناعية، فتبدو وكأنها أزهار ضعيفة تذبل في زهرية. يعجز الناس عن البقاء داخل منازلهم بسبب شدة الحرارة. يصرخ الأطفال بمزيجٍ من الخوف والقليل من المتعة. وأحيانًا ينهار الموقد بأكمله فتسيل النار في الشارع كالبركان. يا له من مشهدٍ مهيب تراه عن بعد بينما تتناول مشروبًا باردًا! هناك دومًا موسيقى صاخبة مع هذه الاحتفالات. إذا أغمضت عينيك، ستشعر وكأن عيد الميلاد المجيد جاء مبكرًا.

أما المنظور الآخر للأحداث، فليس مبهجًا جدًّا؛ يسقط الأطفال من ارتفاعاتٍ شاهقة، تنكسر عظامهم أو يموتون، تتطاير شرارات اللهب من الخشب الجاف، وتمسك بطرف ملابس رياضية مصنوعة من النسيج الصناعي؛ فتتشبث النار بذراع أو ساق شخصٍ ما وتلتهم جزءًا من لحمه. أما المتفرجون فيسرفون في الشرب حتى منتصف الليل، ويضربون أبناء جيرانهم دون وعي. تظهر ظلال أجسادهم والنيران تشتعل خلفهم. هذا النوع من الصور هو

المفضل لدى الصحف. بعد ذلك يظل الأسفلت يغلي أسبوعًا. تفسد الشوارع تمامًا، وتتكلف الكثير من أموال الدولةُ لإصلاحها. الأشخاص الذين لم يتربوا على تقاليد نيران الاحتفال يتساءلون عن الحكمة من إشعال نيرانٍ ضخمة في أحياءٍ سكنية، وكيف يكون مسموحًا للناس بإشعال أعلامٍ ودمى لأشخاص أحياء، لطالما كانت هناك نيران احتفالات في الحي الشرقي. لم ينجح أحد في القضاء على هذا التقليد أو وضع قيودٍ عليه.

يقول السياسيون عندما يتحدثون للصحافة: «التقليد شيء وتلك المواقد الضخمة شيءٌ آخر. إنها خطرٌ على الصحة والسلامة. إنها مسألة وقت حتى يموت شخصٌ ما بسببها».

لقد مات أشخاصٌ بالفعل، لكن هذا لم يمنع الناس من ممارسة التقليد. في الحي الشرقي وبعض مناطق الحي الغربي، يرتفع الناس بالمواقد فتبدو وكأنها أبراج «بابل» مشتعلة. يزيدون قدمًا واثنتين وعشرة كل عام ليقتربوا أكثر من السماء. أطول المواقد الآن تصل لارتفاع سبعين أو ثمانين قدمًا. هذا يساوي خمسة وعشرين مترًا تقريبًا. أو لمن يفضل التخيل، يساوي ارتفاع ثلاثة بيوت متوسطة الحجم موضوعة فوق بعضها. هذا دون احتساب الأعلام المشتعلة على أعلى نقطة في برج النار.

قال السياسيون أخيرًا: «هذا يكفي، فلتشعلوا مواقد احتفالكم بشرط ألا يزيد ارتفاعها عن ثلاثين قدمًا». لقد تم تحميلهم مسؤولية ما يحدث، ومعظم سكان المدينة لا يريدون أبراجًا نارية الآن. ثلاثون قدمًا لا يبدو ارتفاعًا مناسبًا في نظر الناس، لكن يعلم السياسيون جيدًا أن الأمور ستخرج عن السيطرة إذا منعوا التقليد مباشرةً. من الأفضل أن نَحُدَّ من التقليد تدريجيًّا، فليخمدوا النيران رويدًا رويدًا، شبرًا شبرًا إن استدعى الأمر. يرى معظم الناس أن ارتفاع ثلاثين قدمًا هو تسوية معقولة، وهناك من يفضل منعها تمامًا. أما المفكرون يقترحون بناء برج نارٍ واحد ضخم على أطراف المدينة بحيث لا تقع أضرار.

يظن معظم سكان المنطقة الشرقية أن القيود أمر فظيع. لقد بدؤوا للتو في زيادة الارتفاعات وشدة النار، فلماذا يتوقفون الآن؟ لماذا لا يواصلون الارتفاع حتى مائة أو مائتي قدم؟ لم لا يشيدون موقدًا ضخمًا تُرى نيرانه عن بعد؟ أو الأهم، من العاصمة دبلن نفسها؟ يتحدث الناس عن هذا الظلم في كل البارات والمحلات، النساء اللواتي يجلسن في الشارع تحت الشمس متضايقات بالقرار، حتى الأطفال غاضبون. فنصف موقد يعني نصف الوقت الذي يقضيه الأطفال في البحث عن حطب. ماذا سيفعلون باقي الشهر؟ هناك مناقشات حول تجاهل قرار السياسيين وبناء المواقد بأعلى ما يريدون؛

ففي نظر معظم الناس، إنه مجرد كلام. مشاهدة المباريات والحرارة تنهكان الرجال. وهكذا لا يصلحون لشيءٍ سوى شرب البيرة الباردة والثرثرة.

أما الآن قبل أسابيع من موسم نيران الاحتفالات، انتشرت نيران مختلفة تمامًا. نيران عالية، وكلٌ منها تقارب الثلاثين قدمًا المصرَّح بها بقدر المستطاع. أول حريق كان في قسم الملابس الداخلية في متجر «ماركس أند سبنسر رويال أفينو"، بدأ في كومة من المنامات الحريرية. أما الثاني فكان في حمام ذوي الاحتياجات الخاصة في مكتبة «لينين هول». بعد ذلك، اندلع حريق في مستشفى «سيتي»، ومستشفى «رويال»، والجناح التعليمي بمتحف «أولستر»، حيث احترق مجسم النمر البنغالي داخل قفصه الزجاجي. بعد الحريق الخامس، بدأت الشرطة تلاحظ العوامل المشتركة في هذه الحرائق، الارتفاع والتوقيت والفاعلين الذين يرتدون بناطيل چينز وسترات رياضية ويغطون رؤوسهم. هكذا يختلطون بالناس ولا يمكن تمييزهم في كاميرات المراقبة.

يتم التخطيط لهذه الحرائق بدقة؛ تندلع من حقيبة معدَّة مسبقًا بخليطٍ دقيقٍ من بترول وورق وولاعة. تترك الحقائب دائمًا في أوضاعٍ تجعل اشتعالها سهلًا. لم يتأذَ أحدٌ بعد؛ فالحرائق مجهزة لتندلع حين يكون حولها القليل من الناس، إما في الصباح الباكر أو مع اقتراب موعد إغلاق المحلات. تقول الشرطة في تقاريرها إن هذه لمحةٌ بسيطة من الرحمة، لكنها مسألة وقت حتى تقع إصابات؛ فهذه نار، ولا أحد يمكنه التحكم فيها.

بمجرد أن تم الربط بين الحرائق رسميًّا ، بدت وكأنها تندلع في كل مكان. في البداية، اشتعلت في الأماكن شديدة الوضوح فقط. نصف مباني المدينة تعاني من آثار احتراق، وأضرار بسبب قوة الماء المندفع من خراطيم المطافئ. التكلفة رهيبة، ومن المُحزن التفكير في احتمال خسارة أحد مباني بلفاست المهمة. البرلمان ومجلس المدينة في أقصى حالات الاستعداد، ومحاطان بسورٍ من رجال الشرطة، الذين يرتدون ستراتٍ مضادة للرصاص، ويحملون طفاياتٍ حريق. والآن بعدما حصل مشعلو الحرائق على انتباه الإعلام، انتقلوا لأهدافٍ أقل وضوحًا؛ الكباري، والمخازن، والمباني المهجورة، ومنشآت الإسكان الاجتماعي، ومركز "مايسفيلد" الترفيهي المُهمَل. أصبحت المدينة كلها مشتعلة. لكن هذه ليست مجرد فوضى، بل هي فوضى منظمة بدقة. هناك قواعد للعبة؛ ممنوع إيذاء المدنيين، إياك أن تتم رؤيتك، والأهم هي قاعدة الثلاثين قدمًا. هذا هو قانون «النيران العالية».

في الأيام القليلة الماضية، ظهر فيديو على الإنترنت ونشره الناس على "الفيسبوك" و"اليوتيوب" وفي الأخبار المحلية. مجرد مقطعٍ قصير يتكرر صباحًا وظهرًا ومساءً. يظهر في الفيديو شخص يدعو نفسه بـ»مشعل

النيران». من المستحيل معرفة هويته. قد يكون امرأة حتى. إنه يرتدي قناع "جاي فوكس" وسترة سوداء لها غطاء يضعه على رأسه. لا يتحدث، لكن نظرًا لهيئته، يمكن أن نتخيل لهجة حي شرق بلفاست، يخرج الكلام من الأنف والحلق. إنه يحمل لافتة يوجهها إلى الكاميرا. مكتوبٌ عليها:

«ممنوع إيذاء المدنيين»

«إياك أن تتم رؤيتك»

«ليكن ارتفاع النيران ثلاثين قدمًا»

هناك موسيقى صاخبة في الخلفية، وكأنها تُحفر بداخل روحك. إنها أغنية «Fire Starter" (مشعل النار) لفرقة "ذا بروديجي». من السهل أن تتخيل قرون شيطانٍ تحت غطاء الرأس الذي يرتديه هذا الشخص.

بمجرد أن أظهر كل لافتاته، ظهرت شاشة سوداء عليها خمس كلمات باللون الأبيض وبخطٍ كبير: «دعوا كل حرياتنا المدنية وشأنها». هذا هو المطلب الوحيد للشخص المسؤول عن كل "النيران العالية". هو - أو هي - شخصٌ واحد لكن بمائة ذراعٍ كالأخطبوط. وكل ذراعٍ تشعل نيران التظاهر والاعتراض. ستشتعل المدينة حتى يوافق السياسيون على رفع القيود، فمن المستحيل أن توقف نارًا تمتد في كل اتجاه.

لا أحد يعلم مَن هو «مشعل النيران»، ما عدا «سامي أجنيو»، وهو ليس مستعدًّا للاعتراف بذلك بعد. لقد تعرف على شيءٍ مألوف في شكل كتفه، وفي الطريقة التي يحرك بها يديه بغرور وكأنه يستفز أحدهم ليضربه. في البداية، كان مجرد شك، لم يكن «سامي» واثقًا. لم يرد التصديق، لكنه شاهد الفيديو مرارًا وتكرارًا على «اللاب توب» بصوتٍ منخفض حتى لا تسمع زوجته؛ غريزته الأولى هي أن يحميها دائمًا. حاول «سامي» تجاهل الحقيقة. إنه مستعدٌ ليفعل أي شيء في سبيل أن يكون مخطئًا هذه المرة، لكنه يعرف من يختبئ خلف القناع. إنه متأكدٌ تقريبًا، مع ذلك من الممكن أن يكون مخطئًا، صحيح؟

الساعة الآن الخامسة في الحي الشرقي. اجتمعت شاحنات المطافئ في جراج مركز «كونزووتر» التجاري. إنهم يبذلون جهدهم للسيطرة على حريقٍ صغير في الطابق الثاني من الجراج متعدد الطوابق. بدأ الحريق تحت سيارة، لذلك سبب انفجارًا صغيرًا ثم انتشر إلى باقي السيارات على الجانب الآخر. الحرارة الشديدة أشبه بجدارٍ حول الحريق، رجال المطافئ غارقون في العرق تحت أقنعتهم وملابسهم المضادة للنار، تجمع بعض المراهقين عند مكان عربات «الترولي». بعد قليل سيرمون أشياءً على رجال المطافئ

والإسعاف. لا يعرفون لماذا يفعلون هذا، لكنهم يشعرون برغبةٍ في تطويح أذرعهم. إنه نوعٌ من العنف الذي ورثوه من الجيل السابق. إذا وضعت طوبة في يدهم، سيطوحون أذرعهم ويقذفون الطوبة غريزيًّا باحتراف.

على بعد نصف ميل في منطقة «أورانج فيلد»، شم «جوناثان موراي» رائحة احتراق سيارة تزكم أنفه، شعر بالاختناق فسعل، بدأت عيناه تدمعان، أغلق النافذة بالرغم من الحرارة. لم يشاهد الأخبار أو يقرأ جريدة منذ شهور. خلال هذه الفترة، لم يترك البيت أكثر من عشر دقائق في كل مرة، يسرع إلى البقالة الصغيرة أول الشارع ثم يعود. مؤخرًا، أصبحت حياته محدودة ببيته ذي الثلاث غرف المطل على شارع «كاسلراي»، وهو مُلزمٌ بها جدًّا. إنه لا يعرف شيئًا عن «النيران العالية» أو تحديد طول مواقد الاحتفالات بثلاثين قدمًا فقط، بل لا يعرف حتى إن هذه السنة تضم بطولة كأس العالم. لكنه يشعر بحرارة الجو في الخارج، لذلك يعرف أن الصيف قد حل. لم يفكر في شيءٍ بخلاف ابنته طوال ستة أسابيع.

استغرق وقتًا طويلًا حتى ينطق اسمها. اختار «صوفي»، وهو لم يستقر عليه بعد، خوفه منها هو أول ما يشعر به كل صباح. إنه يحمل على عاتقه ذنب وجودها كل ليلة. في ظروفٍ أخرى، كان ليحبها. لا، لن يسمح لنفسه بذلك، لكنه لن يكون قاسيًا معها أيضًا.

أغلق الستائر، لكن رائحة الدخان ما زالت عالقة في الغرفة. كبر «جوناثان» في الشرق، وهذه الرائحة ليست غريبةً عليه، لا بد أنه موسم «نيران الاحتفالات». كيف مرت الأسابيع بهذه السرعة؟ لقد مضى عامٌ بالفعل على قصته مع والدة «صوفي».

إنها تنام على بطنها الليلة، وحفاضها الأبيض منتفخٌ وبارز تحت الغطاء. لم يلبسها ملابس لثلاثة أيام بسبب الحرارة. من اللطيف أن يستريح قليلًا من الغسيل. من يعلم كم مرة يحتاج الطفل إلى تغيير ملابسه في اليوم؟ أو كم مرة يحتاج للطعام؟ هناك الكثير ليتعلمه.

وقف «جوناثان» بجانب سرير «صوفي» وراقب تنفسها. لا تكون خطرة على البشرية حين تنام، لكن من الصعب الثقة بها. انحنى وتأمل وجهها من خلال قضبان سرير الأطفال. ارتفع جانب فمها قليلًا. لا تعاني من غازات البطن، بل بدأت تبتسم. ستأتي مراحل أخرى. قريبًا سوف تتكلم ولن يستطيع منعها.

لا يجب أن تتحدث «صوفي» لأنه ليس واثقًا مما ستقول. فكر «جوناثان» في قطع لسانها. يمكنه فعل ذلك ببراعة لأنه طبيب. لقد تدرب سبع سنوات على تشريح الجسم وخياطته. هذه الأمسية لم تكن المرة الأولى التي يقف فيها عند سرير ابنته ويتخيل نفسه يقطع لسانها. لقد فكر في النزيف وفي كيفية

إيقافه، وفكر في نوع المخدر الذي سيستخدمه، ثم نوع المسكنات المستخدمة لاحقًا. يتمنى ألا يصل الأمر إلى هذا الحد. لكن لو حدث، فلن يكون أمامه اختيار.

أغلق «جوناثان» نافذة غرفة «صوفي». الجو شديد الحرارة الليلة. الجو في الحي الشرقي يشبه بخارًا ساخنًا محبوسًا داخل أنبوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

بلفاست للعشاق

لطالما كان اسمي «جوناثان»، ليس «جون»؛ فـ»جون» اسم أبي، لذلك هو محجوز بالفعل. وبالتأكيد ليس «جوني»، على الرغم من أنني أحيانًا أنادي نفسي به عندما أتمشى في البيت من غرفةٍ لأخرى رافعًا ذقني بغرور. «جوني موراي» يصلح ليكون اسم لاعب «رجبي» أو شاب تقابله صدفة في حمامات ملهى «كوكستاون» الليلي وتدردش معه بينما يغسل يديه بالماء البارد. «جون موراي» اسم يليق بشابٍ مستهتر، يقود سيارته بتهورٍ بيدٍ واحدة، ويرتدي قميصًا عليه كلماتٍ مختلفة كل يوم، مثل «فاشل» و»هارفارد» و»أهلًا يا سيدات». يتحدث مع السيدات كلهن بالطريقة نفسها، وكأنهن يتحدثن اللغة نفسها. إنه لا يخشى أن يرقص أو أن ينظر إليه الناس بتمعن. لطالما كان هذا أساس كل مخاوفي.

لكنني «جوناثان»، ثلاثة مقاطع. هذا لم يكن اختياري. أولًا، كان لديَّ والدان مثيران للأعصاب، ودومًا يناديانني بذلك. بعدها أصبحت طبيبًا. لم يكن هناك وقتٌ لتغيير شيء. فكرت في تغيير اسمي، لكن فات الأوان بعدما أصبحت في الثلاثين. بالإضافة إلى أن مرضاي لن يثقوا في طبيبٍ اسمه «جوني».

في الماضي، حاولت تقصير اسمي، خاصةً في الجامعة حين كنت أحاول التودد إلى الفتيات. كنت أمد يدي عبر الطاولة لأصافح فتاة لا أعرفها. هذا ما يفعله أي شاب وسيم. كنت أقول «أهلًا، أنا «جوني موراي». سررت بلقائكِ”، لكن اسم «جوني» لم يناسب «موراي» أبدًا. لم أحب انتهاء الاسمين بحرف الياء. كلما نطقته، شعرت به يعلق خلف أسناني، وكأنني أريد البصق لكن فمي جاف. تجاهلتني الكثير من الفتيات وانشغلن بمحادثاتٍ أخرى عمدًا، لم أعرف حتى أسماءهن. في النهاية استسلمت. بعد ذلك عدت لأكون «جوناثان» مجددًا، أو بالأحرى أصبحت صامتًا معظم الوقت.

في المستشفى، أنا دكتور «موراي» بالنسبة للمرضى والأطباء على حدٍ سواء. أتساءل إن كان هذا يعني بُعد المسافة بيني وبين زملائي، أم هو مجرد تعامل مهني. أقف خارج غرفة الأطباء وأستمع لأرى إن كانوا ينادون بعضهم بأسمائهم الأولى، لكن من المستحيل معرفة ذلك لأنهم يقولون أشياءً مثل «ناولني ملعقة الشاي» و»هل يوجد لبن في الثلاجة؟»، نادرًا ما يحتاجون لمناداة بعضهم، أشعر أنني خارج دائرتهم الاجتماعية. أكاد أكون واثقًا من أنهم يستخدمون أسماءهم الأولى مثل «كريس» و»مارتن» أو «مارتي». أشك في أن الجميع يذهبون إلى بار بعد العمل ولا يدعونني. أحاول أن أوهم نفسي

بأنني لست منزعجًا بينما أراقبهم من خلف ستار مكتبي وهم يغادرون الجراج في المساء. صحيح أن كلًّا منهم يغادر بسيارته وحده، لكن هذا لا يثبت شيئًا.

مؤخرًا أصبحت أتخيل موظفات الاستقبال يناديننني بـ»دُك» بدلًا من «دكتور»، أصواتهن ناعمة في أذني مثل اللبن الدافئ. أعرف أنه خيالٌ سخيف وغير عملي. فالقسم به أربعة أطباء، يمكن مناداة أيٍ منهم بـ»دُك». من الأفضل أن أخترع لنفسي اسم شهرةٍ خاص. ربما «مينتي»، ليتناسب مع نطق باقي اسمي «موراي». لكن موظفات الاستقبال لسن بالغات الذكاء. إنهن بسيطات، يكتبن البيانات ويجبن على المكالمات، لن يفكرن في هذا الاسم وحدهن. يجب أن أتخلى عن خيالاتي الآن. أنا إنسانٌ نفعي، حتى في خيالاتي عن موظفات الاستقبال وما يرتدينه تحت ملابس العمل.

ليس لديَّ اسمٌ أوسط، هذا من فعل والديَّ، لم يخططا لإنجاب أطفال. لو ناقشتهما في الأمر لقالوا إنهم يفضلون لو حصلوا على كلاب أو تماثيل للحديقة بدلًا من نسخةٍ صغيرة من نفسيهما. لطالما كنت وسأظل مجرد حادثة. وإن كنت أظن أن هذا ليس وصفًا دقيقًا لوضع بذرتك في رحم زوجتك. الحوادث تقع دون قصد، مثل كسر آنية فخارية أو تحطيم سيارة. وعادةً يكون للكحول يد في الموضوع. مع ذلك، كان إنجابي يُشار إليه دائمًا بكلمة «حادث» في منزل عائلة «موراي». ربما كلمة «نهاية محبطة» تعدُّ وصفًا أكثر دقة، أو «عواقب مؤسفة»، لأنهما أخبراني أكثر من مرة إنهما خططا لكل شيءٍ بدقة. حتى إنهما أشعلا شموعًا وتمنيا.

بعد «الحادثة»، استمتع والداي بصحبة بعضهما تسعة أشهرٍ. يفترض أن تكون مدة أكثر من كافية ليعتادا على فكرة الأطفال، لكن لا. لقد أمضيا تلك الفترة في الشرب والخروج والتسكع مع الأصحاب على ساحل "الريفييرا" الفرنسي. حاولت أمي إخفاء مشكلة بطنها المتزايد في الكبر بالملابس. أخبرني أبي أنه كلما غيرت أمي ملابسها وقت النوم، كان يصاب بالصدمة عندما يرى بطنها الذي تضخم في الشهور الأخيرة. لم يكن يستطيع النظر إلى بطنها مباشرةً، وبدلًا من ذلك، كان ينظر إلى جانبها بعينين زائغتين، مثلما يفعل أي شخص يشاهد فيلمًا مرعبًا على التليفزيون. كانت أمي تسأله وهي تشير إلى بطنها حيث لم يعد يلتقيان طرفا بنطالها: "ماذا نفعل بشأن هذا؟"، فيهز أبي كتفيه ويقول: "لنناقش هذا غدًا". بعد ذلك، يصبان نبيذًا أحمر في الغالب ثم يتكرر المشهد نفسه في المساء التالي، وكأنهما في الموسم الأخير من مسلسل كوميدي. عندما أنجبت أمي قالت: «ماذا نفعل بشأن هذا؟»، عندها لم يعد ممكنًا تأجيل المناقشة.

هذا ما كانا يحكيانه لي قبل النوم وأنا طفل، ربما لهذا السبب أصبحت شخصيتي هكذا.

لم يكن أحدهما يرغب في الأطفال، وأيضًا لم يكن ممكنًا عرض الطفل للتبني. كان والداي يعملان؛ أمي محامية، وأبي وظيفته تتعلق بالمال، ليس محاسبًا لكن شيئًا مشابهًا. فكرة التخلي عن الأبناء ليست شائعة في دوائرهم الاجتماعية. سيظن أصدقاؤهم ومعارفهم أنهما من طبقةٍ شعبية لإنجابهما طفل دون أن يريداه. هذا ما يفعله البسطاء. إن تسرب خبرٌ كهذا، فلن يدعوهما أحدٌ إلى حفلات العشاء. سينظر الناس إليهما بانتقاد ويتهامسون في قاعات فنادق «بلفاست». لم يتحمل والداي فكرة أن يكونا منبوذين، لذلك احتفظا بالطفل وسمياه «جوناثان».

خيالهما كان محدودًا كحماسهما. لم يستطيعا اختيار اسمٍ ثانٍ. وهكذا عمداني بهذا الاسم ولم أستطع الهروب منه أبدًا. بدون اسمٍ أوسط، لم أكن مميزًا بين كل من يحمل اسم «جوناثان موراي» في العالم الغربي؛ كلهم رجال شداد لديهم وظيفة في مجال الهندسة وزوجة وسيارة عائلية يبدلونها كل ثلاث سنوات. لا فائدة من البحث عن اسمي على الإنترنت، فهناك على الأقل عشرة يحملون اسم «جوناثان موراي» في بلفاست وحدها، ومائة في أيرلندا.

اتخذت من اسمي عذرًا لكي أكبر كطفلٍ غير مميز. لم يفعل والداي شيئًا ليقنعاني بالعكس. لم يكونا قاسيين بالضرب أو الكلام، لم ينقصني الطعام أو أي من ضروريات الحياة؛ فأمي تعد الأمومة رياضة تنافسية. لم تحتمل أن تخسر أمام زميلاتها، لكنهما لم يكونا موجودين في حياتي. كانا يدفعان لجليسة الأطفال لكي تأتي معي إلى الحفلات المدرسية وتصورها بالكاميرا. لم يشاهداها بعد ذلك، لكنهما أبقياها على رفٍ في المكتب في حال اضطرا لإظهار دليلٍ على اهتمامهما بي لأحد. لقد نسيا عيد ميلادي أكثر من مرة، فكانا يقدمان الهدايا قبل أو بعد الموعد بأيام. لم يلمساني أبدًا سواء بحنانٍ أو بشدة. بمجرد بلوغي السادسة عشرة، هاجرا إلى نيوزيلندا بحجة العمل.

لم أذهب مع والديَّ إلى نيوزيلندا. كنت أنهي تعليمي الثانوي، بعد عامين سأدخل اختبارات المستوى المتقدم ثم ألتحق بجامعة «كوينز» لدراسة الطب. شرح لي أبي هذا مائتي مرة على الأقل بمجرد أن أتممت الثانية عشرة. تمت كتابة التعليمات للمحامي ولم أستطع تغييرها، تمامًا مثل اسمي. هناك مالٌ يكفي المدرسة الداخلية، ومصاريفي، ولشراء سيارة إن أردت واحدة حين أصبح في السن القانوني. كل المطلوب مني هو أن أترك والديَّ يذهبان بدوني. استغرقهما الأمر ستة عشر عامًا ليمكنهما فعل ذلك دون أن يبدوا والدين مريعين في نظر أصدقائهما.

قالت أمي: «من القسوة أن ننقلك إلى نيوزيلندا يا «جوناثان». كل أصدقائك هنا في بلفاست، لا نريد أن نحرمك منهم». لقد نظمت حفل عشاءٍ لكي يسمعها أصدقاؤها وهي تقول هذا كوالدةٍ عاقلة. لم أستطع التفكير في

شخصٍ واحد يمكنني تسميته بصديقي. ربما الفتى الذي جلس بجانبي في حصة العلوم وأقرضني قلمًا ذات مرة. لم أكن حتى متأكدًا من اسمه، ربما "تيموثي" أو "نيكولاس". كان اسمًا غريبًا. رأيت عيني أمي متعلقتين بما سأقوله. كانت يائسة، وكذلك والدي وهو يضم ويفرد يديه بتوترٍ تحت الطاولة. من الأفضل لو أطلقا عليَّ النار. إن عدم اهتمامهما بي هو عبءٌ حملته طوال حياتي مثل الثقل، لذلك قلت: «بالطبع يا أمي. من الأفضل أن أبقى هنا». لم أكن منزعجًا أيضًا بشكلٍ خاص.

بعد ذلك، قضيت معظم وقتي وحدي. أتحدث عن مدة تقارب الأربعة عشر عامًا.

من الظلم في حقي لو قلت إنني لم أحاول اكتساب أصدقاء في تلك المدة. لفترةٍ قصيرة في الجامعة، كنت جزءًا من جماعةٍ مكونة من طلبة الطب. هذا ما يعرف باسم «محاضرة»، أما الاسم البديل فهو «خمول»، لكن الحقيقة هي أن الاسمين لا يناسبان المجموعة، فهم بعض الأفراد من المخلصين لهدفهم وليسوا بحاجةٍ لمحاضرة ليقتلوا الدرس فهمًا. لم يكونوا متوافقين وبالتأكيد لم يبدوا كأصدقاء يمكن أن تحتفظ بصورٍ معهم. أدركوا بأنهم متصلون معًا بسبب ظروفهم واختيارهم. وفهموا ألا يتحدثون عن مدى غرابة شكلهم معًا حين يجتمعون حول طاولة، وأيضًا عن صمتهم الطويل، صمتهم كان عبارة عن نوع ضعيف من الاستقلال، يمكن تمزيقه بسهولة.

لم أكن واثقًا أبدًا إذا ما كانت هذه تعد صداقة، لكنها أفضل من الفراغ التام الذي ملأ حياتي السابقة. كنت عادةً في المكان نفسه مع هؤلاء الناس؛ المستشفى، الكافيتريا، قاعات المحاضرات، مقاهي الطلبة، السينما. لقد تحدثنا مع وعن بعضنا، ونظمنا بعض الأنشطة معًا مثل لعب البولينج. في عيد الميلاد، لعبنا «بابا نويل السري»، أعطينا لبعضنا هدايا دون الإفصاح عن هوية صاحب كل هدية. أعطيت جوربًا لأحدهم، واستقبلت مثله. كنت مسرورًا عندما فتحت هديتي ووجدت أنني لست الوحيد الذي أعطى جوارب. في عيد ميلادي، اشترينا كعكة جاهزة من محل وجلسنا في مطعم وغنوا لي «عيد ميلاد سعيد يا عزيزنا جوناثان» بطريقةٍ غريبة. كان هذا لطيفًا، لكنني لم أشعر ولو للحظةٍ أنني عزيزٌ على أحد بشكلٍ خاص. كنا سبعة، ثلاث بنات وأربعة أولاد. كنت أعرف أن الرابط الوحيد بيني وبينهم هو معطفي الأبيض والسماعة الطبية.

خلال تلك الفترة، كنت أجلس في الكرسي وأبعد نفسي عن دردشتهم حول الطاولة، ثم أنظر إلى وجوههم المألوفة وأتساءل إن كانوا حقًا يُعَدُّون أصدقائي. لم أحبهم بشكلٍ خاص أو أستمتع بصحبتهم، لكن ربما تتطلب الصداقة شيئًا غير الشعور بالراحة. نعم، بعد حساب الأدلة التي أمامي -

جوارب عيد الميلاد، وكعكة عيد ميلادي، و"نوالا" التي قبلتني ذات مساء بجانب سيارة "رينو كليو" وهي سكرانة - استنتجت أخيرًا أنهم أصدقائي بالفعل. هذا هو شعور أن يكون لديك أصدقاء. يا له من شعورٍ محبط!

في صغري، انشغلت بفكرة الأصدقاء. اللوم على التليفزيون، أو بالأحرى على والديَّ اللذين تركاني وحيدًا مع تليفزيون في كل غرفة. تكوَّنت عندي فكرة مثالية عن الصداقة، وظننتها مليئة بالغناء والرقص كما في التليفزيون والأفلام. عندما كنت أتخيل نفسي مع أصدقاء، كان الجو يصير مشمسًا في خيالي. كنت أتوق لتلك الصداقة المبهجة، تمامًا كما كنت أتوق لحمامات السباحة كلما شممت رائحة كلور. كانت صورة أمريكية غريبة. أشخاص وسيمون، أسنانهم بيضاء، يضحكون ويعانقون بعضهم، أعني كأصدقاء وليس عشاقًا. لكن الواقع يختلف هنا في شرق بلفاست. المطر يزيل البهجة من كل ما يلمسه. لم يرأف بالأشخاص الذين فتحوا لي أذرعهم وابتسموا لي ورحبوا بي في بيوتهم في عيد الميلاد وذاكروا معي في المكتبة. هؤلاء الأشخاص لم يكونوا وسيمين، لم يكونوا كذلك أبدًا.

عندما قارنت بين أصدقائي والأصدقاء الذين في التليفزيون، وجدت أنه لا مجال للمقارنة أصلًا. كم تمنيت أصدقاء وأحباء مميزين، لكن لم أحصل على أي منهم حتى آخر سنة لي في الجامعة، لكن هذا لم يعنِ الخسارة. كان ما زال هناك أشياء يمكن فعلها. يمكننا أن نستغل شبابنا بقدر ما يمكن؛ كان يمكن أن نقوم بتسريحات شعرٍ أجمل، أو نمارس الحب أفضل، أو نسبح في المناطق الممنوع السباحة فيها، كان يمكن أن نتحدث بصوتٍ صاخب، كان هذا كافيًا ليجعلنا نبدو مثل الأصدقاء الذين في التليفزيون. لكنني لم أعرف كيف أقول هذا دون أن ينزعج أحد. في النهاية لم أقل شيئًا. فقدت الاتصال معهم جميعًا بعد التخرج.

عندما أوشكت على الثلاثين، فكرت في أيام مراهقتي وبداية العشرينيات من عمري، ثم بكيت بإحباطٍ وكأنني حزين على شخصٍ آخر، مع أنني حزينٌ على نفسي. لم أحضر حفلاتٍ تنكرية، ولم أذهب في رحلاتٍ مجنونة بالسيارة، ولم أتمتع بعلاقاتٍ رومانسية في إجازة الصيف. لن أستعيد شبابي ولا الفرصة لكي أحيا بروح المغامرة، لا أستطيع مشاركة حزني مع أحد، لم أحب أحدًا أبدًا، لم أتخيل نفسي من النوع المتساهل. ألوم أبي وأمي على هذا. لكن بعدما أشرب كأسين، أصارح نفسي بأنني السبب في شعوري بالإحباط؛ أنا مَن أغلقت على نفسي، خطأي لأنني كنت متحفظًا جدًّا بخصوص الرقص مع امرأة وإحاطة خصرها بذراعي. معرفتي لهذا لم تساعدني، عندما أتممت الثلاثين وحيدًا تمامًا، أصبحت منسيًّا. انتظرت ربما يغير الزمن أو الظروف حالي، فأنا لم أكن شجاعًا بما يكفي لأحاول.

في الليل، كنت أشاهد التليفزيون وكأن هناك شخصًا آخر معي في الغرفة؛ أحيانًا كنت أتحدث مع الشاشة. كنت أدفع فواتيري قبل موعدها وأذهب يوميًّا إلى عملٍ لا أحبه أو أكرهه. كل أسبوع، كنت آكل الطعام نفسه في الأيام نفسها ولَم أشرب أكثر من كأسين متتاليين، لأنني خشيت من أن أتحول إلى رجلٍ يشرب وحيدًا. مارست التمرينات كل الصباح على آلة الجري في غرفةٍ إضافيةٍ في البيت. كان من الأفضل لو جريت في الخارج حيث راكبي الدراجات والأشخاص الذين يقومون بتمشية كلابهم باكرًا. لكنني لم أحتمل فكرة أن ينظر إليَّ الناس ويقولون إنني سخيف. لم أسمح لنفسي بالشعور بالشفقة على ذاتي. سينتهي أمري إن اعترفت بهذا، لا يبدو هذا سيئًا دائمًا. أحيانًا يبدو خيارًا منطقيًّا.

منذ عامين، في الأيام الفاصلة بين عيد الميلاد والعام الجديد، أحضرت من العمل إلى المنزل زجاجة بنية صغيرة من الدواء المخدر. وضعتها على منضدة السرير لأسبوع. تشبه زجاجات البيرة، ظلت تلمع بزجاجها البني تحت ضوء المصباح وكأنها تطالب بانتباهي حتى استسلمت لها في النهاية؛ أمسكتها بيدي اليسرى طوال الليل. لقد تركت علامة مستطيلة في قبضتي من طول إمساكي بها. لقد نمت بينما أضعها قريبة من وجهي، لكن دون أن تلمسه. هاجمتني أفكارٌ كثيرة قبل أن يغلبني النوم؛ ماذا لو ابتلعتها كلها؟ لن يجدني أحد قبل أسابيع، لكن ماذا لو وجدني أحد وأنقذني في الوقت المناسب؟ ظننت أن اليأس سيسبب لي الكوابيس، لكنني فقط حلمت بأنني نائمٌ. انفتح غطاء الزجاجة في أثناء نومي، ووقعت الحبوب البيضاء. عندما استيقظت، في البداية، ظننتها أسنانًا لأنني كنت تحت تأثير النوم. جمعت ما استطعت بين يديَّ وألقيت به في المرحاض ثم فتحت الماء عليه ثلاث مرات حتى اختفى.

ارتحت لأنني لم أبتلع الحبوب و»أفعل كما نويت»، لا يجرؤ لساني على نطق الكلمة. أشعر أنني بالكاد تجنبت السقوط في هاوية.

لا بد أن تتغير الأمور. هكذا قررت ذات صباح وقلت لنفسي في مرآة الحمام بوجهٍ شاحب.

قلت لنفسي: «أنت ما زلت شابًّا ووسيمًا إلى حدٍ ما، لم يفت أوان التغيير».

في الصباح نفسه، قرأت مقالة في جريدة «بلفاست تيليجراف». ابتلعت ريقي لأهدأ بعد الذي فكرت فيه ليلة أمس. قرأت المقالة عدة مرات، ووضعت خطًّا تحت بعض الأجزاء. في النهاية شعرت أنها إشارة، لكنها ليست إلهية.

عنوان المقالة: «بلفاست للعشاق». لفت العنوان انتباهي بطريقةٍ ساخرة في البداية واعتبرته دعابة، لكن الكاتب لم يكن يمزح. واصلت القراءة. تتمنى

هيئة سياحة أيرلندا الشمالية أن تكون مدينتنا كالمدن الرومانسية الأخرى، مثل باريس و"فينيسيا" وبرلين قبل هدم جدارها، لكن بلفاست ليست من المدن التي تصرخ بصوت العاطفة، بخلاف أصوات البنادق والطبول؛ لهذا قرر مسؤولو هيئة السياحة ابتكار طابع رومانسي خاص بالمدينة. سيتم تجنيد العزاب وتوفيقهم معًا ليبدون كأزواجٍ واقعيين. فمثلًا، الأشخاص الطوال معًا، ومحبو القراءة معًا. يجب أن تتوافق المظاهر، لكن لا بد من الاحتفاظ ببعض التحفظ وعدم الاندماج في الأسلوب العصري بشكلٍ مبالغ فيه، فهذه بلفاست.

مقابل مائة وخمسين جنيهًا في اليوم، سيقضي هؤلاء الأزواج المزيفون إجازة الأسبوع وهم متشابكو الأيدي أو يقبلون بعضهم في حديقة النباتات الوطنية وبجوار «جدار السلام» وفي ثلاثين موقعًا آخر من الذي يزوره السياح. وعندما يرى السياح هؤلاء العشاق، سيظنون أن بلفاست مثل باقي المدن الأوروبية. سيتغاضون عن المطر ومواعيد فتح المحلات متأخرًا في العصر أيام الأحد. وربما يلتقطون بعض الصور كدليل لإقناع المشككين حين يعودون إلى بلادهم. يجلسون حول طاولة المطبخ في فرنسا أو إسبانيا أو أيًّا كان بلدهم، ويضعون أمامهم الصور ويقولون لمَن يجلس معهم: «انظر، بلفاست مكان آمن جدًا للزيارة. إنها مكان للأمل والحب، الكثير من الحب. مثل «سان فرانسيسكو» في الستينيات». كان أعضاء هيئة السياحة واثقين من حدوث هذا، لكنهم كانوا يحتاجون بعض المساعدة من الشباب. فالأزواج الذين لديهم كلهم في منتصف العمر ويرتدون بذلات وقمصانًا مخططة، ولا يليق سنهم بالتقبيل على الملأ.

عرفت فورًا أن هذا العمل يناسبني. رسمت دائرة بالأحمر حول المقال. أرعبتني الفكرة بشدة، فأنا بخيرٍ على حالي، ثم نظرت إلى زجاجة الحبوب الفارغة التي تقف على منضدة السرير مع أشياء أخرى صالحة لإعادة التدوير. لا، لست بخيرٍ على حالي أبدًا. يجب أن يحدث تغيير كبير وفورًا، لكن بالتأكيد لست مضطرًا للتطرف في تفكيري. هناك مئات الآلاف من الاختيارات الآمنة التي يمكنني تجربتها أولًا؛ مثل الاتصال بمكتب مواعدة، أو الانضمام لإحدى الجماعات الرياضية الخاصة بممارسة السير في مجموعة، أو الذهاب إلى كنيسة، أو حفلة تعارف. لم أفكر في هذه الأشياء من قبل، وأعلم أنني لن أفكر فيها مستقبلًا. لكن ذلك الصباح شعرت أنني مستعدٌ لاتخاذ خطوةٍ يائسة. فهناك فرصة جريئة تقدم نفسها لي. لو لم أستغلها الآن، فلن تتكرر في المستقبل. وإلا بعد عشر سنوات من الآن، سأكون نائمًا هنا في هذا البيت.

اتخذت قراري.

وسيلة التواصل موجودة مع المقال. دوَّنت الرقم على ورقة ملاحظات، وكتبت تحته الإيميل. الإيميل أسهل في التعامل، لأنه لن يتطلب مني التحدث. في البداية لم أصدق أنني قادرٌ على التواصل مع هيئة السياحة. وبعدما قدمت الطلب، لم أصدق أنني سأصل لمرحلة مقابلة. بعدها وجدت نفسي جالسًا في غرفةٍ بها اثنا عشر شخصًا في العشرينيات والثلاثينيات جالسين على كراسي مرصوصة بانتظام، لكن لم أتخيل أنني سأجلس مع «ستيفاني» في «الحديقة النباتية» وأعانقها تحت أشجار الموز.

لكنه حدث. وجدت نفسي أقبلها وهي تنظر إليَّ. نظرت للأعلى فرأيت فوقنا أوراقًا خضراء كبيرة تشبه المظلات. هذا سهل. لماذا لم أكن في هذا الموقف من قبل؟ شعرت بمذاقٍ مالحٍ قليلًا في فمي، وبسخونةٍ في جسدي، وبدأت أذوب. نسيت كيف وصلت إلى هذا المكان، ونسيت السياح الذين يلتقطون الصور، ونسيت رطوبة الصوبة التي نجلس داخلها وتغمرنا بالعرق.

بدأت أفكر في تمضية عيد الميلاد وإجازات العمل مع إنسان آخر. لا أعني «ستيفاني» بالضرورة، بل أي شخصٍ مثلها. لا بأس بها على كل حال. لم يعد هذا مجرد خيال. تجرأت أكثر وعمقتُ القبلة على الرغم من أنها لم تأذن لي بذلك. بادرت وأمسكت بيدها قبل أن تمسك هي بيدي، وشعرت بالراحة عندما تشابكت أيدينا. أخبرونا أن نتحدث معًا بينما تبدو علينا نظرات الحب. فاتكأنا على جدار وتحدثنا. اكتشفت أنه ليس صعبًا فعل هذا مع فتاة. سألتني «ستيفاني» بعض الأسئلة وأجبتها. في أثناء إجابتي، فكرت في أسئلة أوجهها لها في المقابل، وفعلت.

مرت الإجازة الأسبوعية بسرعة وجاء ظهر الأحد بسرعة. لم أتوقع هذا. آلمني فكي من كثرة التقبيل، لكنني مستعدٌ لمواصلة هذا حتى آخر الأسبوع. في الساعة الخامسة تمامًا، جاء رجلٌ من هيئة السياحة إلى «الحديقة النباتية» والتقط صورًا لي ولـ»ستيفاني» لنشرها، ثم أعطانا ثلاثمائة جنيه في ظرفين منفصلين لونهما أبيض.

قال الرجل:

- تفضل. شكرًا لمساعدتنا.

سألته:

- ماذا عن إجازة الأسبوع القادم؟

لكن موضوع «بلفاست للعشاق» كان حملةً للتمويل مرةً واحدة ثم سيتم وقفها لحين توفير تمويل آخر.

غادر الرجل ليذهب في مهمةٍ مماثلة إلى متحف «أولستر» وحديقة نباتات «تروبيكال رايفين» ثم حرم جامعة «كوينز».

حان وقت الإغلاق وقالت «ستيفاني»:

- سررت بلقائك.

- وأنا أيضًا. شكرًا على كل شيء.

كنت ما زلت متأثرًا بالتقبيل، فقلت لها:

- ما رأيكِ أن نذهب لتناول العشاء معًا؟

- الآن؟

- الآن مناسبٌ جدًّا، أو أي وقتٍ يناسبكِ.

- لديَّ حبيب يا «جوناثان». لا أظنه سيوافق أن أخرج لتناول العشاء مع رجلٍ آخر.

- لكنكِ تقبلين رجلًا آخر منذ يومين. ما شعور صديقكِ بشأن ذلك؟

- كان مجرد تمثيل لأجل المال. نحن ندخر للذهاب في إجازة. إنه يعلم كل شيء.

- حسنًا.

شعرت كمَن يسقط ولا يستطيع إنقاذ نفسه. عرفت أنني سأقول كلامًا مزعجًا. وبالفعل اندفعت الكلمات من فمي:

- لم يبدُ كتمثيلٍ على الإطلاق طوال إجازة الأسبوع.

قالت بحدة:

- كان مجرد تمثيل يا "جوناثان"، لأجل المال.

قلت بحدة مكتومة:

- هل أعجبكِ ما حدث؟

- كان لا بأس به.

- هل أخطأتُ في شيء؟

- لا، لم تخطئ. لكننا لسنا في مكتب مواعدة. كان مجرد تمثيل.. كنا نتظاهر.

- حسنًا.

واصلت الجدال بيأسٍ مثل طفلٍ يتوسل من أجل الحلوى:

- هل يمكننا مواصلة التمثيل قليلًا؟

- لديَّ حبيب يا «جوناثان".

- لن نخبره. يمكننا فعل هذا سرًّا، أو نخبره بأننا بدأنا عملًا جديدًا مع هيئة السياحة، وهذه المرة في «بانجور» أو أي بلدةٍ أخرى. وأخبريه أننا نقوم بالعمل نفسه.

- ولماذا أفعل هذا؟ أنا لست معجبةً بك حتى.

- ليس عليكِ ذلك. تظاهري فقط.. هذا يكفي.

- هذا مؤسف. لماذا تريد أن تكون مع شخصٍ لا يحبك بصدق؟ ألم تقع في غرام امرأة من قبل يا "جوناثان"؟

- لا، لا أعرف إن كنت أستطيع حتى.

هذه كانت أصدق محادثة خضتها مع أي شخص. شعرت بقشعريرة لقولي ذلك. سالت دمعة من عيني اليسرى. فمدت «ستيفاني» يدها ومسحتها بكمها. كانت لطيفة؛ أدركت ذلك لأنها نظرت إليَّ دون أن تضحك بسخرية. أحاطت خصري بذراعها وجذبتني نحوها. شعرت بنهدها اللين المستدير وهو يصطدم بصدري، كنت سعيدًا بذلك. لم أكن معتادًا على السعادة، فبدأت أبكي بقوة.

تنهدت وقالت:

- "جوناثان". هذا أكثر شيءٍ محزن سمعته في حياتي، لا بد أنك تشعر بالوحدة، لم لا تأتي لتناول العشاء معنا الأسبوع المقبل؟

قلت وأنا أنظر إلى شعرها:

- لا أريد تناول العشاء معكِ ومع صديقكِ.

لاحظت أن شعرها أشقر مع بعض الخصلات البنية عند منبت الشعر. بدت رائحته مثل رائحة شجرة عيد الميلاد.

- أريدكِ أن تحبيني.

قالت «ستيفاني»:

- لا أستطيع. أخبرتك أن لديَّ حبيبًا.

- يمكنني أن أدفع لكِ المبلغ نفسه الذي حصلتِ عليه اليوم.

عندها صفعتني. لم أعد أرى في عينيها نظرة تعاطف، زمَّت شفتيها بقوة ورفعت حاجبيها. أدركت أنها تشتعل من الغضب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

سيارات مشتعلة

سار «سامي» في شوارع شرق بلفاست لثلاث ساعات. كان يحني رأسه ويضع يديه في جيبه ويدخل شارعًا تلو الآخر. واصل طريقه المتعِب الممل حتى وصل إلى «كاسلراي هيلز» إلى بيته الملاصق لبيتٍ آخر من أحد جوانبه. يعيش ابنه في الغرفة العلوية ويسبب خرابًا دون أن يغادر غرفته حتى. لا يشعر بالانتماء إلى بيته منذ رأى فيديو «مشعل النيران». بدأ يلاحظ شيئًا مألوفًا في الشخص الملثم الذي ينظر للكاميرا ويتفوه بكلامٍ بشعٍ ومؤذٍ. لو تحدث «سامي» بصدقٍ سيقول إنه لم يعد يشعر بالانتماء إلى بيته منذ سنين. شعر أن البيت يصغر في كل مرة يدخله، وكأن الجدران تضيق والسقف يهبط. لم يرغب في العودة إلى البيت اليوم. فترك الشوارع تقوده لأي مكان، وكأنها نهر يجرفه بتياره أو كأنه يسقط من ارتفاع ولا يستطيع التحكم بنفسه.

طائرات الإعلانات الصغيرة تحلق في السماء وتواصل إقلاعها وهبوطها في مطار المدينة. وهي لا ترى «سامي» ولا ظله؛ فهو أصغر من أن تتم رؤيته من السماء. إنه مثل حبة رمل أو نقطة أو دبوس أو علامة ترقيم تائهة. حتى الرب سيراه بصعوبة. لكن لو أمكنك رؤيته من هذا الارتفاع، لأنك تستخدم منظارًا مثلًا، ستجد نظرك ينجذب إليه وهو يسير من شارعٍ إلى آخر بينما يركل علبة صودا معدنية فارغة. عندها ستعرف أن «سامي» لا ينتمي إلى هذه الشوارع ولا التجوال فيها.

بخلاف الطائرات التي تحلق عاليًا، قدما «سامي» ثابتتان على الأرض ولا ينظر للأعلى. ظل يحرك ساقيه واحدةً تلو الأخرى مثل محركٍ قديم الطراز. توقف قليلًا عند ناصية شارع واسع قليلًا وبحث في جيوبه عن سيجارة. مضى عامٌ منذ دخن آخر مرة، لكنه اشترى لنفسه اليوم علبة؛ شعر برغبةٍ ملحة في التدخين. بينما يشعل السيجارة، لمح الطائرات المسافرة في الصيف إلى باقي أوروبا والدول الأخرى. حقد عليها، على أجنحتها وقدرتها على الطيران بعيدًا. هذا يحتاج خفة لم يعد يملكها منذ زمن. واصل سيره وهو يدخن. وجد السيارات المركونة تحتل الرصيف ولا مكان للعبور، فسار وسط الشارع. لم يوقفه أحد، ولم يُحَيِّه أحد بابتسامة أو إيماءة أو بجملة «صباح الخير" أو "يوم جميل". بدا وجهه كوجه شخصٍ ذاهب إلى جنازة. حتى الحمام لم يقترب منه على الإطلاق.

عند كل بضع عمارات، تجد الرصيف مشقوقًا. سترى حُفرًا وحولها أجزاء من الرصيف خارجة من مكانها ومتفحمة مثل كعكة محروقة. إنها بقايا النار

الخامدة؛ بعضها ما زال ساخنًا وينفث دخانًا، وبعضها تجمد صانعًا أشكالًا صغيرة تشبه مجسمات مدن فيها مطبَّات وحُفر وخشب متفحم، فصارت أشبه بـ»هيروشيما» و»ناجازاكي». لها طابعٌ جمالي من نوعٍ خاص. بعض الحفر بعرض الشارع كله ولا يمكن تفاديها، الحل الوحيد هو القفز عبرها. بعض القار الذائب التصق بحذاء «سامي»، فأخذ يلتصق بالأرض مع كل خطوة ثم يفلت حذاءه مجددًا بصمت. يجب أن يحذر لكيلا يجعل سجادة الصالة تتسخ. فهو لا يريد مواجهة غضب زوجته.

مر بمحلٍ محترق. ما زال الدخان يتصاعد من عدة سيارات، وهناك صندوق بريد يحترق من الداخل مثل الفرن. ما زال هيكله المعدني صامدًا، لكن دهانه الأحمر تقشَّر بفعل الحرارة وتكونت فقاعات هواء تحت طبقة الطلاء، فتَشَوه الشعار الملكي المرسوم عليه تمامًا. من الواضح أن الشباب لم يمتثلوا للقواعد. هذا لم يكن حريقًا بسيطًا كالذي اندلع في الطابق الثاني من جراج المركز التجاري. هذه النيران خرجت عن السيطرة ودارت تلتهم كل ما تستطيع الوصول إليه. شعر «سامي» بالحزن لرؤية الأشجار المحترقة، لذلك لم ينظر إليها. تمنى أن يكون ابنه قد رأى منظر الأشجار الحزين وفروعها المتفحمة ببشاعة. ذكره منظرها بمنظر ضحايا الحريق وهم يركضون والنيران متشبثة بهم، وأذرعهم مرفوعة، وأفواههم مفتوحة من الصراخ، ووجوههم تذوب. مثل لوحة «الصرخة» الشهيرة لـ"إدفارد مونك» التي ما زال يعلقها التلاميذ على جدران غرفهم. تمنى «سامي» لو يرى "مارك" الخراب الذي يسببه. تمنى أن يشعر الفتى ببشاعة الفعل، لكنه شك أن «مارك» قادرٌ حتى على الشعور بالندم. نظر «سامي» إلى قدميه بينما يسير. عقله يذوب من القلق. لم يرَ الرجل العجوز الذي يسير باتجاهه حتى كاد يدوس عليه.

كان الرجل العجوز يجلس على دلوٍ مقلوب أمام منزله تمامًا. معه كلب يجلس بجانبه، من نوع «جاك راسل». كان كلبًا عجوزًا بطنه متدلٍ وذقنه نامية مثل صاحبه. كلاهما بدين لكن ضعيف. أضعف السن نباح الكلب؛ عندما فتح فمه لينبح على «سامي»، لم يخرج منه سوى حشرجة. شكل الكلب لا يشجعك على لمسه بدون قفازات، لكن العجوز كان يحضنه وكأنه ابنه البكر.

أوقف «سامي» قدمه بسرعة قبل أن يدوس على قدم العجوز.

- يا إلهي! ماذا تفعل هنا؟ كدت أدوسك.

قال العجوز:

- كنت أراقب بيتي الصغير فقط.

كان الرجل جالسًا و»سامي» يميل عليه ليكلمه. هناك فروق طول شبرين على الأقل. رأى البقع البنية التي في صلعة العجوز. وشم رائحته، التي تشبه الورق والخبز المحروقين. رفع الكلب رأسه وكأنه يريد النباح عليه، لكنه مجهدٌ جدًّا وكبير السن. وضع العجوز يده على رأسه فهدأ ونام.

نظر «سامي» إلى البيت الذي أمامهما. كان بيتًا تقليديًّا يتكون من غرفتين بالأسفل وغرفتين بالأعلى وأمامه مساحة صغيرة من العشب. يوجد ثلاثون بيتًا متشابهًا وملاصقًا لغيره في هذا الشارع وحده. الشيء الوحيد الذي يفرقه عن غيره هو النيران المشتعلة بداخله. رأى «سامي» عبر نوافذ الطابق السفلي ألسنة اللهب الحمراء وهي تلتهم الستائر. هناك طاقم «أنتريه» لونه مزيج من البني والبرتقالي، أحاطت به النيران وزادت لونه توهجًا. شعر «سامي» بحرارة النيران تلفح وجهه وذراعيه على الرغم من أنه واقفٌ على الرصيف. قال:

- بيتك يحترق يا رجل. هل اتصلت بالمطافئ؟

- ليس بعد. سأنتظر بضع دقائق لأتأكد من أنه احترق تمامًا.

- هل أنت من أحرقته؟

- بالطبع لا. بعض الصبية فعلوا.

- صبية أوغاد. لا يعرفون ماذا يفعلون غير إشعال النار هذه الأيام. هل أنت بخير؟ كان يمكن أن تموت. هذه البيوت الصغيرة تشتعل بسرعة.

- أنا بخير. كنت في الخارج مع "توسي" حين بدأ الحريق.

- كان يمكن أن تكون نائمًا في الداخل. هؤلاء الشباب لا يفهمون. يشعلون النار في بيوت الناس!

- لا يا بني، لقد أسأت الفهم. أنا دفعت لهم مائة جنيه لكي يفعلوا ذلك.

نظر «سامي» بتمعن إلى وجه الرجل. ملامحه هادئة مثل بحيرةٍ ساكنة حين لا يكون هناك رياح وتكون السماء صافية. لا يبدو غاضبًا بشأن بيته على الإطلاق.

لم يظن أن أي شخص قد يفكر في التأمين على هذا النوع من البيوت البسيطة، لكنه سأله على أي حال:

- هل تسعى للحصول على مبلغ التأمين؟

- لا، لا أهتم بالتأمين. سأنتقل إلى بيت «كارافان»، لكن حين تنتقل إلى بيت، تأخذ الحكومة كل ما تملك في المقابل. إنها سرقة علنًا.

لم يوافقه «سامي» أو يعارضه، فهو يريد مواصلة طريقه وحسب. ظهره ساخن بسبب الحريق، وهو قلقٌ لأنه يرتدي كنزة من النسيج الصناعي وقد تذوب من حرارة النيران. لقد ظنَّ أن الرجل العجوز فقد عقله، لكنه لن يترك رجلًا كبير السن جالسًا على دلو أمام بيته المحترق. سأله:

- هل أنت متأكد أنك لا تريدني أن أتصل بالمطافئ؟

لم يجب الرجل على سؤاله، بل قال:

- لقد خدعتهم، صحيح يا بني؟ خدعت هؤلاء الأوغاد.

ثم بدأ يضحك بهستيريا وجسده يهتز على الدلو، مثل شخصٍ مجنون أطلقوا سراحه.

قال «سامي»:

- بالتأكيد فعلت.

شعر بالإرهاق ينال منه، ولن يتحسن ببعض النوم. استيقظ الكلب على صوت ضحكات الرجل، وبدأ يعوي بجنون. بعد ذلك نهض وذهب خلف مالكه ليقضي حاجته، اصطدمت فضلاته بالدلو. شعر «سامي» بصداعٍ شديد. تراجع خلف بعض الأشجار لكي يتصل بالمطافئ سرًّا. إنه لا يقصدً التقليل من احترام الرجل، لكنه قلق على المنازل الأخرى والناس والحيوانات والممتلكات التي ستتأثر بالحريق.

أجابتني فتاة على خط النجدة، كانت لهجتها تشبه لهجة مقاطعة «فرمانا». من الصعب فهم الكلمات التي تحتوي على حروف متحركة كثيرة، كما أنها لا تضغط على الحروف الساكنة. لكن على كل حال، لاحظ «سامي» أنها لا تبدو قلقة من حريق بيت العجوز على الإطلاق. سألته:

- هل تأذى أحد؟ هل يمكنك إطفاء الحريق بنفسك باستخدام بطانية؟ هل هو مبنى مميز أم عادي؟ نحن مضطرون لإعطاء الأولوية للمباني المهمة والأثرية مثل مجلس المدينة أو القلاع.

زمن الانتظار المتوقع لسيارة الإطفاء عشرون دقيقة. وكانت الفتاة صادقة وأخبرتني أن حريقًا بسيطًا كهذا لن يرسلوا إليه أكثر من شاحنة صغيرة بها طفايات حريق ودِلاء. قالت أيضًا أن مدة الانتظار هذه لا بأس بها أبدًا، وهي أقصر بكثير من الزمن الذي ستستغرقه سيارات المطافئ للوصول إلى الحرائق التي ستندلع الليلة حين يبدأ مشعلو النيران بجدية.

أغلق «سامي» الخط وذهب لينصح الجيران. صحيح أن منازلهم لا تحترق الآن، لكن عليهم الاتصال بالنجدة مسبقًا وإخبارها أن بيوتهم ستحترق خلال

خمس وعشرين دقيقة، وهذه الدقائق قد تكون الفاصل بين إخماد الحريق وبين خروجه عن السيطرة وانتشاره في باقي البيوت.

سار لنهاية الشارع على أمل أن يرى سيارة مطافئ قادمة أبكر من المتوقع. فكر «سامي» في الحرائق أيام شبابه. نيران الاحتفالات، البيوت المحترقة. متجر الأثاث في شارع «نيوتاوناردز»، لقد أحرقوه لأن مالكيه لم يدفعوا الإتاوة. وغيره من المحلات التي خرَّبها للحصول على مال التأمين. وكل السيارات التي احترقت بهدف التخريب فقط.

كان هو وغيره يستمتعون بإحراق السيارات أيام شبابه.

يتذكر «سامي» بوضوح تلك الليلة التي خرجوا فيها من المدينة، حوالي ثلاثون ميلًا شمال إحدى القرى الزراعية في ضواحي مدينة «باليمينا». كان معه مجموعة من الشباب الأقوياء يتزاحمون في مؤخرة سيارته «فورد كورتينا»، لذلك تحركت السيارة ببطءٍ نسبي على الطريق الريفي، واحتك بطنها بكل المطبات والبرك الموحلة بسبب ثقل راكبيها الذي يجعلها قريبة من الأرض. كان ذلك في عام ١٩٨٦، وكل واحد منهم كان يحمل مسدسًا. وضع «سامي» مسدسه فوق لوحة قيادة السيارة. لقد شاهد هذا في فيلمٍ أمريكي اسمه “Mean Streets” أو “Dirty Harry”. معرفته أن لديه مسدسًا في لوحة قيادة سيارته جعلته يشعر وكأنه رجل عصابة. أحيانًا في أثناء التوقف عند إشارات المرور، كان يفتح لوحة القيادة ويتحسس المسدس المعدني البارد. عندها كان يفكر في إطلاق النار على من في السيارة التي بجانبه. لو أراد لفعل؛ فلا يفصله عنه إلا نافذة السيارة. لم يطلق “سامي” النار على أحد في إشارات المرور، لكن الفكرة وحدها كانت تثير حماسه. كان يشعر بها تجري في دمه وتجعله يفور.

الليلة التي تذكرها كانت في فبراير أو أول مارس؛ كان في الريف ولا توجد مصابيح إنارة، لذلك حل الظلام منذ الخامسة. أوقف سيارته أمام حقل خارج قرية «كولي باكي» وتركها هناك. كان غطاء المحرك ما زال ساخنًا على الرغم من برودة الشتاء. اختاروا عمدًا طريقًا لا يزدحم بالسيارات. والسيارات التي تأتي تتحرك ببطء خوفًا من المطبات والماشية الطليقة. كانوا يشيرون بالمشاعل لأي سيارة عابرة ويوقفونها، ثم يخرجون المسدسات ويوجهونها للسائق وهم يأمرونه: «غنِّ أغنية «The Sash” (الوشاح) البروتستانتية الوطنية وإلا فجَّرنا رأسك ورأس كل من يركب معك».

الهدف في البداية كان زرع الخوف من الله في قلب كل كاثوليكي يمر بهم، لكن تغيرت الفكرة بسرعة وأصبح الشباب يستمتعون بتخويف الأشخاص الغرباء في الظلام. كانوا يستمتعون بشعور القوة والسيطرة عندما تبكي

النساء، ويتوسل الرجال، ويسخن السلاح في أيديهم الباردة حتى يغمرها العرق. عندها يشعرون بأنهم لا يقهرون، لا يحتاجون بالضرورة إلى كاثوليكي ليشعروا بهذا الشعور، يكفي أي مسكين في سيارة «سكودا».

أحيانًا كانوا يجدون أطفالًا في السيارات فيتركونها تمر ويلوحون لها بالمسدسات من باب التباهي. لم يكونوا منحطين إلى هذه الدرجة، ما كانوا ليؤذوا الأطفال، لكن لم يكن لديهم صبر مع كبار السن. الثوار العجائز المؤيدون لانفصال أيرلندا كانوا أسوأ من الثوار الشباب. يتكلمون بكلام غير مفهوم ويحشرون البابا في كل حديث. أما هم فلم يخافوا من القساوسة العجائز. كانت تعيش جماعة منهم في دير بجانب غابة «بورتلينون». كان الشباب يقضون الليل يمزحون قائلين: «ألن يكون جنونًا تامًّا لو أحرقنا الدير وأفزعنا الرهبان؟»، لكن الراهبات أمرٌ مختلف؛ كانوا يرتعبون منهن. لم يعرفوا ماذا يفعلون إذا صادفتهم راهبة على الطريق الخالي متأخرًا في الليل، كان الوضع أشبه بمصادفة شبح.

اعتادوا على ارتداء أقنعة في أثناء إيقاف السيارات، يخلعونها ليدخنوا حين يكون الطريق خاليًا. الأقنعة وحدها كانت كافية لإخافة الناس بدون الحاجة للأسلحة؛ فالناس هنا يعرفون المَغْزى وراء شخصٍ ملثم. لكنهم كانوا يشهرون أسلحتهم على كل حال، ومن حينٍ لآخر يطلقون النار نحو الحقول المظلمة. بدا صوت الرصاص الرنان غريبًا وسط الظلام، وكأنه خارجٌ من فيلم. كان الصوت يفزع الناس ويجعلهم يصرخون، ثم يكتمون صراخهم وكأنهم يحبسون الفزع بداخلهم.

ذات مرة، بلل شابٌ صغير سرواله بمجرد أن رفع «سامي» مسدسه. ظهرت البقعة على بنطاله وانتشرت على رجليه، كانت بقعة داكنة مثل بقعة النبيذ عندما تنسكب على الأريكة. لم يستطع حتى إكمال أول مقطع من أغنية «The Sash”، على الرغم من قسمه الشديد أنه بروتستانتي. لو أرادوا لفحصوا رخصة قيادته ووجدوا أن اسمه «ويليام روجرز»، وهو اسمٌ بروتستانتي. لقد ضحك أربعتهم عليه بينما يرفعون مسدساتهم ويشيرون إلى بنطاله المبتل، وينظرون إلى حبيبته التي تبكي بصمت وهي جالسة في مقعد السيارة. كانت نظراتهم تقول: “انظروا إلى هذه الفتاة. ماذا تفعل مع فتى يبلل بنطاله في الشارع؟»

عندما يوقفون سيارة فيها كاثوليكيون، يحرقون السيارة ويتركون الركاب واقفين في الطريق، ثم يبتعدون بسيارتهم ميلين أو ثلاثة ليقفوا في منطقة أخرى. أحب «سامي» أن يتخيل السيارة تطلق نارًا خلفها وهي تسرع على الطريق وكأنها فنار من زمن “النورمانديين”. لم يمر إلا ثلاث سيارات تلك الليلة، لكن كل واحدة بدت وكأنها مقدرة لهم. كان من السهل التمييز بين

السائقين الكاثوليكيين والبروتستانتيين. الكاثوليك لا يحفظون أغنية «The Sash”، لا يعرفون النغمة حتى، ويعلقون سبحة فضية صغيرة وصليبًا صغيرًا على مرآة السيارة. بالإضافة إلى أنه تبدو عليهم الملامح الكاثوليكية ولديهم الكثير من الأطفال في المقعد الخلفي. تلك الليلة ضربوا الرجال قليلًا باللكمات فقط من أجل التسلية. كان هذا متوقعًا، لكن ما أرادوه بحق هو إشعال النيران. لا يمكنك إشعال النار في أي وقتٍ تريد في بلفاست، ليس بدون تصريح. لكن رؤية السيارات تشتعل والغيظ يعلو وجه الناس بينما تحترق سياراتهم من الـ»فورد» والـ»بيجو» لتتحول إلى رماد كانت تستحق القيادة كل هذه المسافة.

الكاثوليكي الثالث كان مختلفًا. بعد الانتهاء منه، فقدوا الرغبة في إشعال المزيد من السيارات. لذلك ركبوا سيارتهم الـ»كورتينا» وعادوا إلى شرق بلفاست. توقفوا في مقاطعة «أنتريم» قليلًا ليتناولوا وجبة سمك في الطريق.

الرجل الثالث كان يقود وحده. كان ذاهبًا من مدينة «باليمينا» إلى قرية «جارفا» مرورًا بقرية «كولي باكي»، حيث تنتظره زوجته الشابة بطعامٍ صيني جاهز في بيتهما الجديد. عرفوا كل هذا منه عندما صوَّبوا مسدسًا إلى رأسه، لكنه كان سيخبرهم بدون الحاجة إلى ذلك أصلًا. كان هادئًا ولم يتعرَّق من الخوف على الرغم من أنه كان يرتدي سترة ثقيلة. سألهم إن كان لا بأس في أن يدخن. وعندما سمحوا له، عرض عليهم جميعًا سجائر. كان يعرف أغنية «The Sash” لكنه رفض أن يغنيها لأنه كاثوليكي ولا يمكن أن يغني أغنية مذِلة كهذه. لكمه «سامي» ثلاث أو أربع مرات في ضلوعه بسبب قول هذا، لكن الرجل لم يخف.

بمجرد أن استعاد أنفاسه، سألهم:

- هل تريدون حرق السيارة؟

عندما أجابوه بنعم سيحرقون سيارته الـ»بي إم دبليو» الجديدة حتى تتفحم وسيمزقون إطاراتها تمامًا، أجاب:

- حسنًا إذًا، لا أستطيع منعكم.

ثم جلس على العشب بمفرده ودخن سيجارته، ثم أشعل واحدةً أخرى. لم يبدُ منزعجًا أبدًا لخسارة سيارته، حتى عندما وصلت النيران لخزان البنزين وانفجرت السيارة مثل الألعاب النارية.

سأله «سامي»:

- ما مشكلتك؟

وقف «سامي» أمام الرجل ومرر المسدس على لحيته المشذبة بعناية وهو يحركه على خده ثم ذقنه ثم خده الآخر. بدأت تلك الحركة كتهديد لكنها بدت مثل حركةٍ حميمية لا يجب أن يفعلها رجلٍ لآخر.

رد الرجل:

- لديَّ تأمين كبير على المحرك.

كان هذا كافيًا لاستفزاز «سامي» وإثارة غيظه تمامًا؛ فلكم وجه الرجل بالمسدس. كُسِر أنفه وتورمت عيناه وغاص خديه بلحيته الأنيقة في وجهه الذي أصبح مثل كعكة مسحوقة. عندما انتهى «سامي» من ضربه، صار وجهه أشبه باللحم المفروم، صبغته الدماء باللون الأحمر مع بقعٍ بيضاء التي هي شظايا من أسنانه وعظامه المحطمة. وقف الآخرون يشاهدون بصمت. كانت النيران تشتعل خلفهم فبدو كثلاث ظلال محروقة مثل الصورة التي وصفها الإنجيل عن اليهود الثلاث الذين ألقاهم «نبوخذ نصر» في النار.

تركوا الرجل في حالةٍ مزرية، ليس ميتًا لكن على حافة الموت، بعد ذلك فقدوا الرغبة في إشعال المزيد من النيران. ركبوا السيارة وعادوا إلى بلفاست. قاد «سامي» بهم، وشعر بالاشمئزاز طوال الطريق إلى بيته. ليس بسبب ضربه للرجل، بل لأن الرجل سيحصل على مال التأمين. لم يكن هناك طريقة لتدمير ذلك الوغد نهائيًّا بدون قتله. حتى لو قتله ستستفيد زوجته بالتأمين. وعلى كل حال لقد فات الأوان، فالشرطة ربما تكون قد وصلت بالفعل.

لم يحتمل «سامي» الشعور بالخسارة ولو قليلًا. لقد علق كالغصة في حلقه وظل يتضخم لأسابيع. كان الشيء الوحيد الذي احتل تفكيره. في كل ليلة، عندما يغلق عينيه، كان يرى ذلك الرجل بسترته الشتوية الفرو وسيارته الـ«بي إم دبليو» الجديدة. كان يبتسم وكأنه يقول له: «من ربح الآن يا «سامي أجنيو»؟»

ظل يتذكر ذلك الرجل من قرية «جارفانا» كلما رأى سترة شتوية شبيهة لسترته في الشارع أو التليفزيون. تلك السترات منتشرة أكثر مما تتوقع. ارتداها «ديل بوي» من مسلسل «Only Fools and Horses” (الحمقى والخيول فقط)، وذلك الرجل من «باليمينا» الذي يذيع مباريات كرة القدم، وارتدى “ديفيد بيكهام” وزوجته سترتين مشابهتين. لقد فكر في تلك الليلة على الأقل مرة في الأسبوع طوال الثلاثين عامًا الماضية. وتشغل تفكيره أكثر حين يكون محاطًا بالنيران.

لم ينتظر «سامي» وصول المطافئ، وواصل سيره في الشارع. شعر بمرارةٍ في فمه. إنه يعرف تمامًا قدرته على تخريب أي شيءٍ يريد تخريبه. عليه الذهاب إلى المنزل وسؤال «مارك» إذا كان يشعر بالمرارة نفسها في فمه. يعني إذا كان التخريب هو ما يثير اهتمامه الآن.

إنه واثقٌ من ذلك.

يجب أن يخبر ابنه أن العنف شيءٌ متوارث في الجينات، مثل أمراض القلب والسرطان. العنف مرضٌ بالفعل، ولقد ورثه «مارك» منه. إنها ليست غلطته. لا شيء من هذا غلطته، ولا حتى الحرائق أو الأشخاص الذين تأذوا.

"إنها ليست غلطتك يا بني"، هكذا سيقول له بينما يضع يده على كتفه وينظر إلى عينيه مباشرةً. لن يقصدها تمامًا، لكنه يجيد الكذب.

سيقول هذه الجملة مع جمل حنونة أخرى، على الرغم من معرفته بأن الموقف أكثر تعقيدًا من أن يتم حلّه بهذه البساطة. بعض الأمور يحملها الأب بالنيابة عن ابنه، وبعض الأمور يجب أن يحملها كلٌ منهما منفردًا. صار «مارك» شابًّا الآن؛ لديه بطاقة انتخابية، ويمتلك سيارة، وحصل على شهادة في أحد مجالات الكمبيوتر التي لا يفهمها «سامي» قبل أن يتخرج من الكلية. إنه ناضجٌ بما يكفي ليدرك أن الأشخاص العمليين لا يشعلون الحرائق أو يحرضون الآخرين على إشعالها. وهو كبيرٌ بما يكفي ليتعامل مع عواقب أفعاله.

وهو واعٍ كفاية ليمنع نفسه.

فكر «سامي» في طبعه الغاضب. إن لم يختفِ، بل ينتظر بداخله مثل قطعة ثلج تنتظر الذوبان، وبمجرد أن تذوب ستغلي. هناك ليالٍ يستلقي فيها بجانب زوجته واضعًا يده على صدره. عندها يشعر بضرباتٍ قوية، وكأن غضبه يريد الخروج عنوة. لكنه لا يدعه يربح أبدًا. لا يرفع قبضته أو صوته أبدًا. لقد صنع جدارًا بين نفسه وبين طبعه القديم. جدارٌ عالٍ بلا أبواب. بينما يشعر بالمسؤولية تجاه أفعال «مارك»، هناك صوتٌ صغير بداخله يقارن نفسه بالرجال الآخرين، بما فيهم ابنه. ويصرُّ هذا الصوت على أن «مارك» ضعيف وشرير، ويتحمل اللوم على استسلامه للشر.

إنه يريد تدمير الفتى.

لكنه أيضًا يريد منحه كل الخير.

بينما يسير «سامي» نحو شرق المدينة، وصل إلى منطقة «كاسلراي هيلز» حيث البيوت أكبر ولا توجد شوارع جانبية. كل بيتين ملاصقان لبعضهما،

والشوارع واسعة. هناك أشجار كثيرة، وأسوار من الشجيرات المتلاصقة، ومساحات عشبية أمام كل بيت تكفي لوضع جزازة عشبٍ كبيرة.

يمتلك «سامي» أحد هذه البيوت، لديه حديقة في الأمام وأخرى في الخلف. لقد سار ميلًا كاملًا، ومع ذلك لم يتغير شيء. ما زال الرجل نفسه، ولديه الابن نفسه. فتح باب بيته وداس على المشاية الجميلة، فاتسخت بسبب بقع القار العالقة بحذائه. لا يمكنه إزالة البقع، لقد لوث القار كل ما لمسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفتاة التي لا يسعها إلا السقوط

وقفت «إيلا» عارية القدمين على فرع شجرة. إنها لا ترتدي حذاء عندما تحاول الطيران. تصر والدتها على أنَّ عليها التعري تمامًا، لكنها الآن كبيرة ومدركة لمنحنيات جسدها التي بدأت تنمو، لذلك تصر على ارتداء شيء مثل ملابس السباحة أو الجمباز. وافقت أمها بشرط أن يكون ذراعاها وساقاها عارية. من المهم ألا تحمل وزنًا إضافيًّا لكي تحافظ على خفتها في أثناء الطيران، لكن هذا لا يهم. يمكنها أن تربط نفسها بالبالونات، أو حتى تشفط الهيليوم بفمها، أو تضخه في ذراعيها وتحركهما بسرعة كالحمامة. لكن كل هذا لا يصنع أي فرق، فما زالت تسقط على الأرض كالحجر.

لفت «إيلا» ذراعيها حول جذع الشجرة، وشعرت بسطحه الخشن تحت أصابعها. لون الجذع البني تناقض بشدة مع لون بشرتها البيضاء التي كادت تلمع. هناك كدمة زرقاء على فخذها اليسرى بسبب سقطة الأسبوع الماضي، وعلى ركبتيها جرحان ورديان بدآ يكونان قشرة. في الأسبوع الماضي، قفزت من على سور، واليوم تقفز من على شجرة. حاول والداها معها من قبل أن تقفز من على سلم، ومن على لعبة التسلق، ومن على جسر. من الواضح أنه توجد قائمة طويلة بكل الأشياء العالية، التي يمكنك دفع ابنتك من عليها. نظرت «إيلا» للأسفل، ورأت العشب الأخضر وهو يحيط بالشجرة. ارتاحت لأن العشب يمكنه تخفيف سقوطها، أما الأسفلت فلا يرحم. زقزق عصفور في فرعٍ عالٍ ثم طار أمامها. حسدته على طيرانه بكل سلاسة.

تقدمت بحذر وهي تقرب ذراعيها من جسدها. لا يمكنها فرد جناحيها الآن لكيلا تمزق الفروع الطبقة الرقيقة التي تغطيهما، إنها تشبه الجلد لكنها تتمزق بسهولة. سارت حتى طرف الفرع وشعرت به يهبط تحت وزنها، فتشبثت به بقدميها أكثر. كانت تقف على الفرع بقدميها العاريتين، وشعرت به يأوي الكثير من المخلوقات؛ مثل قمل الخشب، والنمل، والكائنات الميكروسكوبية الدقيقة. كلها تنجذب إلى «إيلا» والقوة التي تنساب منها مع كل حركة. شعرت بهذه الكائنات تنسحق تحت قدميها. لا تمانع أبدًا لو جلست هناك لساعات. إنها جادة، لكنه ليس ما يريده والداها منها. وإلا لكانت خسارة لجناحيها.

صاح والدها:

- جاهزة؟

ردت «إيلا»:

- جاهزة.

أزاح السلم وتراجع ليراها بوضوح وحملت والدتها كاميرا الفيديو لتصور. فردت «إيلا» ذراعيها وتركت جناحيها ينفردان مثل شراعين ورديين يحركهما الهواء، ثنت ركبتيها وقفزت؛ لثانية واحدة ارتفعت.. ثانية واحدة فقط، لكنها دومًا تؤمن بهذه الثانية. بعد ذلك شدتها الجاذبية وأعادتها للأرض، تدحرجت وهي تصطدم. لقد علَّمت نفسها كيف تخفف السقوط. عليك أن تقع كثيرًا قبل أن تصبح خبيرًا في تلقي الصدمات. و»إيلا» لا يسعها إلا السقوط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

حورية

هكذا التقيت والدة «صوفي»، هذا ما أتذكره بأي حال. من السهل حكاية الموقف قبل أن أفهمه. أما إذا فهمته من البداية، فلن أحكيه لأنني كنت سأعرف كيف سينتهي بالفعل. كنت سأتصل وأطلب اليوم إجازة وأبقى في البيت، عندها ما كان ليحدث شيءٌ لأتذكره أصلًا. ما كان ليكون هناك «صوفي»، أو كارثة تلوح في الأفق. كانت الحياة ستظل ستسير كالسابق، بسيطة وبطيئة ومعتادة.

قابلتها أول مرة في أواخر أغسطس. كاد الصيف ينتهي بالفعل، وبدأ الخريف يهل. كنت قد انتهيت للتو من مناوبة مسائية طويلة، وجاءني اتصال من موظفة الاستقبال.

- عذرًا أيها الطبيب "موراي". هناك سيدة لا أفهم كلامها.

سألتها:

- هل هي بولندية؟

إنه سؤال منطقي؛ هناك الآلاف من البولنديين يعيشون هنا ويَعُدُّون هذه المدينة موطنهم. لا أحد يتحدث البولندية في بلفاست. لم يتقنوا التحدث بالإنجليزية هنا بعد، القليل منهم فقط يحاول. البولندية لغة صعبة، والكلمات تندفع بعنف من الفم. حتى أفضل موظفي الخدمة الاجتماعية يتلعثمون في الأساسيات.

كررت سؤالي:

- هل هي بولندية أم أفريقية؟

مؤخرًا ظهر بعض النيجيريين والكينيين في المنطقة الشرقية، بدا شكلهم غريبًا على المكان. أما السكان المحليون فلا يعرفون الفرق بين الدول الفقيرة وبعضها، ويقولون على أي شخص أسمر قليلًا إنه أفريقي. إنهم ليسوا عنصريين، بل فقط لا يسافرون كثيرًا ويأخذون كل معرفتهم من التليفزيون.

قالت موظفة الاستقبال:

- لا أظنها بولندية. إنها تصرخ بالإنجليزية، ليست أجنبية ولكنها تبدو مجنونة.

قلت بتلقائية للمرة الثلاثين هذا الأسبوع:

- نحن لا نقول “مجنون”، بل «مريض نفسي”.

قلت لنفسي ألا أجعلها هي بالذات ترد على المكالمات الآتية بعد ساعات العمل الرسمية. سمعت صوت غلاية الماء الرخيصة وهي تعمل في الخلفية، زفرت وأسندت رأسي على المقود ثم قلت: - هل يمكنكِ تحويل المكالمة إلى تليفوني المحمول، من فضلك؟

- هل أنت متأكد أيها الطبيب “موراي”؟ عادةً نتجاهل اتصالات المجانين ونتركها لمناوبة الصباح.

- مريضة نفسية يا “جين”! تلك المرأة مريضة نفسية وليست مجنونة!

- آسفة أيها الطبيب “موراي”. سأتذكر ذلك المرة القادمة التي أجيب فيها اتصالًا من مجنون. هل أحول الاتصال لك الآن؟

- نعم.

رفعت رأسي من على المقود الذي ترك بين حاجبيَّ علامة لرمز «رينو»، فبدا وجهي عابسًا. نظرت في الساعة فوجدتها الثالثة وسبع دقائق. إنه منتصف المناوبة الليلية بالضبط، وأنا بالكاد متماسك. إن لم أحذر سأشعر برغبةٍ في الشرب وستزداد تدريجيًّا. هناك الكثير من الأماكن التي يمكنك الشرب فيها في المنطقة الشرقية، حتى في هذا الوقت من الليل.

سمعت نغمة الانتظار في التليفون. كانت موسيقى خافتة من فيلم كرتون مشهور، هذا محرج؛ نحن الآن نقدم خدمة طبية بعد ساعات العمل الرسمية، الأشخاص المتصلون في هذه الأوقات قد يبلغون عن حالة وفاة أو احتضار، يجب أن نضع موسيقى كلاسيكية مثل «فاجنر» وليست موسيقى كرتون «الأسد الملك». إنها تحاول تحويل المكالمة لكنها لا تجيد التعامل مع التكنولوجيا، الكثير من موظفات الاستقبال يندهشن من خصائص التليفون المتعددة. تمنيت لو أغلقَت الخط بالخطأ. هذا أفضل ما يمكن أن يحدث. عندها لن تكون غلطتي، ولا أحد يمكنه لومي، ولا حتى الطبيب «مارتن»، أكبر زملائي سنًا والمعروف بأسلوبه القديم في الطب.

عادةً أتجاهل هذه المكالمات. من المقبول جدًّا مماطلة الأمور عند نقطة معينة، وهذه النقطة هي الخامسة فجرًا تقريبًا. في هذا الوقت لا يمكن فعل شيء إلا ملء استمارة بيانات الشخص “المجنون”، كما تقول الموظفة، وتركها في ملف حتى يأتي أفراد المناوبة الصباحية. أكره الليل؛ في ليالي العمل المعتادة نستقبل حالات جلطة وربو وهبوط في الدورة الدموية قادمة من دار المسنين، حيث يتوقعون في أي لحظة موت شخص أو أكثر بسبب الشيخوخة، وهو تشخيص لم يعد ضروريًّا قوله بسبب تكراره. عادةً أواجه

ارتجاعًا في المريء، والتهابًا في المعدة، وحصوات في المرارة، والتهابًا في المفاصل، وعلى الأقل زوجين حديثي الإنجاب يشعران بالهلع، لأن ابنهما مصاب بالتهابٍ سحائي سيتضح في النهاية أنه مجرد طفح جلدي. أنا أغطي قلب المنطقة الشرقية، من الطريق الدائري وحتى «لاجان»، وهو جزءٌ من المدينة مساحته ستة أميال مربعة. وكل ما لديَّ هو يدان وعقلٌ واحد وسيارة «رينو» قديمة. في الظروف العادية، لا أستطيع التعامل مع الآباء المجانين.

قلت:

- أنا مستعدٌ لها.

توقف «إلتون جون» عن الصراخ في أذني، وحل الصمت على الجانب الآخر فلم أسمع سوى صوت تنفسي.

في الحقيقة، أنا لست مستعدًا لها.. لم أكن أبدًا مستعدًا للمريض التالي. على مدار اثنتي عشرة سنة، ظللت متوترًا من كل حالة تدخل إلى غرفة العمليات. أنا طبيبٌ ماهر إلى درجة تكاد تصل للمثالية، لكن بصراحة لست بارعًا في التعامل النفسي مع المرضى. أحيانًا يتوقف المرضى من النساء عند مكتب الاستقبال ويسألن: «هل يوجد طبيب آخر غير الدكتور «موراي»؟ فحالتي تتعلق بمشكلة نسائية». لا يتعلق الأمر دومًا بمشاكل نسائية، لكن النساء مستعدات للانتظار نصف ساعة إضافية في سبيل أن يتجنبنني. عرفت هذا على الرغم من أن موظفات الاستقبال لم يقلن لي هذا مباشرةً. أتناول أقراصًا زرقاء صغيرة لتهدئة أعصابي ولعلاج الأرق، مما أعطاني سببًا منطقيًّا لوصف أدوية لنفسي. لو لم يصر والداي على كلية الطب لربما أصبحت أمين مكتبة. صحيح أن هناك مخاطر في عالم الأدب، لكن إعطاء كتابٍ خاطئ لشخصٍ ما لن ينتج عنه الموت.

كررت للموظفة ولنفسي:

- أنا مستعدٌ لها.

صمتت الموظفة وعادت إلى مكتب السكرتارية المليء بدواليب الملفات، وأكياس القهوة الجاهزة، وملفات المرضى. حولت إليَّ مكالمة المريضة.

- مرحبًا.

- مرحبًا. أنتِ تتحدثين مع أحد الأطباء. كيف لي أن أساعدكِ؟

- ما اسمك؟

- دكتور "موراي".

- بم يناديك أصدقاؤك؟

- باسمي الأول.

- نعم، اسمك الأول والثاني وأي اسم أطلقته عليك والدتك وأنت صغير.

سحبت نفسًا عميقًا ومددت يدي اليسرى للمقبض لكي أفتح نافذة السيارة قليلًا جدًّا. ارتطم الهواء البارد بوجهي فشعرت بلسعته. غطى بخار الماء الزجاج الأمامي، فبدت أضواء اللافتات وإشارات المرور مشوشة. أحمر، أحمر فاقع، برتقالي، أخضر، أخضر فاقع، أخضر فاقع جدًّا. شعرت بالدوار، وكأن معدتي صعدت إلى رئتيَّ. لقد مضت ست ساعات على آخر وجبة تناولتها.

كررت سؤالي:

- كيف يمكنني مساعدتكِ؟

تحدثت معها بالنبرة التي أستخدمها مع مرضاي كبار السن، الذين أقابلهم طوال الأسبوع، وأستخدمها أيضًا مع المرضى النفسيين الذين يعبرون الأقسام الطبية في طريقهم إلى المنطقة الخاصة بالأمراض النفسية.

قالت بعناد:

- يمكنك مساعدتي بإخباري اسمك.

تخيلتها وهي تعبث بسلك التليفون وتعقده بينما تتحدث، تخيلتها بشعرٍ بني لأنني لا أحب الشقراوات.

- دكتور "موراي".

- هذا ليس جيدًا! إن لم تعطني اسمك الأول، لن أعطيك أيَّة معلومات! ربما أنا أحتضر هنا وأنت لن تعرف أبدًا.

أظنني أسمعها تضحك، أو ربما يكون طائر زرزور متحمس قرر الزقزقة قبل الشروق بساعتين! لو كنت في بداية المناوبة لأغلقت الخط عند هذه النقطة، وتركتها ليتعامل معها من هو في المناوبة الصباحية. لكن بعدما أخرجت شهادتي وفاة هذا المساء، لم أعد أشعر بالراحة، وأخذت أفكر في الكلمات المناسبة، والأسلوب المناسب لقولها.

- "جوناثان".

كررت:

- "جوناثان"، سأناديك «جوني».

لا أريدها أن تناديني بهذا الاسم؛ فهو يبدو رائعًا على لسانها. لقد نالت من الجزء الضعيف مني، ولا أعرف كيف أوقفها.

- "جوني"، أريدك أن تأتي وتساعدني، فأنا أموت هنا.

هذا أسوأ ما يمكن أن تقوله، أنا الآن محاصر.

- مم تشكين؟

- من عدة أشياء؛ فوبيا الأماكن المغلقة، الملل، العطش، الوحدة. لم أرَ المحيط منذ أسبوع.

ضحكت مجددًا. أطلقت ضحكة مجلجلة رنت في التليفون، لدرجة أنني تخيلت الأسلاك تتوهج من شدة الضحك الذي مر بها. قلت لنفسي إنها تضحك في وجه الموت، ثم سحبت الفكرة. بدأت أتخيل الموقف، لا أشعر أنني على طبيعتي هذا المساء؛ وكأنني شربت حتى الثمالة. لا، حتى هذا التشبيه لا يصف حالتي.

سألتها:

- هل تناولتِ شيئًا؟

اندفعت ترد:

- لا، على الإطلاق. أظن أن هذا جزء من المشكلة؛ لا أستطيع تناول الطعام هنا. إنه ينحشر في معدتي ولا يخرج.. أظنني أحتضر.

- كوني صادقةً معي. لو تناولتِ شيئًا، أخبريني. سيكون الوضع أسهل لو عرفت ماذا أخذتِ.

قالت باستهجانٍ مفاجئ:

- تريد أن تعرف ماذا أخذت؟ سأخبرك. لقد أخذت منعطفًا خاطئًا، أخذت منعطفًا لعينًا فوصلت إلى مكان منعزل في أيرلندا، الآن أنا محبوسة في مبنى من أربعة طوابق ومحرومة من دفء البيت.

يخبرني المنطق أن أغلق الخط، عادت المخاوف القديمة للظهور؛ الخوف من الناس ومن فقدانهم، والخوف من سخرية الأغراب. يجب أن أتركها لطاقم المناوبة الصباحية، سيحولونها إلى قسم الطب النفسي. سيتعاملون هم مع جبل الأوراق اللازمة، وسيصفون لها الأقراص الزرقاء الصغيرة، وسيصغون إلى كلامها المجنون. زفرت، فترك نَفَسي علامة على الزجاج الأمامي.

سألتها:

- أين تعيشين؟

ردت:

- لا أعيش في أي مكان. أنا فقط موجودة في هذه الشقة في الطابق الرابع على طريق "كاسلراي".

وجدت نفسي أقول دون أن أشعر:

- انتظري وسآتي إليكِ.

- لا تركب المصعد، فهو يفوح برائحة فضلات القطط.

أغلقت هي الخط، وأدرت أنا مفتاح السيارة بينما أضع حزام الأمان. كركرت السيارة الـ»رينو» مرتين ثم دارت وانطلقت للأمام بحشرجة. أخذت منعطفًا كبيرًا واتجهت شرقًا.

لاحقًا سأحاول أن أتذكر تفاصيل هذه الليلة، لكنني لن أستطيع الخروج بتفسيرٍ منطقي لها أبدًا.

ركنت السيارة على الطريق، وأخذت شعار الأطباء من على لوحة القيادة لكيلا ينجذب المدمنون إليها مجددًا، فهم يعدون الشعار الطبي علامة على وجود شحنة مجانية من العقاقير التي يتعاطونها. أخذت حقيبتي الطبية من صندوق السيارة وارتديت سترة صوفية منقطة بالرمادي، كانت هدية من والدتي في عيد الميلاد منذ ست سنوات. بعدما تجهزت، نظرت إلى العمارة المصمتة.

الخرسانة الرمادية، والنوافذ المربعة الحمراء، والخطوط الحادة تجعلها تبدو مثل خيال أطفال. كل شيء يبدو وكأنه مرصوص، ولا يوجد شجر ليكسر حدة المشهد. هناك نافذة واحدة مضاءة، تنظر إليَّ منها عين متفحصة، عين صفراء لا ترمش ولا ترحم. فكرت في العودة إلى سيارتي لأقوم بتراجعٍ استراتيجي إلى أي محطة بنزين. سمعت في شارع «روزيتا» صوت سرينة الشرطة تدوي مرتين لتحطم إيقاع الحياة الشريرة. لقد أفزعني صراخها.

قطعت المسافة التي أمام مدخل البيت في خمس خطواتٍ كبيرة، سحبت نفسًا عميقًا وكتمته لكي أتجنب رائحة فضلات القطط، والبيرة، والقمامة، والمبيدات، والحيوانات، والبشر. تذكرت نصيحتها، فتجنبت المصعد وصعدت الطابق الرابع على السلم بحذرٍ شديد. حقيبتي الطبية تتأرجح مع حركة ذراعي مثل بندول الساعة، وكأنها تعد خطواتي. تملكني الخوف بينما أصعد، وتخيلته مثل حملٍ ملتصق بصدري. قلت لنفسي: «قد تكون ماتت بالفعل،

ربما تعاطت جرعة زائدة أو قطعت شرايينها بموس، ربما ازرقت جثتها وانتفخت بالفعل وهي غارقة وسط القيء».

قد تنتظرني أهوال خلف باب الشقة. لو كان لديَّ وقت لكتبت قائمة بكل الاحتمالات. القوائم مفيدة جدًّا من وجهة نظري. لكن لا أحتاج قائمة لتخبرني بأكثر ما يخيفني، وهو أن تكون على قيد الحياة وتنظر إليَّ بنظرةٍ جائعة وتحدثني بذلك الصوت.

كان باب شقتها مفتوحًا، ولكي يثبت على هذا الحال، هناك علبة معدنية مسحوقة من علب الحساء الجاهز. ركلتها وأنا أدخل لأبعدها عن الباب، فانغلق بعنفٍ من خلفي وعاد لإطاره.

قالت بانتصار:

- كنت واثقة أنك ستأتي يا "جوني".

إنها ليست ميتة، ولا تحتضر أصلًا. سمعتها بوضوح لكنني أحاول تمييز مكانها بصعوبة وسط الظلام. أثاث الغرفة وورق الحائط والديكور، كل شيء باللون الرمادي الداكن وناعم الملمس، وكأنه مغطى بطبقة من المناديل الخفيفة. وقفت عند الباب إلى أن تعتاد عيناي على الظلام. المكان عبارة عن مزيج غريب من غرفة معيشة، ومطبخ، وغرفة نوم أيضًا على ما أظن. هناك باب وحيد على يمين البوتاجاز ليدل على وجود غرفة أخرى، ربما هو الحمام. ثبت مكاني لكن جسدي مال للأمام، وكأنني محتار بين الدخول والهروب.

ناديتها في الظلام:

- كيف تشعرين؟ هل أصبحتِ أفضل الآن؟

ردت:

- ما زلت أحتضر. من الأفضل أن تأتي إلى هنا وتفحصني بنفسك.

على الرغم من أنني أعمل طبيبًا منذ اثنتي عشرة سنة، وأفحص عشرات المرضى يوميًّا والآلاف سنويًّا، فإن كلمة «فحص» لم تبدُ أبدًا شيئًا محظورًا مثلما بدت الآن وهي تقولها. أشعر أنها توجه شيئًا إليَّ، شيئًا يجذبني مثل المغناطيس. لا، هذا ليس صحيحًا، بل هو شيءٌ أكثر خطورة، مثل صاروخ موجه.

غصت بقدمي أكثر في السجادة القديمة. إنها زرقاء وعليها زهور مائية باللون التركواز، لكنها أصبحت باهتة. قلت لها: - لا، لم لا تصفين لي أعراضكِ وسأشخص حالتكِ من هنا؟

- أنا أحتضر. ليس لديَّ أعراض.. أنا فقط أحتضر.

- منذ متى تحتضرين؟

- منذ قرون.

- هل تتألمين؟

- بشدة.

- هل هناك شيءٌ محدد يزيد حالتكِ سوءًا؟

- هذه المدينة اللعينة.

- هل يوجد ما يمكنه مساعدتكِ؟

- الصحبة.

على الرغم من أن قدميَّ في الأرض وجسدي ثابت في مكانه، فإن ظهري مصرٌ على الميل للأمام. بدأت أجزاء جسدي تميل تدريجيًّا نحو الظلام على مضض. أولًا ذقني، ثم حاجباي العابسان، ثم أسناني ومرفقاي، ثم بطني وركبتاي وأصابعي، وأخيرًا وبتحفظٍ شديد، قدماي.

قالت:

- هذا أفضل.

أصبحت أمامها مباشرةً وما زلت ممسكًا بحقيبتي الطبية كعذرٍ لما هو آتٍ.

قالت:

- أردت أن أعرف كيف تبدو.

أجبتها:

- أبدو هكذا.

لأول مرة منذ عشرين سنة تقريبًا تساءلت كيف أبدو حقًّا. سألتها: - كيف تبدين أنتِ أيضًا؟

- لا أعرف. لم أنظر لنفسي أبدًا، ربما يمكنك إخباري.

لا أستطيع رؤيتها جيدًا في الظلام. لمحت ذراعًا، وهناك شيء مستدير وفاتح، ربما هو كعبها أو مجرد فنجان فارغ. معظم جسدها ما زال خفيًّا. صوتها الذي أصبح مألوفًا لي بدا وكأنه مكتوم تحت أكوام من الأغطية، والبطاطين، والسجاد، ومعاطف قديمة. تخيلتها جثة ملفوفة كالمومياء بسبب هذا الظلام.

لا أستطيع منع نفسي من النظر إليها. عيناي تعملان بأقصى طاقتهما. وخلف عينيَّ، يوجد عقل يسجل كل ما يلاحظه كالكاميرا. لن يأتي خير من بقائي هنا. أنا وهي وحدنا، ونقترب من بعضنا تدريجيًّا. أعرف هذا بالفعل، لكنني أعرف أيضًا أنني لن أقوى على الرحيل.

قالت:

- توقف عن التحديق بي.

وجدت نفسي أحدق بها أكثر، وقلت:

- أنا أبحث عن علامات أعراض، ربما أمكنني مساعدتكِ إن رأيتكِ بوضوح. هل يمكنني إضاءة النور؟

اندفعت قائلة وهي تغوص تحت الأغطية أكثر:

- لا أنوار.

أستطيع رؤية منحنياتها وهي تتحرك تحت الغطاء مثل جبالٍ تتمايل.

تمتمت:

- تعال وجدني.

بدت كلماتها وكأنها تطوف للأعلى مثل فقاعات هواء تصعد على سطح الماء.

لا أعرف كيف أشرح هذا، ليس الآن أو لاحقًا أو حتى بعد مرور أشهر على الموقف. يطير المنطق من عقلي في كل مرة تتكلم. أنا منجذبٌ إليها، لم يعد العلاج حجة وجودي هنا. أشعرني هذا بالحرج والإثارة في الوقت ذاته. يبدو أنني ضعيف وبائس وعاجز مثل المرضى الذين أعالجهم. لطالما عرفت ذلك، لكنني مرتاح الآن. أبسط تفسير لما أشعر به هو الرغبة، فكل خليَّة في جسدي ترتعش كلما تحدثت، لكن حتى قوة الرغبة لا تقارن بالحرب المشتعلة في عقلي الآن. شعرت بسترتي تتقلص على جسدي وكأنها أفعى عاصرة تسحقني. غرقت ملابسي الداخلية في العرق، سماعتي الطبية تلتف حول رقبتي وتهددني بالخنق في أي لحظة، حتى شعري القصير بدا وكأنه عاندني وطال ليغطي أذنيَّ. كنت رجلًا واقفًا أمام امرأة مستلقية. لم أرَ موقفًا كهذا إلا في التليفزيون.

لا أريد أن أكون طبيبًا معها. تركت حقيبتي الطبية عند قدميها. وقعت وانفتحت، فسقط منها الأقراص والأدوية والضمادات مثل أنهارٍ بيضاء على السجادة المتسخة. خلعت حذائي، فردة تلو أخرى، ثم نزعت سماعتي الطبية، فأصبحت رجلًا عاديًّا. أزلت الأغطية من عليها طبقةً بطبقة وكأنني

أقشر بصلة. عندما أزلت الطبقة الأخيرة ووصلت لجسدها الشاحب البارد، تفاجأت بأنها مغطاة بالنمش وعادية. فخذاها أسمن قليلًا مما تخيلت. وجهها شاحب وتشبه بائعات البيض أو اللبن في اللوحات القديمة. عيناها داكنتان جدًّا. ليستا باردتين، بل فقط داكنتين. شعرها أسود مثل عينيها. سَخِرت من أصابعي الباردة ومن جواربي القطنية، لكنني لم أهتم. خلعت ثيابي ووقفت عاريًا أمامها، تاركًا إياها تنظر إليَّ بتمعن. أعلم أننا لا نرقص الآن، لكنني واثقٌ أنه يمكنني الرقص معها. لم تسألني إن كنت أستمتع بوقتي أم أريد المغادرة. وكأنها تعرف فيم أفكر بالفعل، أو أنها تخبرني بما يجب أن أفكر. لست منزعجًا بكل الأحوال.

أنا مستمتعٌ بوقتي.

ظللت أقول مرارًا وتكرارًا:

- أنا مستمتعٌ بوقتي.

قالت:

- أعرف.

أبقتني في السرير لثلاث أيام جائعًا للمزيد. نهضت في اليوم الثالث بمعدةٍ فارغة وشعرٍ منكوش، وجدتها منحنية على طاولة المطبخ تنظر إليَّ بتمعن. كانت تلف نفسها بستارة غرفة الجلوس، أو على الأدق أحد طرفيها، وتركت الطرف الآخر معلقًا بكآبة على النافذة وحده مثل شخصٍ مُطلق، ويعجز حتى عن حجب الضوء بمفرده. كانت تطلي أظفار قدميها باللون الأخضر.

قلت لها:

- عليَّ الذهاب؛ فلديَّ مرضى آخرون، وأنا هنا منذ ساعات.

صححت لي:

- بل أيام، لقد مضى ثلاثة أيام.

صدمني إدراكي للوقت. لم أتوقع ذلك أبدًا.

- تبًا، لقد فصلوني على الأرجح.

- محتمل.

- عليَّ العودة إلى البيت الآن. أحتاج إلى تناول بعض الطعام، ثم عليَّ الذهاب إلى المنزل.

- سآتي أيضًا.

- لا يمكنكِ القدوم إلى البيت معي.

- لم لا؟

- لأنني بالكاد أعرفكِ.

- إنها مسألة حياةٍ أو موت يا "جوني". إن لم تأخذني معك، سأموت في هذه الشقة على الأرجح. على هذه السجادة بالضبط وأنا ملفوفة بهذه الستارة، وسيكون الذنب ذنبك.

فكرت في الاختيارات المتاحة لي، وأدركت أن المنطق لا يمكن الاعتماد عليه في اتخاذ القرار هذه المرة. ناولتني فتاحة علبٍ وعلبة الحساء الجاهز التي نسيت أمرها، تناولتها من العلبة المعدنية مباشرةً، واستخدمت اليد المسطحة للفتاحة كملعقة. كان طعم الحساء مثل معجون الدهان.

ارتدت «سالوبيت" أزرق وواصلت كلامها:

- بالإضافة إلى أنك وحيد جدًّا، وتحتاج شيئًا في حياتك بخلاف الطب.

قلت بينما ألتهم الحساء بجوع:

- من المحتمل أنني خسرت وظيفتي كطبيب أيضًا.

- اتفقنا إذًا. أنت تحتاجني.. ستأخذني معك إلى المنزل.

- لا أظنني أريد ذلك أصلًا.

- بل تريد.

غيرت رأيي فورًا. أصبحت فجأة أريد اصطحابها معي، وشعرت أنها أفضل فكرة جاءتني في حياتي. لم تأخذ أي متعلقات بخلاف «سالوبيت" آخر أخرجته من دولاب تحت الحوض.

قلت لها:

- ألن تأخذي فرشاة أسنان؟

- لم أحتج إليها أبدًا.

وابتسمت لتكشف عن صفٍ من الأسنان الصغيرة أشبه باللؤلؤ اللامع الجميل.

- ماذا عن بعض الملابس الداخلية؟ وملابس عادية للتغيير فيها؟

هزت رأسها ببطءٍ فتحرك شعرها الأسود الفاحم كشلالٍ حول كتفيها.

- على الأقل حذاء؟ بالتأكيد لديكِ حذاء؟ الجميع لديه أحذية.

لم يكن لديها حذاء. بحثت في الشقة كلها ولم أجد ما يشبه الأحذية لا من قريب ولا من بعيد، ولا حتى «شبشب». فحصت قدميها فوجدت كعبيها ورديان وناعمان مثل كعوب الأطفال. على الرغم من أن المنطق وصعود ونزول الأربعة طوابق يتعارضان مع إمكانية ذلك. لا أعرف الكثير عن طب القدمين لأنني تجنبته قدر المستطاع، لكنني أعرف أن هناك تفسيرًا علميًّا لكل شيء. مع ذلك يمكنني القول من منظر قدميها أنها تقريبًا لا تستخدمهما! إنهما أكثر نعومة مما يجب أن تكون عليه قدما سيدة بالغة. لم أقل شيئًا. وعلى مدار التسعة أشهر التالية، لن أقول شيئًا أمام سيل الأسئلة الذي سينقض على عقلي. قلت: - حسنًا إذًا. ما دمتِ لا تمتلكين حذاءً، سيكون عليَّ حملكِ.

لم أحمل إنسانًا آخر في حياتي، حتى في صغري بينما كنت ألعب مع الأطفال الآخرين. رفعتها على كتفي. رأيت هذا في فيلم عن رجال المطافئ، ربما يكون "The Towering Inferno" (الجحيم المرتفع). ناولتها حقيبتي، على الرغم من حالتها البالية، فإنني متعلقٌ بهذه الحقيبة الجلدية المهلهلة التي تفوح منها رائحة الكلور والكربون، لا يمكنني تركها في هذه الشقة المهجورة. نزلنا إلى مدخل البناية بينما أحملها. كنت أترنح قليلًا لكن لم أفقد توازني، لم أنزعج من حملها على الرغم من الألم الذي أصاب كتفي مع كل خطوة. عندما وصلت إلى باب السيارة، كنت غارقًا في العرق وألهث بشدة. شعرت بأنني قوي وقادرٌ على بناء أي شيء مهما كان ضخمًا، من سفن إلى بيوت إلى سكك حديدية. أستطيع حتى أن أقتل رجلًا بيديَّ العاريتين. أجلستها بحذرٍ على مقدمة السيارة، فترك ثقلها أثرًا على غطاء المحرك. انثنى الغطاء المعدني، وغاص للأسفل تاركًا فجوة صغيرة ستمتلئ بالماء كلما هطل المطر. هذه العلامة ستدوم أطول من علاقتنا.

قالت وهي تلتقط ثلاث مخالفات من تحت مساحات الزجاج الأمامي: - لديك ثلاث مخالفات؛ إنها غلطتك لأنك تركت سيارتك ثلاثة أيام في مكان مخصص للركن ساعة واحدة.

قلت:

- لم أكن أنوي البقاء.

- أظن العكس يا "جوني"، كان لديك كل النية للبقاء.

أعترف أنها محقة، لكنني بقيت صامتًا بينما أجلسها في المقعد وأضع عليها حزام الأمان بالقوة. يبدو أنها تخاف من حزام الأمان أو من كل ما يشبه القيود. رأيت ساعة السيارة تشير إلى ٦:٣٧ صباحًا. بلفاست بدأت تستيقظ للتو؛ حشود من عمال النظافة، وعمال المصانع المحرومين من النوم يتجمعون الآن في محطات الباص، يدخنون السجائر في أثناء انتظارهم. مرت

شاحنة جمع القمامة في طريق «نيوتاوناردز»، وتعمدت تجاهل كل صناديق القمامة المرصوصة بانتظام وأفواهها مفتوحة وكأنها تتعبد. أبراج الكنيسة تمتد لأعلى وكأنها تخترق السحاب. فخضع لها المطر ونزل بغزارة ليعيق الرؤية في الزجاج الأمامي.

نظرت إليها قبل أن أدير السيارة، فوجدتها متكورة حول نفسها بصمت، وبالكاد أرى وجهها المختبئ خلف ركبتيها. أفضلها هكذا، هادئة ورزينة. عندما تصمت، أستطيع تصفية ذهني والتفكير بانتظام بدلًا من الفوضى التي تغزو عقلي.

قلت لنفسي: «إنها لا تنتمي إليَّ. عليَّ أن أتركها حيث وجدتها».

أعرف أن هذا لن ينتهي على خير، أصبحت مستعدًا لتركها على الرصيف الآن.

فردت نفسها لتسمح بدخول الهواء إلى رئتيها وقالت:

- هل لديك حوض استحمام أو دُش في بيتك يا "جوني"؟

- لديَّ الاثنان.

بمجرد أن تكلمت، تشوش عقلي مجددًا، وتشابكت أفكاري كالمكرونة الإسباجيتي. قررت بالفعل أن أجعلها تنام على الجانب الأيسر من السرير لكي تكون أبعد ما يكون عن الباب.

قالت:

- ممتاز، هل الحوض كبير بما يكفي لكي أغطس فيه حتى يغطيني الماء إذا ملأته عن آخره؟

- أظن ذلك، لم أجرب من قبل، فأنا عادةً أستحم بالدُش فقط.

- عظيم، احتفظ أنت بالدُش واترك لي حوض الاستحمام، سأتحسن كثيرًا بمجرد أن يغمرني الماء. لن تلاحظ وجودي في الشقة، سأبقى في حوض الاستحمام معظم الوقت.

هذا ما فعلته تمامًا طوال تسعة أشهر. لم يظهر من جسدها على السطح إلا بطنها بسبب انتفاخه في منتصف فترة الحمل. لم تبدُ سعيدة بذلك، فهي تريد أن يغمرها الماء بالكامل، وكأنها أخطبوط أو غواصة. في البداية صدمتني رؤية وجهها الشاحب وهو مغمور بالماء ويصعد من أنفها وفمها فقاعات الهواء. أجلس على كرسي الحمام أراقبها لساعات على استعداد لأن أجذبها إلى السطح وأعطيها تنفسًا اصطناعيًّا حين ينفد نفَسها. لكن لم ينفد نفسها قط،

إنها مثل السمكة. لم أرَ شيئًا كهذا من قبل. في النهاية، تقبلت حالتها. لم أعتد عليها، لكن تقبلت أنها ليست طبيعية وأنه يجب عليَّ التعايش مع هذا.

طلبت مني حزامًا طبيًّا للظهر، وذلك لكي يساعدها في إبقاء رأسها تحت الماء عمدًا. طلبت واحدًا عبر الإنترنت. وعندما وصل، ربطته بإحكام حول بطنها الضخم. إنه الشيء الوحيد الذي وافقت على ارتدائه، لم يعد عريها الدائم مثيرًا لشهوتي. أصبحت أنظر إليها مثلما أنظر لمرضاي، أو للصور الموجودة في المجلات الطبية، إلا حين تريدني أن أنظر إليها بشهوة. تقول لي: «تعالَ يا «جوني»، أنا أحتاجك». عندها لا أشبع من جسدها العاري أبدًا. أنزل معها في حوض الاستحمام أو أستلقي معها على أرض الحمام ونشبع رغباتنا. بعدها أندم أننا لم نفعلها على السرير مثل الناس الطبيعيين.

تقول لي: «أكون في أفضل حالاتي تحت الماء، أشعر بتحسن هكذا، لكن هذا الطفل اللعين يسحبني إلى السطح كلما كبر ورفع بطني فوق الماء". كلما نامت، أقضي ساعات في تصفح المراجع الطبية، وأبحث في الدراسات الطبية على الإنترنت عن بشر آخرين يعيشون على السوائل فقط، وعن نساء ورجال بالغين ذوي بشرةٍ ناعمة كالأطفال. بحثت في التنويم المغناطيسي وألاعيب العقل، وبحثت عن أشخاص عاديين أجبِروا على تصرفاتٍ غريبة، مثل أشخاصٍ تعرضوا لمتلازمة «ستوكهاوزن»، أو لغسيل مخ من قبل إحدى الطوائف، أو تأثروا بشخصيات ذات كاريزما عالية. وجدت نفسي أكتب في خانة البحث «هل يمكن أن يعيش إنسان تحت الماء؟» تساءلت ما فائدة كلية الطب ما دام كل شيء يسخر من العلم مؤخرًا.

وجدت مقتطفات عن حالتها في الكثير من المقالات؛ في مقال عن التواصل بالموجات الصوتية عند الخفافيش والدلافين، وجدت تفسيرًا محتملًا لصوتها الجذاب. من المستحيل على الأذن البشرية سماعه بوضوح، أو مقاومة سحره. وجدت حالات مشابهة لقدميها الناعمتين في بعض الفيتناميين اللاجئين في جنوب المحيط الهادئ. كما وجدت العديد من غريبي الأطوار، والمهووسين، وذوي الطفرات الجينية، والمخابيل ممن تشير حالاتهم إليها. جمعت كل المعلومات في مفكرة لأقنع نفسي بوجود سببٍ منطقي لغرابتها.

لكن العلم ليس كافيًا لاحتواء حالتها الغريبة. لا يقتصر الأمر على سعادتها تحت الماء، أو بشرتها الناعمة، أو التلاعب بالعقل بصوتها. بل يتعدى كونه مجموعة من الأعراض متجمعة في شخصٍ واحد. لشهور عديدة احتلت حمامي مثل قوةٍ لا قِبل لي بها. كل ملاحظاتي لا يمكنها أن تصف شعوري عندما أقع تحت تأثير صوتها بضعف وتخبط وبدون مقاومة، بينما أتمنى ألا تقرر تدميري. على الرغم من أنني لا أستطيع الاعتراف بذلك لنفسي ولا يمكنني حتى كتابة الكلمة، فإنني أعرف تمامًا حقيقتها، ومن المستحيل

تفسيرها بالعلم. إنها حورية بحر. مخلوقة شريرة وقوية، وسأكون محظوظًا لو نجوت منها ومما تفعله في حوض استحمامي.

لي الحق بالمناصفة في هذا الطفل. أظنه الآن في صراعٍ من قبل ولادته، صراع بين طبيعته البشرية والخارقة. وكأنه الملاكم «جونيور جايكوب» في الحلبة. أخذت أُطمئن نفسي بأن جانبه الإنساني هو من سيفوز. تكلفني مئات الجنيهات بسبب الماء الساخن، سترتفع فاتورة الغاز لأرقامٍ خرافية، حتى في موجة الحر في أبريل تطالب بملء الحوض بماءٍ ساخن. قالت: - إنها رفاهية يا «جوني». رفاهيتي الوحيدة، أنا لا أكلفك كثيرًا على الطعام والملابس.

هذا صحيح. إنها تُعدُّ حبيبة موفرة إذا تغاضينا عن الملح الذي تضيفه إلى ماء الاستحمام، وفاتورة الغاز، وبالطبع خسارتي لوظيفتي. إنها مثل سمكة زينة كبيرة. لا تتناول إلا السوائل، مثل الماء، والعصير، والكاسترد، والحساء المعلب. تصر على أنها لو تناولت شيئًا أكثر كثافةً من هذا سوف ينحشر في جسدها ولن يخرج. لا أعرف إن كان هذا طبيعيًّا لنوعها أم لا، فنحن لم ندرس أمثالها في كلية الطب. عشت بتقشفٍ لشهور؛ عشت على النودلز، والويسكي الرخيص، وصوت غنائها الحزين وهي في الحمام. قرأت الكتاب المقدس من أوله لآخره لتمضية الوقت، لكن لم أجد ما يفيد عن مخلوقات بحرية سامة. بعد ذلك تركت الكتاب المقدس وانتقلت لقراءة سلسلة الكتب الخيالية "The Chronicles of Narnia" (سجلات نارنيا)، حتى هذه تبدو أكثر واقعيةً منها.

راقبتها تكبر بسبب الحمل؛ فخذاها تضخما والتصقا بجدار حوض الاستحمام، رقص شعرها في الماء مثل طحالب البحر، أطراف أصابعها أصبحت شاحبة ومجعدة من طول بقائها في الماء، وبرز بطنها على السطح، تمددت سُرتها وأصبحت تشبه بوق الجرامافون. عندما تنام - وهي كثيرة النوم - تريح رأسها على قاع حوض الاستحمام فتصبح مغمورة بالماء بالكامل بينما تتصاعد منها فقاعات الهواء الشفافة. أتحدث إلى بطنها على أمل أن يكون الطفل منصتًا للعالم الخارجي.

سألت الجنين: «أي مخلوقٍ أنت؟»، إنه سؤالي الوحيد، لكن لا أتلقى جوابًا. مع وضع طبيعة الأم في الاعتبار، فالطفلة هادئة بشكلٍ عجيب. أصبحت أبًا، لم أعد طبيبًا. خفت من قدوم وحشٍ صغير. من الصعب تخيُّل طبيعة الطفل.

عندما حانت اللحظة الموعودة، نمت على أريكة غرفة المعيشة، وخلفي التليفزيون الذي يظل شغَّالًا، لقد أصبح رفيقًا أتحدث معه وكأنه إنسان يشاركني الغرفة. ما بين صوت التليفزيون والنوم، لم أسمع شيئًا مما حدث. لا صراخ ولا لهاث ولا توجع من الألم. لم أسمعها وهي تغادر، بمجرد أن غادرت

أصبح من الصعب تصديق طبيعتها الغريبة. إنها مجرد شخص عرفته وتركني. على الرغم من رحيلها، ظلت عالقة في ذهني. أشعر بالوخز كلما تذكرتها.

أحاول إقناع نفسي أنها كانت مجرد امرأة عادية، لكنني لم أتخطَ أبدًا مسألة قدميها الناعمتين، وبقائها تحت الماء، وعدم قدرتي على معارضتها وسماحي لها بأن تعضني على الرغم من احتياجي للمعاملة الرقيقة. يؤلمني سحرها وقدرتها على التلاعب بإرادتي بسهولة. أشعر بألمٍ في معدتي وكأن أحدهم يطعنني كلما حاولت معارضتها. كلا، لم تكن طبيعيةً أبدًا. لا توجد فيها خلية طبيعية. إنها حورية جذابة وسامة.

أعلم أنه لا ينبغي لي التحدث عنها بهذا الشكل. كيف أقول إن مخلوقًا خرافيًّا أغواني؟ كيف أجعل المستحيل قابلًا للتصديق؟ لكان الأمر أسهل لو أخبرتني باسمها، أو قصة حياتها، أو أي معلومة عن ماضيها. لكنها لم تترك لي شيئًا أثبت به حقيقتها، لا شيء سوى الملح الذي وضعته في حوض استحمامي، وذكرى جسدي المرتجف كلما رأيت وجهها الشاحب تحت الماء.

وجدت الطفل في حوض المطبخ الذي ملأته حتى المنتصف.

نصف الحوض الفارغ يدل على عدم يقينها من طبيعة المولود، في عشرتنا التي دامت تسعة أشهر، لم أرها مترددة أبدًا. بالتأكيد انحنت على الحوض ونظرت إلى طفلتها الرضيعة لكي تتأكد من أنها مثلها تمامًا، قادرة على كل العمليات البيولوجية المائية. في النهاية تراجعت وملأت نصف الحوض فقط. ربما رأت جزءًا مني فيها. مثل إصبع قدمها الثاني الذي يلتف حول الأول، وحاجبها العابس الواضح جدًّا في وجهها الصغير على الرغم من أن عمرها في الدنيا لحظات.

أود التصديق بأن هذه الطفلة مثلي تمامًا، لكن لا أرى فيها شيئًا مني. لففتها بحرصٍ بمناديل المطبخ وورق ألومنيوم، سمعت أنه يحافظ على التدفئة لأنه يمنع تسرب الحرارة. لا أتذكر حاليًا أي شيءٍ مفيد مما تعلمته في الجامعة. بدأت آثار أقدام الأم المبتلة تجف في الحمام، مما يدل على أنها رحلت منذ وقتٍ طويل. تجمد عقلي وشعرت باختناق، سكبت لنفسي كأسًا من الويسكي. وبدون تفكير سليم وضعت الطفلة في أكبر وعاء في المطبخ. بشرتها وردية كشرائح اللحم، وشعرها أسود كالفحم ولامع، وتحيط خصلاته المموجة بوجهها مثل علامات الاستفهام.

من الصعب وصفها بالجميلة، لكنها ابنتي. يقل إحساسي بالفشل حين أراقبها وهي نائمة. نصفها جاء مني؛ ربما الذراعان أو الساقان، الظهر أو البطن، أصابع اليدين أو القدمين. لقد صنعت نصفها. أنا لم أهجرها، لقد وجدتها في حوض المطبخ وأنقذتها، أنوي تربيتها لثمانية عشر عامًا على الأقل. أتساءل

إن كان هذا الشعور يشبه الحب. لم يكن شديدًا كما تخيلته. أقرب ما استطعت تشبيهه به هو الفيزياء؛ فما حدث معي هو موقف أدى إلى آخر، بدون تدخل المشاعر. كان شيئًا حتميًّا مثل الجاذبية.

لا أعرف ماذا أسميها، لكن هناك متسعٌ من الوقت.

ليومٍ واحد، كنت أسعد إنسان في شرق بلفاست، ثم بدأت أتساءل ماذا سيحدث حين تبدأ بالكلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

الابن الصعب

لنعد بالزمن إلى عام ٢٠٠١، وبالتحديد قبل شهرٍ واحد من أحداث الحادي عشر من سبتمبر. تبقى أسبوعان من الإجازة المدرسية للأطفال في شرق بلفاست. كانوا يخافون من أول يوم في الدراسة وكأنه شبح الموت يحوم في الأفق، كانوا يستغلون كل دقيقة متبقية؛ يستيقظون باكرًا مع الطيور، وينامون آخر الليل. يقضون اليوم كله في الشارع، لهذا هم دائمًا متسخون، وركبهم مجروحة من أثر الحشائش. لكنهم سعداء كما ينبغي أن يكون الأطفال. «سامي» لديه ثلاث أطفال؛ «مارك» في الثامنة، و»لورين» في السابعة، و»كريستوفر» في الخامسة وما زال متعلقًا ببطانية طفولته.

لم يكن صيفًا حارًّا جدًّا لكنه كان جافًّا، وأطفاله لا يهتمون بالتليفزيون. إنهم بالخارج دائمًا. يشاهدهم «سامي» من نافذة المطبخ، وهم يركلون الكرة ويلعبون التنس باستخدام حبل الغسيل، ومضارب قديمة، وكرة شراب. في الأيام النادرة التي تعلو فيها درجة الحرارة قليلًا، تقنعه زوجته «باميلا» بنفخ حمام السباحة للأطفال. فيظل الأطفال يدخلون ويخرجون من الماء الفاتر تاركين وراءهم أثار مياهٍ وطين. يواصلون فعل ذلك حتى يتسخ الماء الذي يستحمون فيه ويصبح موحلًا. بحلول الساعة الخامسة، يرتجفون من البرد، ومع ذلك لا يريدون الدخول لتناول العشاء. يحشرون أفواههم بالطعام ثم يسرعون بالخروج مجددًا قبل أن ينزل إلى بطونهم، ويأخذون آيس كريم شوكولاتة. يأكلونه بدلًا من حلوى «البودينج» في الصيف.

في كل يوم في الظهيرة، يركب أطفال الحي الدراجات في الساحة الخلفية لبيت «أجنيو»، "جونو»، والتوأم «مايكي إم» و»مايكي بي»، و»ليديا»، و»مورين" التي يلبسها والداها وكأنها عجوز عانس لأنهما كبيرا السن، و»ستيفي» الذي يسكن آخر الشارع ويلف جبيرة حول ذراعه بسبب لعب الكريكيت. يتركون دراجاتهم أمام بيت «أجنيو»، والعجلات ما زالت تدور، ويتركون المقود معوجًا بشكلٍ غريب. تبدو الدراجات مثل جنودٍ سقطوا وسط المعركة. يعبر «سامي» ساحة المعركة ويسير إلى الجراج. الدراجات تزعجه لكنه لا يستطيع أن يثور غضبًا في وجه الأطفال.

هذا كل ما أراده لأطفاله؛ لعب في الهواء الطلق، وحياة بريئة، وأصدقاء من عائلات طيبة حيث الوالدان يعيشان معًا ويؤمنان بالحياة الهادئة المسالمة. أطفاله معروفون جدًّا في الحي ربما لأنهما ثلاثة أخوة؛ ولد ثم بنت ثم ولد، مع سنة واحدة تقريبًا تفصل كلًّا منهم عن الآخر. هناك طاقة كبيرة تنبعث

منهم وتجذب باقي الأطفال كالمغناطيس. يفرح «سامي» حين يرى أطفاله يستمتعون بطفولتهم بطبيعية. تهدأ العاصفة الهائجة بداخله عندما يقف على الباب ويوزع عليهم عصير البرتقال والمصاصات المثلجة. تهدأ العاصفة لكنها لا تزول.

إنه قلقٌ بشأن «مارك». لم يقلق أبدًا بشأن «لورين» أو «كريستوفر»، فهما طيبان. نادرًا ما يثيران قلقه. وعندما يفعلان، يكون لأسبابٍ عادية مثل ارتفاع الحرارة، أو التبول في أثناء النوم، أو العضُّ. لكن "مارك" مختلف. إنه لم يعض أبدًا. حتى وهو طفل صغير جدًّا لم يكن يعض. لقد اكتشف أن غرز شوكة في فخذ طفل من تحت الطاولة ستؤلم أكثر. وهو في عمر الثالثة، وضع ذراع طفل على مبرد السيارة حتى تورمت، بعد ذلك قال إنها حادثة وصدقه الجميع، بما فيهم والدة الطفل. إنه يتلاعب بالكبار بعينيه اللتين تشبهان عيون غزالٍ صغير. لكن «سامي» لم يصدقه، أدرك كيف تتحول عيناه لتشبه الرخام أو اللبن البارد. وعرف أن الطفل يفكر في كل الأفعال التي يمكنه القيام بها.

"مارك" يُذكر "سامي" بنفسه وهو صغير. هذا كافٍ لكي يشعر بالقلق والأرق طوال الليل بينما يشرب ويسكي في كوب كبير، لكن عندما يرى الطفل يصعد وينزل التل بدراجته بعزيمة مثل الجندي ويضحك من قلبه مثل أي طفل في الثامنة، يخنق «سامي» مخاوفه ويتشبث بالأمل.

يقول لنفسه: «كل شيء سيكون على ما يرام».

"الخير أقوى من الشر في قلب هذا الولد، لقد ورث من «باميلا» أكثر مما ورث مني. إنه يشبهها في الشكل. الجميع يقول هذا، حتى الأغراب". تمسك «سامي» بهذه الآمال الزائفة طوال الصيف. حاول أن يتجاهل الغضب الذي يشتعل فجأة من «مارك» في ملعب الكرة، أو على مائدة العشاء. عندما يقع الأولاد الآخرون من على دراجاتهم، يضحك «مارك» على ركبهم الدامية، وأسنانهم المكسورة.. يضحك بقسوة مثل الكبار. عندما يجد جرادًا أو أي نوعٍ من الحشرات غارقًا في برميلٍ من الماء البارد، يكذب على نفسه ويقول إن الولد فعلها من باب الفضول، مجرد فضول علمي طبيعي. لكنه يعرف الحقيقة، وهي أن ابنه فعلها من باب الشر. يخدع «سامي» نفسه ويرى فقط ما يريد رؤيته في الولد متجاهلًا أي علامات. يمكنه غضَّ النظر عن أي أفعال، حتى التي تشمل العبث بالسكاكين. لكن حادثة عش الدجاج كانت أشبه بجبلٍ وقع على رأسه. إنها متقنة جدًّا.

بدأ الموضوع بكل براءة. خافت «لورين» من البجع في متنزه «فيكتوريا بارك». هذا لم يدهشه بالمرة، فلطالما كانت «لورين» طفلة متوترة، والبجع بطبعه مشاكس ويحب مطاردة الدجاج الصغير، ويصدر صوتًا يشبه صوت

الغلاية عندما يقترب إنسان من حافة البحيرة الخاصة به. الكثير من الأطفال يخافون من البجع؛ إذا غضب البجع يمكنه عض ذراع رجلٍ بالغ حتى يلتهب. لم يهتم «سامي» أو «باميلا» بأمر البجع.

بعد ذلك أصبحت «لورين» تخاف من البط. البط مختلف، من المفترض أن يحب الأطفال البط. إنه مرسوم على جانب حذائها الأصفر. وهو أيضًا موجود في كتب الأطفال الخاصة بها، يصيح «باك، باك، باك»، بينما في الصفحة المقابلة توجد الخنازير وتردد «أوينك، أوينك، أوينك»! لا يوجد ما يخيف في البط. بدأ والداها يقلقان؛ جعلاها تشاهد أفلام كرتون عن البط في محاولة لمحو خوفها، أخذاها إلى ضفة البحيرة وحملاها بينما يقذفان فتات الخبز حولهما ويقولان:

- انظري، البط لن يؤذيكِ. إنه يريد الخبز فقط.

صرخت مثل امرأة على وشك الولادة، وتشبثت برقبة والدتها برعب. عندما عادوا إلى البيت، لاحظ «سامي» أنها بللت نفسها لأول مرة منذ عامين.

ازداد الوضع سوءًا؛ قبل بداية الدراسة بثلاثة أيام، قررت «لورين» أنها تخاف من كل الطيور، حتى البطاريق، على الرغم من أنها تعرف أنه لا توجد بطاريق في بلفاست. اندفعت إلى غرفتها وخلصتها من كل ما يتعلق بالطيور. ألقت كتب الأطفال، والدمى المحشوة في صندوق القمامة في المطبخ. مجرد تعاملها مع دمى الطيور جعلها ترتجف، أصبحت تستيقظ من النوم خمس مراتٍ في الليل بسبب الكوابيس.

تساءل «سامي» إن كان عليه أخذها إلى الطبيب، لكن «باميلا» أخبرته ألا يتصرف بسخافة، فالعلاج لن يحل شيئًا. إنها مجرد مرحلة وستمضي. في الليلة التالية، رأى زوجته بجانب ابنته النائمة تدعو الله أن يزول خوف الطيور من ابنتها. وضعت يدها على جبهة «لورين» وكأنها قديس يبارك الطفلة. إنهم ليسوا عائلة متدينة بطبعهم، على الرغم من أنهما كبرا في الكنيسة تقريبًا. لذلك اندهش عندما رأى زوجته تلجأ للدعاء والصلاة. وقف عند باب غرفة «لورين» واستمع، كانت «باميلا» تردد الصلاة المعتادة مع إضافة بعض الدعاء لإبعاد الطيور. إنها الصلاة الوحيدة التي تذكرها.

لم ينفع الدعاء؛ رفضت «لورين» الخروج من البيت خوفًا من البطاريق التي قد تهاجمها. لقد بدأت تتحدث عن عدم الذهاب إلى المدرسة بالفعل. تقول:

- ربما يكون هناك طيور.

فتردد «باميلا» بحزم:

- كفى هراءً!

حملت «لورين» من على أريكة غرفة المعيشة رغم صعوبة ذلك. فـ»لورين» في السابعة لكنها أثقل من عمرها وكبيرة مثل والدها. ترنحت «باميلا» وهي تحملها وخرجت بها إلى الساحة الخلفية، تحركت «لورين» مرنة مثل الكائنات الرخوية. لفت ذراعيها وساقيها حول أمها وكأنها كوالا صغير، لكنها على الأقل في الخارج ولم تصرخ. هذا يعدُّ تقدمًا. شاهدهما «سامي» من نافذة المطبخ، فابتسم ولوَّح لهما ثم هتف لـ»لورين»:

- أحسنتِ يا فتاة! هل تريدين وعاءً من الآيس كريم على العشاء؟

تمنى أن تكون هذه نهاية تلك المرحلة. لقد سمياها بـ»المرحلة» بدلًا من «المشكلة». مجرد مرحلة. مثل المرحلة التي مر بها «مارك» عندما كره الخبز الأبيض فجأة، أو المرحلة التي مر بها «كريستوفر» وظل يرتدي بنطالًا واحدًا لمدة شهرين. بدأ يتفاءل عندما لم تصرخ « لورين». إلى أن لمحت طائر الزرزور على سطح المنزل المجاور. عندما صرخت بصوتٍ أفزع الجيران، وركلت أمها بعنف واندفعت داخل المنزل. كانت هذه مقدمة لأحداث الأسبوع التالي. أصبحت «لورين» لا تخرج إلا إذا لم ترَ طيورًا. وعندما تدخل وتخرج من المدرسة، ترتدي غطاء الرأس في معطفها وتحكم ربطه. رفضت النزول إلى ملعب المدرسة مع باقي الأطفال وقت الاستراحة. ذات مرة أبقت العائلة كلها منتظرة خلف أبواب سوبر ماركت "تيسكو" لخمس دقائق كاملة، لأنها رأت حمامة تقف بينها وبين السيارة. في النهاية اندفع «مارك» إليها وهو يركل. «مارك» ليس صبورًا مع أخته، ولا مع أي شخص. لا توجد به ذرة من الضعف، ولا يحتمل ضعف الآخرين.

قال إنه كان يحاول مساعدة «لورين» على تخطي خوفها عن طريق حبسها في عش دجاج الجيران. وهم صدقوه. لقد ذرف دموع التماسيح أمامهم وخدعهم بنظرته المسكينة. وكيف لا يصدقونه؟ لقد اعتادوا على الأطفال الطبيعيين المشاكسين، لكن لم يروا أبدًا أطفالًا قساة إلا في التليفزيون. «سامي» لم يصدق «مارك»؛ هو من وجده مستندًا على باب عش الدجاج ولاصقًا أذنه على الباب الخشبي لكي يسمع أخته وهي تصرخ وتخربش في الباب بأظفارها حتى أدمتها، بينما يقفز الدجاج حولها مثل إعصارٍ هائج من الريش!

لوهلةٍ وقف «سامي» عند سور حديقة الجيران وشاهد ابنه؛ لقد رأى النظرة التي على وجهه من قبل على وجوه واعظين ولاعبي الكرة عندما يسجلون هدفًا. إنها نظرة بهجة. رأى «سامي» هذه النظرة على وجهه هو في الماضي. أولًا، عندما كان ينظر إلى انعكاس صورته على نوافذ السيارات التي يحرقها. وثانيًا، في بداية حياته مع «باميلا». كانا يعيشان بسعادة. عندما رأى «مارك» والده، ابتعد عن عش الدجاج ورفع يديه ببراءةٍ زائفة، وقال:

- كنت أحاول علاجها فقط يا أبي.

ثم أخرج دموعه.. دموع تماسيح، سالت من طرف عينيه فقط، لم تصل حتى إلى السواد الذي لا يمكنه الكذب.

تلك الليلة ضرب «سامي» «مارك» بملعقةٍ خشبية. استغرقوا أربع ساعاتٍ على الأقل لتهدئة «لورين» الهائجة. أعطوها «باراسيتامول» وكاكاو. واستلقت «باميلا» بجانبها في السرير، ووضعت حولها الكثير من دمى الحيوانات. عندما ضُرب «مارك»، ترك باب الغرفة مفتوحًا لكي تسمعه «باميلا» وتتدخل إذا فقد السيطرة على نفسه ولم يستطع التوقف. لم يصرخ الولد أو يبكي، بل كانت تخرج منه حشرجة مكتومة مع كل ضربة. لم يضرب «سامي» ابنه مجددًا. لقد خاف أن يقتله دون وعي. هناك شيءٌ في هذا الولد يستفزه لكي يضربه.

بعد حادثة الدجاج، خاف «سامي» على «مارك» لدرجةٍ لم يخف بها على نفسه؛ فالدم القاسي نفسه يجري في عروقهما، لكن «مارك» أذكى بكثيرٍ منه. لأول مرة يشعر بالرضا من ضيق أفقه، الذي يجعله يعيش حياته خطوةً بخطوة ولا يتوقع المستقبل. إنه يفهم معنى أذية الناس، لقد ضرب الكثير من الناس حتى شعر بشظايا عظامهم بين يديه، وسال دمهم على قبضتيه ووجهه. لم يكن العنف مجرد فكرة معنوية بالنسبة لـ»سامي»، بل نشاط جسدي ثقيل كقالبٍ خرساني.

“مارك” مختلف؛ فهو لديه القدرة على أذية الناس بدون لمسهم. هذا ما يثير حماسه، لأنه يشعره بأنه خارق. إنه نوعٌ من الشعور بالعظمة كما يعرف «سامي». أحيانًا يشعر بالغيرة من ابنه الذي بعمر الثامنة، لكنه مع ذلك أذكى من أمه وأبيه مجتمعين. يعرف «سامي» أن هذا هو أسوأ نوعٍ من القوة. فالقبضة يمكن صدها أو قطعها، لكن عقل كعقل «مارك» لا يمكن كبحه. لا يملك الولد ذرة من الحنان، ولا حتى مع أمه.

أخبر «سامي» «باميلا» أن عش الدجاج كان مجرد حادث. لم يستطع النظر في عينيها وهو يقول ذلك، لم يستطع رؤيتها وهي تبكي وتحاول بكل جهد أن تصدق بأن كل شيء سيكون على ما يرام. لا شيء سيكون على ما يرام.. كلاهما يعرف ذلك، لكن «باميلا» أرق من «سامي»، وتميل لرؤية الخير في كل إنسان. تحمَّلا من أجل الأطفال الصغار، لكن قريبًا لن يبقى بينهما إلا غيمة سوداء من الإحباط والذنب.

حل منتصف سبتمبر ٢٠٠١. ما زالت «لورين» تخاف من الطيور، لكنها تقابل أخصائيًّا نفسيًّا. وهو يؤكد أنها ستكون بخير بحلول عيد الميلاد، فهو موسم الحمام والعصافير والسلام. حلَّت كارثة في “نيويورك”، لكنهما قررا إخفاء

الأخبار عن الأطفال. سيكون هذا من آخر القرارات التي يتخذها «سامي» و»باميلا» معًا كزوجين. ناقشا المسألة وهما يشربان الشاي والأطفال نيام. جلسا في غرفة المعيشة، وظل التليفزيون يعرض صورة انهيار البرج الأول ثم الثاني، بينما تخترق الطائرة الواجهة الزجاجية. ظل المشهد يُعرض مرارًا وتكرارًا وكأن الشريط معطل.

قالت «باميلا»:

- لا يمكننا حمايتهم إلى الأبد.

- بالطبع لا يمكننا، لكن لا يجب على أحد رؤية هذه المشاهد، وخاصةً الأطفال.

فكر في «لورين» و»كريستوفر». لقد توقفت الكوابيس أخيرًا عن مهاجمة «كريستوفر» بعد صراع طويل؛ بسبب مشاهدته لحلقةٍ عنيفة من مسلسل "Taggart" (تاجارت). إنه قلق ويحاول حماية براءتهما. هذه هي طبيعة الآباء، لكن حين قررا إخفاء أحداث الحادي عشر من سبتمبر عن الأولاد، كان كل ما يفكر به «سامي» هو «مارك». «مارك» هو ما يشغل بال «سامي» معظم الوقت؛ عيناه الباردتان، لسانه القاسي، أصابعه البيضاء الصغيرة المضمومة دائمًا. ما زالت حادثة الدجاج حيَّة في ذاكرته. كلما نظر إلى ابنته، تذكر وجهها المرعوب الشاحب شحوب الموتى. عندها يشعر بمرارةٍ في حلقه، لقد أثَّر «مارك» في ابنته للأبد.

لم يقلق «سامي» على «مارك» من الصدمة. بالعكس، بعض الكوابيس قد تفيد هذا الفتى وتعيد إلى قلبه الخوف من الرب. إنه أصلب من المعدن. لا شيء يؤثر به، ولا حتى الألم الجسدي. الحقيقة أن «سامي» يخشى من ردة فعل ابنه على هذه الصور المقززة؛ الأجساد المتطايرة في الهواء مثل طيورٍ بلا أجنحة، الجثث المغطاة بالغبار، الانفجارات، الزجاج المتحطم في أثناء انهيار المبنى، صراخ الناس وهم يهربون بخوف.

سينتبه «مارك» لكل هذا البؤس، سيرى المشاهد مرارًا وتكرارًا. سيتذكر التفاصيل بكل سهولة ويحتفظ بها في ذاكرته مثلما يتمسك الأطفال العاديين بذكريات عيد الميلاد و»الهالووين"، سوف تسعده. على الرغم من أنه في الثامنة، فإنه خبيث بما فيه الكفاية لكيلا يعترف بهذا. إنما يعرف «سامي» أن هذه الأمور تثير سعادته، لكنه يكتمها. يستفسر عن التفاصيل مثل الأرقام والمسافات والأوقات ودرجة الحرارة، وكأنه يريد أن يفهم المنطق من التدمير، وأن يتخيل تفاصيل الخطة في عقله.

لم يخبرا الأولاد عن تدمير مركز التجارة العالمي، لكنهم سمعوا به على كل حال. ربما من الأولاد ذوي الأهالي المهملين، أو المنافقين الذين يظنون أنه لا

يجب حماية الأطفال من الوجه القاسي للحياة. أخذت «لورين» تبكي، وأصبح «كريستوفر" يدخل البيت خوفًا في كل مرة تمر طائرة في السماء. لكن «مارك» مختلف؛ ظل يسأل أسئلة ويأخذ الصحيفة التي يرميها «سامي» في سلة المهملات؛ ليقص صورًا منها. إنه يحتفظ بها في علبة معدنية تحت سريره. وجدت «باميلا» العلبة مخبأة داخل حقيبة نوم عندما كانت تجمع ملابسه لغسلها. وجدت فيها قصاصات أخرى مأخوذة من مقالات وكتب قد استعرها من المكتبة. لكنها صور عن سفاحين، أو حوادث دراجات نارية، أو جثث حيوانات مشوهة بسكاكين. جلست على السرير لساعة وهي تحمل العلبة بين يديها. لقد شعرت وكأنها تعرضت لطلقٍ ناري.

قالت «باميلا» عندما أخبرت «سامي» عن الصور:

- علينا أن نأخذه لطبيبٍ نفسي.

لم تبدُ بهذه الصدمة منذ وفاة والدها.

طمأنها قائلًا:

- إنها مجرد مرحلة يمر بها الكثير من الأولاد، سينضج قريبًا.

حاولت «باميلا» تصديقه. هذا ما أرادت سماعه، لكنها لم تستطع التصديق. لطالما شعرت ببرودة قلب «مارك»، حتى وهو طفل. تركت نفسها تتخيل كيف ستشعر لو فقدته. الغريب أن أوَّل انطباعٍ جاءها هو الراحة. إنها تعرف أن «سامي» يشاركها الشعور نفسه، لكن لن يجرؤ أحدهما على الاعتراف بذلك. هناك بعض الأشياء التي لا يستطيع الأبوان الاعتراف بها، ولا حتى لبعضهما.

اشتركا لـ»مارك» في تدريبات كرة قدم، واشتريا له كمبيوتر، وكتب، وشرائط فيديو. أرادا أي شيء لإشغال عقله، لكن بلا فائدة. لم يأخذاه لطبيبٍ نفسي، لم يطلبا مساعدة أصدقائهما، لم يستطيعا التحدث في الموضوع مباشرةً. تركا حالة «مارك» تسوء في الغرفة العلوية؛ لا يتحدث معهم تقريبًا، يظل على الكمبيوتر، يقرأ كتبًا يشتريها من على الإنترنت، يتواصل مع أصدقاء أكبر منه سنًّا، أو ربما وجوههم توحي بذلك وحسب. تركاه، جسده موجود لكن روحه غائبة. أصبح وجوده ثقلًا يخيِّم على روحهما بمرور الوقت. شعرا بهالة من الكآبة تخرج من غرفته من بين ألواح الأرضية، وتخترق الجدران وصولًا إلى غرفتهما، تشق طريقها بينهما بالقوة، ويعجزان عن صدها.

مضت خمسة عشر عامًا. كبر «كريستوفر و»لورين» وذهبا إلى الجامعة في «كوليراين» و»جلاسجو». اشتريا سيارتين مستعملتين وركباها وغادرا. لم يعودا أبدًا إلا في عيد الميلاد، لكن «مارك» لم يغادر. لقد بقي في الغرفة

العلوية، ودرس أحد مجالات الكمبيوتر في جامعة «كوينز». إنه يدفع تكاليف دراسته بنفسه، ولم يسأله والداه عن مصدر المال. لم يأخذا منه أجر إقامته أيضًا؛ لقد خافا من إجابته.

تغيَّر «سامي» و»باميلا» عما كانا عليه منذ عشرين عامًا، حتى شكلهما تغيَّر. يستلقيان على السرير ليلًا ويشعران بثقل ابنهما يضغط على السقف بينما يسير في الغرفة. يريدان لومه على كل شيء، لكنهما يلومان أنفسهما. أو بالأحرى، «سامي» يلوم نفسه، و»باميلا» تتركه يفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفتى ذو العجلات بدلًا من الأقدام

انزلق «ماثيو» من رحم أمه فاردًا ذراعيه أمامه مثل «سوبرمان» وهو يطير. قالت القابلة: «ها هي رأسه، لقد انتهت أسوأ مرحلة يا سيدة "كريستي"". لم تكن تعرف بشأن العجلات. إن جسد المرأة ليس مؤهلًا لولادة عجلات، لذلك كاد "ماثيو" يمزق أمه إلى نصفين وهو يخرج.

لقد دار على عجلات قبل أن يمشي، أقل ميل يجعله ينزلق عبر الغرفة. بمجرد أن يقف، ينزلق بسرعة. إنه أسرع فتى في شرق بلفاست. عليك رؤيته وهو يتزلج في ملعب «فيكتوريا بارك»؛ ينزلق بعجلاته على لعبة التزحلق وكأنها منحدر تزلج. ساقاه مثنيتان، وذراعاه مشدودتان. عندما يصل لنهاية لعبة التزحلق، يطير في الهواء لعشرة ثم اثني عشر ثم عشرين قدمًا. في سن الثامنة، صار محترفًا. يقول الجميع إنه يحرق التلال بسرعته، سواء كان تل «كايف هيل» أو الجبل الأسود أو أي منحدر موجود. من المثير رؤيته وهو يندفع من أعلى لأسفل، وكأن الرب باركه بهذه السرعة. يقف والداه على الرصيف، ويراقبان ابنهما بإعجاب وهو ينطلق بسرعة ويمر بهما. إنه سريعٌ جدًّا، يمكن الشعور بسرعته وليس فقط رؤيتها. يترك «ماثيو» آثار احتراقٍ على الأسفلت من شدة السرعة، وتنطلق من حوله شرارات حقيقية. يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي! لا يعرفان من أين تأتي سرعته؛ فوالدته تعمل في مطعم مدرسة، ووالده يعمل في المناوبة الليلية في مصنع «شورتس». لا توجد عظمة واحدة سريعة في جسديهما.

أصبح «ماثيو» في العاشرة، وحاجته إلى السرعة مثل حاجته إلى الأكل؛ لا يمكنه البقاء ثابتًا. إنه يفكر بقدميه، وكل فكرة أسرع من الأخرى. إنه دائمًا على الإنترنت يبحث عن المنحدرات السريعة في الجبال، مثل "الأوليمب" و"إفرست" و"كليمنجارو". قلبه معلق بأشد المنحدرات خطورة في العالم. لا يشعر بأنه في أحسن حالٍ إلا وهو ينزلق بسرعةٍ هائلة. قال لوالده: "ما دام لا أستطيع أن أكون طبيعيًّا، سأكون خارق السرعة». يعرف والداه أنهما يخسرانه. سِجِل البحث على جهازه يشبه رسالة انتحار، فهو مليء بأماكن خطيرة؛ جبل «تابل»، «ماترهورن»، «سليف دونارد»، على الأقل هذا قريب من البيت. فكرا في ربطه من كعبيه بجهاز التبريد والتدفئة الموجود في غرفته، هذا لمصلحته. تجلس والدته في الليل تعقد خصلات من شعرها حول قدمي الفتى. تحاول إبطاء سرعته بأي طريقة لكيلا يرحل، لكن يعرف والده أنه لا فائدة من هذا، فـ»ماثيو» لم يعد معهم بروحه. على كل حال، لا يمكنك فعل شيءٍ غير الحركة إذا كنت تملك عجلات بدلًا من الأقدام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

6

التسمية

إنها بداية يوليو الآن، وأتمت «صوفي" أربعة أشهر. أصبحت بحجم قطة أليفة. أنا أحملها كالقطة بالفعل؛ أضعها على كتفي وكأنها وشاح جميل، تبدو مستمتعة بهذه الوضعية. تتدلى رجلاها على صدري، وتتمسك ذراعاها بكتفي. لا يمكنني رؤية وجهها بوضوح لأنها تنظر بعيدًا عني دائمًا، هذا يناسبني؛ فهذا يخفف عني التفكير بشأنها.

سميتها «صوفي»، فهي بحاجةٍ إلى اسم. كان هذا اسم طالبة طبٍ لازمتني آخر ستة أشهرٍ في الدراسة. لم نكن مقربين جدًّا، لكن كان من السهل الجلوس بصمتٍ في صحبتها. وكأننا شخصان يجلسان في مكتبة ويقرآن. عندما بدأت أفكر في اسمٍ لابنتي، قفز إلى عقلي اسم «صوفي" فورًا. ربما ربط عقلي بين الاسم وبين صفة الصمت.

بعدما تنجب طفلًا، يكون لديك أسبوع واحد فقط لتسميته. أعرف هذا لأنني طبيب، هذا ما نقوله للوالدين عند مغادرة المستشفى. منذ اليوم الذي وصلت فيه "صوفي" إلى الدنيا، ظللت أنظر لقدميها سبعة أيام. كانا الجزء الوحيد منها الذي تجرأت على النظر إليه. سألت القدمين: "ما الاسم الذي تفضلانه؟»، لكن قدميها لم تردا عليَّ. لم أستطع التفكير إلا في الكلمات العادية الشائعة؛ مثل «طفل» و»شخص» و»مخلوق». هذا لا ينفع اسمًا لطفل. «صوفي» هو الاسم المناسب الوحيد الذي تذكرته تحت ضغط الموقف. كان اسمًا عاديًّا، لكنه جميل على كل حال، وقد أصبح لها. سيظل اسمها «صوفي» إلى أن ترغب بتغييره يومًا ما.

نطقت اسمها مرتين فقط؛ الأولى لموظفة السجل المدني في مجلس المدينة، والثانية في التليفون لأمي في نيوزيلندا. لقد تدربت على ما سأقوله لها قبل الاتصال؛ أردت نقل الخبر بطريقةٍ صحيحة تليق بخبرٍ مهمٍ كهذا مثلما أشاهد في المسلسلات، كتبت كل الجمل على ورقة.

- مبروك يا أمي، أصبحتِ جدة. اسمها "صوفي" وهي رائعة.

قرأت الجمل من على الورقة ثم انتظرتها تطرح أي سؤال. مَن والدة الطفل؟ أين هي؟ ألم تتعلم من خطأنا يا «جوناثان»؟

لكنها بدلًا من ذلك قالت بأدب:

- لا، شكرًا.

وكأنها ترفض عرضًا من عروض الإنترنت، ثم أغلقت الخط. ظللت فترةً على الأريكة ممسكًا بالتليفون على أذني حتى ترك أثرًا أحمر على خدي. انتظرتها لتعاود الاتصال، لكنها لم تفعل. أمي ليست من النوع الذي يعاود الاتصال. سألت نفسي إن كنت غاضبًا، لكنني أدركت أخيرًا أن الشعور الذي يساورني الآن هو الراحة وليس الغضب. أعدت التليفون إلى الشاحن، وقررت أنه عندما تكبر «صوفي» سأخبرها أن جديها توفيا في حادث سيارة.

إنها المرة الأولى التي أفكر في «صوفي» على مدى بعيد. ليس صعبًا أن أتخيلها وهي تشرب اللبن، وتنام، وتركل الغطاء من عليها في اليوم التالي، لكن تخيُّل حالها بعد يوم واحد لا يمكن اعتباره تفكيرًا في المستقبل. يتغيَّر الأطفال بسرعة بمرور الأيام. لكنها تغيُّرات بسيطة وتدريجية، مثل طول الشعر والأظفار أو نمو الأسنان حتى أشعر بعضتها على إصبعي. معظم الأيام عندما أحملها في الصباح أجدها الطفلة نفسها التي وضعتها في السرير ليلًا. من المستحيل عليَّ أن أتخيل «صوفي» في السادسة عشر أو السابعة عشر. ستصبح مختلفة تمامًا عن الطفلة التي أحملها على كتفي الآن.

أبذل جهدي لكيلا أتحدث أمام «صوفي»، لا أنطق اسمها ولا أسمح لها بسماع الأغاني، بل الموسيقى الكلاسيكية فقط، لأنها لا تحتوي على كلمات. لن أحرمها من الموسيقى تمامًا، فأنا لست وحشًا. أشاهد التليفزيون حين تكون نائمة أو حين أضع لها سماعات. لا أريدها أن تستمع إلى أي كلمات، ولو حتى عن بعد أو بلغة أجنبية. أحاول إبقاءها صامتة أطول مدة ممكنة؛ هذا لمصلحتها. هذا ما أقوله لنفسي دائمًا، لكن خوفي من صوتها ظل يلازمني.

لن أنسى أبدًا القصص التي كانت أمها تهمس بها في أثناء نومها؛ قصص عن سفن محطمة، ومذابح، وأشياء فظيعة يفعلها قومها للرجال من أجل سماع توسلاتهم. بعدما تستيقظ كنت أسألها عما قالته، فلا تؤكد أو تنكر حقيقة همساتها. ربما هي حقيقة أو كذب، لكنني كنت واثقًا بأنها قادرة على هذه الأفعال. وهذا هو ما يرعبني، قدرتها على فعل ذلك.

على مدى الأسابيع القليلة الماضية، كنت مشغولًا للغاية فلم أنتبه للأخبار، «صوفي» تستنفد طاقتي كلها، فأنا أحممها، وأطعمها، وأنظفها، بالإضافة إلى تفكيري فيما يجب عليَّ فعله معها على المدى البعيد. في الأوقات التي لا ينشغل تفكيري بها أكون نائمًا من التعب، لكنني أحلم بها. وعندما أفيق وأعود للواقع، أسمع نشرة أخبار السادسة. عندها تنتبه أذني لأخبارٍ عن شباب يشعلون الحرائق، ويورطون أنفسهم في أفعالٍ عنيفة، ويدمرون مستقبلهم من أجل فكرة فاشلة. سأتساءل فيما بعد إن كانت الحورية خلف كل هذه الفوضى والمعاناة التي بلا طائل. هل يمكن أن تكون والدة طفلتي هي من تهمس بالشر في أذن هؤلاء الفتية لتحرضهم على العنف والدمار؟ أتخيل

ذراعيها النحيلتين ممتدتين إلى المدينة وتتحركان مثل ذراعي مايسترو متحمس، لكن بدلًا من توجيه الأوركسترا، إنها تتحكم بالفوضى. من السهل أن أتخيلها مشتركة في هذا الدمار.

ربما هي من يقف خلف هذا الجنون.. وربما لا. قد لا أتأكد من ذلك أبدًا. كل شيءٍ بدا عاديًّا وهادئًا إلى أن جاءت هي طافية على نهر «لاجان». كان الناس متفائلين بالمستقبل، ويسعون للسلام. ببطء لكن بانتظام. أما الآن فالمدينة مثل جرحٍ مفتوح وملتهب. كل السياسيين وقادة الجيش الجمهوري وعامة الشعب بدؤوا بالتفرق. أشم رائحتها في هذا الموقف. ميزان الدولة يختل، والمتاعب القديمة قد تعود مجددًا، قد يعود الوضع عشرين عامًا إلى الوراء، إلى زمن الفوضى، وهي مجرد كلمة بديلة لكلمة «حرب». لا يمكنني تجاهل الموقف. ليس إن كانت هي الحبة الفاسدة التي تخرب الأرض، ليس إن كانت قد زرعت الحبة السوداء نفسها في قلب «صوفي» أيضًا.

يجب أن أفعل شيئًا. أحاول وضع خطة.

الأمر ليس سهلًا؛ ليس لديَّ أصدقاء أو عائلة لأطلب منهم النصح، لا أعرف الكثير عن الأطفال بخلاف تشريحهم الجسدي، لا أعرف ماذا أفعل مع طفلٍ به مشاكل. عادةً تختص هيئات الخدمة الاجتماعية بمشاكل الأطفال، التي لا تتعلَّق بالأمراض الجسدية. تتعامل الخدمة الاجتماعية مع العائلات المفككة وتوفق بينها أو تفصلها على نحوٍ مناسب. لكنني واثقٌ بأن الخدمة الاجتماعية لن تصدقني أبدًا إذا أخبرتها أنني أنجبت طفلة من حورية بحر بالخطأ. هل توجد إجراءات معينة لوضعٍ كهذا؟ أحاول بكل جهدي التفكير في أي جهة يمكنها التدخل؛ الشرطة، المستشفيات، الكنيسة. صحيح أنني لست كاثوليكيًّا، لكن لا أمانع تجربة أي شيءٍ كالصلاة أو طرد الأرواح من أجل «صوفي».

من حينٍ لآخر، أتخيل نفسي مريضًا وطبيبًا يتحدثان معًا.

يقول المريض إلى الطبيب:

- ابنتي ما زالت طفلة لم تستطع الكلام بعد، لكن ربما ستصبح قادرة على إيذاء الناس بصوتها.

عندها يطلب الطبيب له قسم الأمراض العصبية والنفسية، لا أستطيع تخيُّل نتيجةٍ أخرى.

لن أتعب نفسي بتفقد كتب الطب؛ فأنا أعرف أنها لا تضم أي كلام عن الحوريات. هناك قسم عن الصحة النفسية، والأشخاص الذين يتخيلون أنفسهم كائنات أسطورية مثل مصاصي الدماء، أو حتى المسيح. لكن لا يوجد أي كلام عن الأشخاص الذين هم في الحقيقة كائنات أسطورية. لديَّ كتب

تساوي آلاف الجنيهات في مكتبي، لكن لا أثق بأيٍ منها الآن. إنها بقايا من زمن فات بالنسبة إليَّ، حين كنت أصدق كل كلمة مطبوعة في الكتب مع الرسومات التوضيحية. أنا حريصٌ على تجنب الكتب الخاصة بتخصص الأنف والأذن والحنجرة. أضعها في آخر المكتبة، لا أهتم بتصفحها لمعرفة الطرق الكثيرة التي يمكن استخدامها لإخراس إنسان بمقص مطبخ، أو مشرط جراحة.

في غياب الحلول العلمية، اضطررت لمشاهدة ساعات من مسلسل "The X Files" (الملفات الغامضة) بحثًا عن إجابات، هذا غير صحيح. لا أبحث عن إجابات. فـ»صوفي» ليست سؤالًا، بل مشكلة عليَّ حلها. شاهدت "The X Files" لأبحث عن إلهام، ولأنني أحبه أيضًا. لا أستطيع رسم خطٍ مستقيم يفصل بين الواقع والخيال؛ فأحدهما حقيقة والآخر أيضًا نوعٌ من الحقيقة. لم يعودا متناقضين كما تعلمت في الجامعة. هناك أمورٌ عجيبة في "The X Files"، خاصةً في المواسم الأولى. لست مندهشًا من مصاصي الدماء والمستذئبين ، لكن كان هناك رجل يأكل أكباد الناس، وله جسد مطاطي يمكنه التمدد مثل العلكة، وعبور فتحات المجاري ومقابس الكهرباء. إنه يخيفني. لقد أوقفت الحلقة بعد بدئها بعشر دقائق لأضع شيئًا ثقيلًا على غطاء حمامي خوفًا من أن يخرج إليَّ منه. لم أشاهد أي حوريات بعد، لكن ما زال أمامي ثلاثة مواسم. ما زال يمكنني اكتشاف الحقيقة. أتجاهل تترات البداية والنهاية، لأشاهد أكبر عددٍ ممكن من الحلقات في الأمسية الواحدة.

لا أعرف ماذا سأفعل لو وجدت حلقة عن الحوريات. بخلاف الكائنات الفضائية، لا يتعاطف «مولدر» و»سكالي» كثيرًا مع أي كائن يختلف في تكوينه الأساسي عن البشر. الكائنات الغريبة دائمًا أعداء لهما. لا أظنني سأحتمل مشاهدة حورية يتم قتلها أو حبسها في مختبرٍ للتجارب؛ ما زال بداخلي عاطفة تجاه والدة «صوفي». عقلي تجاهلها بسهولة وكأنها حرب باردة ومضت، لكن جسدي ما زال يتعاطف معها. أشعر بلمساتها على جسدي كلما استحممت. أحيانًا أحلم بها، ودائمًا تكون تغني في الحلم. طبعًا هذا من ابتكار عقلي، لأنه ربط بينها وبين الأسطورة. وربما أنا فقط أتوق لنوع الأم التي لم أحصل عليها قط. أذكر نفسي أنها لم تغنِ لي أبدًا طوال الوقت الذي أمضيناه معًا. هذا جيد، لكنه أيضًا محبط.

بحثت عن الحوريات على «ويكيبيديا». لا أعتمد على «ويكيبيديا» كثيرًا، لكن ليس أمامي خيارات كثيرة. يطلق على هذا النوع من الحوريات اسم «Siren"، ولهن قسمٌ خاص تابع للأساطير، وذلك لكيلا يتم خلطها بكلمة "Siren" بمعنى "سرينة". وإن كنت أظن أن الكلمتين مشتقتان من أصلٍ واحد. يمكن التعديل في مقالات "ويكيبيديا». أفكر في إزالة مقال الحوريات من قسم الأساطير

وإضافته لقسم التاريخ، وربما أضيف فقرة عن الحوريات في الزمن المعاصر ومعرفتهن باستخدام التليفون. أعرف أن هذه الإضافات سيتم حذفها بمجرد أن تمر على المراقبين. فـ»ويكيبيديا» لا تمتلك حس دعابة، مع ذلك تغريني فكرة القيام بهذا التخريب البسيط. وكأن الكلمات تقفز على أصابعي لكي أكتبها.

صفحة الحوريات على «ويكيبيديا» مليئة بلوحات زيتية بريشة «درابر» و»أرميتاج» و»ووترهاوس». تُظهر أعمالهم هوسًا رهيبًا بالحضارة الإغريقية في العصر الهلنستي. الرسوم زاخرة برؤوس مقطوعة، ونساء جميلات، وآلهة عراة. إنها ذلك النوع من اللوحات التي تحتاج إطاراتٍ ذهبية ثقيلة لإظهار فخامتها. تنقلت من صفحةٍ لأخرى، ثم عدت إلى الصفحة الأصلية. مررت بالمقدمة وبقائمة من الكتب عن الحوريات. من ضمنها كتب «هوميروس» و»كافكا» وكتاب «كائنات خيالية” “Imaginary Beings” لـ»بورخيس”. عندي نسخة منه في مكتبتي ضمن المجموعة التي تركها أبي وأمي. موجود في ركن الكتب التي لا أميل إليها، مثلما لا أميل لأبي وأمي. كتب «بورخيس” عن الموضوع ببلاغة، بينما ركزت مقالات «ويكيبيديا» على توفير معلومات كثيفة. راجعتها كثيرًا خلال الأسابيع الأولى من عمر «صوفي». تجاهلت المبالغات فورًا، لأنني رأيت «صوفي» ووالدتها وهما عاريتان، ولا يوجد لهما ذيل أو ريش كما تقول الأساطير عن الحوريات المجنحة. أما موضوع أكل لحوم البشر فاعتبرته هراءً تامًّا، لأن «صوفي» لا تتناول شيئًا إلا اللبن، ووالدتها تحيا على السوائل مثل الحساء المعلب والكاسترد، وكأنها تريد إحاطة نفسها بالسوائل من الداخل والخارج. لا أتخيلها قد تأكل شيئًا صلبًا مثل ذراع أو فخذ إنسان.

موضوع الغناء والكلام هو ما شدني للقراءة. صوت الحوريات حاد ويصل لحد التدمير. سفن محطمة، جنون، موت بشع. تذكرت والدة «صوفي». صوتها على التليفون حين كلمتني، ثم صرخاتها الحادة ونحن نمارس الحب، كانت تشبه صوت الخدش على الزجاج. ما أعرفه هو أن نوعها قادرٌ على استدعاء جميع أنواع الكوارث. لو كنت تلقيت تحذيرًا من البداية، لسددت أذنيَّ مثل «أوديسيوس» لكيلا أسمع صوت إغوائها، أو لعزفت ألحانًا حزينة مثل «أورفيوس» لتلهيني عن صوتها. لكنني أعرف نفسي جيدًا.. أنا لا أصلح لهذه المقارنات، أنا لست رجلًا شجاعًا، وكنت مشتاقًا للحصول على صحبة. حتى لو تكرر الموقف نفسه غدًا، سأرد على التليفون وأستمع إليها، سأقود في طريق «كاسلراي» وأصعد إلى شقتها في الطابق الرابع، سأدمر نفسي بسعادة مقابل ساعة أخرى في سريرها.

لم يعد هذا مهمًّا. لقد غادرت منذ وقتٍ طويل، لم تترك لي حتى اسمها. لديَّ طفلة الآن. ولا فكرة لديَّ ماذا أفعل معها. قرأت مقال «ويكيبيديا» مرارًا وتكرارًا على أمل الاستفادة منه في وضع خطة، أو دليل إرشادات لآباء الحوريات. حفظت أسماء الحوريات عن ظهر قلب؛ «أجالوبي»، "لوكوسيا"، "ليجيا"، "باثينوبي"، "بيسينوي»، "ثيليكسوبي»، «مولبي». الأخيرة اسمها غريب ويوحي بأنها حمقاء، أو امرأة غير مثيرة، إلى أن تبدأ بالغناء بالطبع. من الجيد أنني سميت ابنتي «صوفي». فهذا اسمٌ عادي سيوحي أنها طبيعية في كل مرة ينطقه أحد.

قرأت مقولة لـ»كافكا» في مقال قصير بعنوان «صمت الحوريات" (The Silence of the Sirens): «للحوريات سلاح أكثر فتكًا من غنائهن، إنه صمتهن. أعترف أنه لم يسبق لحورية الصمت، مع ذلك من الممكن أن ينجو إنسان من غنائها، أما صمتها فلا نجاة منه».

لم أكن من معجبي «كافكا». أحبَّ والداي أعماله، وهذا كافٍ ليجعلني أشكك به، لكن هناك جزءًا من الصحة في كلامه. صمت «صوفي» جذابٌ كصوت أمها، لا أعرف كيف سيكون الحال في الشهور القادمة. لكن سواء تكلمت أو صمتت، أنا هالكٌ في كلا الحالتين. حتى الآن أفضل صمتها، لكن في أثناء هذا الصمت يراودني الخوف من كلامها.

ليس فقط الكلام هو ما يخيفني، فلديَّ مخاوف أخرى لكنها طبيعية؛ لقد مضى عام منذ آخر مرة قبضت مالًا، الآن ألجأ لمدخراتي لأدفع الرهن العقاري كل شهر. لا يمكنني أن أطلب من والديَّ مالًا. لن يتفهما ولو للحظة معاناة كوني أبًا مداومًا في المنزل لرعاية طفلته. سيعدونه شيئًا شائعًا؛ مثل أخذ إعانة من الحكومة، أو الذهاب في إجازة بتكلفة اقتصادية. كلما فكرت في طلب بعض المال من أمي، أشعر أنني أسمع صوت السماعة وهي تغلقها في وجهي. يمكنني إخبارهما أنني مصاب بالسرطان أو أي مرض مزمن ولا أستطيع العمل. ربما يرسلان لي مالًا لو ظنا أنني مريضٌ بحق، لكن والدتي ستجد طريقةً لإظهار إحباطها مني، وكأن كل ما يحدث غلطتي، حتى السرطان. لا أظنني سأتحمل هذه المحادثة، فأنا لست شجاعًا بما يكفي.

أفعل ما بوسعي ليكفي المال؛ أغسل الغسيل يدويًّا لكي أوفر الكهرباء، أتناول طعامًا أوشكت صلاحيته على الانتهاء لأنه أرخص. أشتري لـ»صوفي» حفاضات من محلات «باوند لاند» ذات السعر الموحد، جنيه إسترليني واحد لمعظم البضائع. عليها كتابة بالبولندية من الخلف، وتسرب أحيانًا. لكنها أرخص بثلاثة جنيهات من الماركات المشهورة. لحسن الحظ إن الجو حار، لذلك أوفر تكاليف التدفئة. إذا وفرت القروش، ستصبح جنيهات، لكن المشكلة هي أنني لا أملك حتى القروش.

عرضت دستتين من الكتب على الإنترنت لأبيعها. إنها كتب غالية، العديد منها يساوي أكثر من مائة جنيه. تذكرت الأيام الخوالي حين كانت المائة جنيه مبلغًا بسيطًا أنفقه على كتاب أو حذاء للعمل. ستسد الكتب ثمن الطعام، والكهرباء، وحليب الأطفال لمدة أربعة أسابيع أخرى. بعدها سأضطر للعودة إلى العمل. لا أريد ذلك، لست واثقًا من قدرتي، أشعر أنني نسيت الطب. أتساءل إن كان الطب يثبت بالممارسة ولا يمكن نسيانه مثل السباحة أم لا. لو لا، فقد أقتل شخصًا بالخطأ إن وصفت دواءً خاطئًا. أضفت هذا لقائمة مخاوفي.

في الثالث من يوليو، اشتريت تذكرة يانصيب من محل «تيسكو» الذي في آخر الشارع. ذهبت إلى السيارة وأمسكت التذكرة بحرص مثلما يمسك الطفل البسكويت، الذي يوزعونه في القداس. حسنًا، إن لم يكن مقدرًا لي العودة إلى العمل، فأتمنى أن تكون هذه التذكرة رابحة.

ابتسمت لـ»صوفي» في مرآة السيارة. إنها نائمة في كرسي الأطفال المخصص للسيارة. لقد اشتريته من على الإنترنت، أشتري كل أغراضها من على الإنترنت، وكلها عليها شريط وردي فاتح اللون، مثل آيس كريم التوت. أريدها أن تشعر بأنها أميرة صغيرة. لا فكرة لديَّ من أين جاءت هذه الرغبة. وضعت تذكرة اليانصيب في جيب قميصي وقدت السيارة إلى البيت. لاحقًا في المساء شاهدت سحب اليانصيب على التليفزيون، لكنني أطفأت الصوت بالطبع. لديَّ رقم واحد فقط صحيح. الرقم سبعة. لا أعرف إن كان هذا يساوي شيئًا، ولا أعرف إن كان عليَّ الاتصال بجهةٍ ما للتأكد. هذه هي أول وآخر مرة سأشترك في اليانصيب. بعد ذلك لصقت تذكرتي المنحوسة على باب الثلاجة، لتذكرني بأن عليَّ البحث عن وظيفة قبل أن يموت كلانا من الجوع.

ظللت أسبوعًا أفكر في الاختيارات المتاحة أمامي. قد أعمل ساعي بريد إنهم يبحثون عن سعاة بريد في شرق بلفاست، ليست وظيفة محبوبة كثيرًا في هذه الأنحاء؛ فبعض المناطق متقلبة لدرجة تتطلب من سعاة توصيل البريد ارتداء خوذات وسترات واقية. عندما يثور الفتية، يستهدفون أي شخص يرتدي زيًّا رسميًّا. لا تزعجني هذه الاحتمالات، سيكون تغييرًا لطيفًا إن قلقت من شيءٍ ما بخلاف «صوفي». شيء لا يرهق التفكير، مثل تفادي المفرقعات النارية، والزجاجات التي يقذفها الصبية. بالإضافة إلى أنني لو عملت في المناوبة المسائية سيسمحون لي باصطحاب «صوفي» معي. سأضعها في سلة الدراجة أو سأحملها على صدري في حمالة. يمكنني أيضًا أن أعمل في توصيل الأطعمة الصينية الجاهزة، وسأترك «صوفي» نائمة ومربوطة في

كرسي السيارة. إنها تنام عادةً في السيارة. أستطيع أيضًا العمل في التسويق عن بعد. هكذا لن أضطر لمغادرة البيت أصلًا.

كل هذه اختيارات معقولة وسهلة، لكنني خائفٌ من تجربة أي شيءٍ جديد؛ فالأمور الجديدة تطلب مقابلة أشخاصٍ لا أعرفهم، وأنا في حياتي بالفعل أشخاص أكثر مما يمكنني التحمل. قررت محاولة العودة لكوني طبيبًا، فهذه هي المهنة الوحيدة التي أصلح لها. حتى هذا يبدو لي مخاطرة.

تناولت كأسًا قبل الاتصال بالعمل. حاولت الاتصال بدون شرب الويسكي، لكن لم أستطع. اتصلت بالمركز الطبي وتحدثت مع موظفة الاستقبال، لم تتعرف على صوتي. طلبت منها التحدث إلى «مارتن». إنه أقدم طبيبٍ في المكان، لم أنادِه بـ»مارتن» من قبل، وبالتأكيد لن أناديه «مارتي»، لكنني متوترٌ جدًّا وهذا هو الاسم الذي جاء ببالي وقتها. رد «مارتن» أو «مارتي» أو دكتور «بيل» على التليفون. قلت له:

- أنا آسفٌ جدًّا. وقعت مأساة عائلية. تُوفي والداي في حادث سيارة، كنت متعلقًا بهما كثيرًا، لهذا انهرت تمامًا. كان عليَّ الاتصال من قبل، لكنني لم أكن في حالةٍ تسمح لي بالتفكير.

أتساءل إن كان دكتور «بيل» يعرف مَن المتحدث أَصلًا، فأنا نسيت إعطاءه اسمي. هذا يتكرر معي أحيانًا عندما أتحدث على التليفون.

ظل دكتور «بيل» يرد بتعاطف، استخدم معي النبرة الدافئة التي يستخدمها كل الأطباء مع المرضى النفسيين. أشعر أنه سينصحني بالذهاب لطبيبٍ نفسي أو سيصف لي دواءً مضادًا للاكتئاب. لا أريد الاعتماد على مضادات الاكتئاب، لقد وصفت منها في الماضي للمرضى المكتئبين، لأنها أسرع وسيلة للتخلص منهم دون سماع تفاصيل حياتهم التعيسة. لا أظنها فعالة؛ فالمرضى يواصلون القدوم حتى بعد تناولهم لمضادات الاكتئاب فترةً طويلةً جدًّا. لا أريد التحدث مع طبيبٍ نفسي؛ فوالداي لم يتوفيا حقًّا، ولا أستطيع إخبار أحد عن «صوفي»، لهذا كل جلسة ستكون مليئة بالأكاذيب. مجرد التفكير في هذا يوترني. لن أستطيع احتمال أي شيءٍ الآن. قررت إيقاف دكتور «بيل» قبل أن ينصحني بطبيبٍ نفسي أو بمضادات اكتئاب. من المهم أن يقتنع بأنني بخير، وأستطيع العودة إلى العمل. حياتي تعتمد على هذا.

قطعت اعتذاري وقلت مباشرةً:

- اسمع، لا أعرف إن كنت قد أخبرتك من قبل أم لا، لكن لديَّ طفلة، أحتاج وظيفتي لكي أستعيد دخلي وأستطيع رعايتها جيدًا. لقد مررت بوقتٍ عصيب

في الشهور الماضية، لكنني أفضل حالًا الآن. كما أنني طبيبٌ بارع، أستطيع العودة للعمل. هل يمكنني استعادة وظيفتي؟

تفاجأت من قوة صوتي، وكأن كلامي عبارة عن لكمات متلاحقة. هذه على الأرجح أكثر مرة تحدثت فيها بأسلوبٍ مباشر وصريح، لست واثقًا في قدرتي على الاستمرار هكذا لبضع دقائق أخرى.

رد دكتور «بيل»:

- بصراحة، وظيفتك لم تعد موجودة أصلًا يا دكتور "موراي". لقد انتظرناك ثلاثة أشهر، وعندما لم تجب اتصالاتنا، اضطررنا لإحضار بديلٍ لك. إنها "سوزان".. عذرًا، أعني دكتورة "ماكتير". لا يمكنني طردها لمجرد أنك قررت العودة فجأة.

- لم أقرر العودة فجأة، كنت مريضًا وتحسنت الآن.

- قد يكون الحال هكذا يا بني، لكن لم نستطع إبقاء وظيفتك شاغرة للأبد. يجب أن نراعي مرضانا.

- ألا يوجد ما يمكنني فعله؟ ربما أعمل كطبيب بديل أو بدوام جزئي؟ أي شيء؟

- أنت محظوظ لاتصالك اليوم يا دكتور "موراي". فـ"سارة".. أعني دكتورة "ماكون" حامل مجددًا. إنها على وشك أخذ إجازة أمومة. وكنت أقوم للتو بإجراءات توظيف طبيبٍ بديل.

- أستطيع فعل ذلك.

- أعرف أنك تستطيع يا دكتور «موراي»، لكن عليَّ التأكد من أنك لن تهرب مجددًا. أنا متعاطفٌ معك. لقد توفيت والدتي في العام الماضي، وانهرت لستة أشهر، لكن لا يمكنك الاختفاء هكذا كلما وقع شيءٌ مؤسف.

- لن يتكرر مجددًا. لم يعد لديَّ والدان لأفقدهما.

وهكذا عدت لعملي، توقفت عن تناول الأطعمة التي شارفت صلاحيتها على الانتهاء. أشك في أنها تسبب لي تلبكًا معويًّا. اختفى الخوف من قلة المال، وحل محله خوفٌ أكبر. ماذا سأفعل مع "صوفي"؟ لا أستطيع تركها وحدها، ولا يمكنني تركها مع أحد أيضًا. سوف تبدأ في إصدار الأصوات في أي يومٍ الآن. لا يمكنني أن أشرح مدى خطورة ذلك على الغرباء. لا يكفي أن أقول: «لا تستمع إلى أي شيءٍ تقوله ابنتي، لأنها قادرة على قتل الناس بصوتها. إنها صفة جينية». لن تصدق أي مربية هذا الكلام.

أفكر جديًّا في ترك «صوفي» وحدها بالنهار. ربما أضعها في دولاب، أو في غرفة مقفلة حيث ستكون بأمان. أستطيع العودة إلى البيت وقت الغداء لأبدل ثيابي وإطعامها. يمكنني تركيب جهاز مراقبة للطفل متصل بتطبيق على الموبايل. إنه حلٌ عملي. أحاول إقناع نفسي أن العزلة قد تفيدها، بل وتعالجها. قرأت مقالات على الإنترنت عن أطفال حُبسوا في الدولاب، أو تربوا على يد الذئاب. عدم تعرضهم للكلام في صغرهم يجعلهم يتحدثون متأخرًا جدًّا. وأحيانًا لا يتحدثون أصلًا، أو يخترعون لغة خاصة بهم، تخرج أصواتها من الحلق وتشبه العبرية القديمة قليلًا. يقول الباحثون إنها قد تكون لغة ربانية.. لغة "آدم" الأولى. الباحثون مذهولون بالأصوات التي يصدرها هؤلاء الأطفال المحبوسون. إنهم يدينون الأشخاص الذين يحبسون أطفالهم في دواليب، لكن من السهل ملاحظة أنهم ممتنون لأن شخصًا ما قام بهذه التجارب بدلًا عنهم.

بدأت أقول لنفسي أنني سأترك «صوفي» في غرفتها عندما أذهب للعمل، لن تكون هذه مشكلة طالما ما زالت طفلة. إنه فعل مقبول في بعض الدول النامية. قد يكون نوعًا من العلاج. لا أصدق هذا، أتخيل الشرطة وهي تقتحم البيت لتجد «صوفي» وهي تعوي والفضلات تحيط بها من كل جانب، أو أسوأ، أن تكون مخنوقة. في النهاية اعترفت أن هذه الفكرة لن تنجح. بدأت أدوِّن الأفكار في مفكرة، وأشطب واحدة تلو الأخرى بقلمٍ جاف. أفكر أفضل حين أرتب أفكاري في قائمة:

يجب أن أعمل لأكسب المال.

لا يمكن ترك «صوفي» وحدها في البيت من أجل سلامتها.

لا يمكن ترك «صوفي» مع أشخاص آخرين لسلامتهم.

قلبت هذه النقاط من كل الجوانب وكأنها مسألة جبر. شربت الكثير من الويسكي بينما أفكر، لا يمكن ترك «صوفي» مع شخصٍ يستطيع سماعها، هذا تقدم. لديَّ خيارات الآن. أستطيع توظيف مربية بشرط أن ترتدي سماعات طوال الوقت، لكن سيكون من الصعب توضيح السبب لها. يمكنني تغطية وجه وفم «صوفي» بالضمادات بحجة أن لديها مرضًا جلديًّا، لكن هذا سيمنعها من إطعامها. ربما أوظف مربية صماء. كتبت هذه الفكرة لأعاينها جيدًا؛ «توظيف مربية صماء». هذا ما قررته. أنا عبقري.

بالطبع ليس سهلًا إيجاد مربية محترفة لا تسمع شيئًا. يجب أن أتصرف بذكاء؛ الناس يرتابون بسهولة حين يتعلق الأمر بالأطفال. لا أريد أن أتورط مع الخدمة الاجتماعية. أفكر في الاتصال ببعض مكاتب التوظيف القريبة، والسؤال عن مربية صماء. سيتطلب هذا مجهودًا بسيطًا مني، لكنني أعرف

أن الموظف سيسألني عن سبب اختياري لشخصٍ أصم، عندها لن أستطيع إجابته. سأبدو شخصًا غريبًا. يجب أن أجد سببًا مقنعًا، هذا أشبه بلغز. لديَّ المشكلة والحل، ولا أعرف كيف أربطهما معًا.

أنا في محل «تيسكو» في مركز «كونزووتر» التجاري، أشتري بعض الحفاضات جيدة الصنع. وفجأة جاءني الحل؛ كان أمامي في الطابور امرأة تحمل ابنها. إنه بعمر السنتين ويحاول جاهدًا فتح موزة. رفع الموزة أمام وجه والدته وظل يحركها بقوة ليلفت انتباهها، لكنها كانت مشغولة بأكياس المشتريات وكوبونات الخصم. حرك الطفل الموزة بعنف. وعندما واصلت أمه تجاهله رمى الموزة على الأرض وبدأ يصرخ. توقفت المرأة عن العبث بحقيبتها، واستدارت لتنظر إلى الطفل بتأنيب. ظننتها ستوبخه بحدة أو ستضربه على رجله. لكنها لم تفعل، بل وضعت الطفل أمامها وانحنت إليه ثم أخذت تحرك يديها بإشارات بسيطة أمام وجهه، رد الطفل بإشارات عنيفة تعبر عن غضبه. يبدو الأمر وكأنهما يرقصان بأيديهما. الولد أصم، وربما والدته صماء أيضًا.

أتاني الحل بينما أقف في طابور الدفع حاملًا حقيبة حفاضات لحديثي الولادة، وبيتزا باردة، وأشاهد الناس. سأقول لموظفي مكتب التوظيف أنني أريد مربية صماء لأن ابنتي صماء، وأريدها أن تتعلم لغة الإشارات. تفاجأت بعبقريتي مجددًا. ذهبت إلى رفوف الكحول واشتريت لنفسي زجاجة «ميرلوت». الليلة سأحتفل.

بعد أقل من أسبوع، وجدت «كريستين» عن طريق وكالة لرعاية الأطفال. «كريستين» من «نيوتاوناردز»، وهي لا تمانع القيادة إلى المدينة كل صباح لرعاية «صوفي» في البيت. تأكدت من أنها صماء تمامًا. لقد وِلِدت هكذا، وتعلمت لغة الإشارة منذ كانت طفلة صغيرة جدًّا. إنها في الخامسة والعشرين لكنها تلبس كالمراهقات، تيشيرت وبنطالًا ضيقًا يشبه الچينز. لديها عينان بنيتان وبريئتان، وابتسامة واسعة جدًّا. تحمل «صوفي» بذراعها، ثم تثني رجلها وتسندها عليها إذا تحركت لكيلا تقع. تبدو طبيعية جدًّا وهي تحملها. أما أنا فلا أبدو طبيعيًّا أبدًا مع «صوفي». لقد رأيت نفسي في المرآة وأنا أحملها. أبدو وكأنني سأوقعها في أي لحظة. رؤية «كريستين» مع ابنتي يثير غيرتي، لكنه أيضًا يريحني.

في أثناء استعدادي ليوم «كريستين» الأول، تعلمت إشارة «مرحبًا» و»شكرًا». أظن أن إشارة «مع السلامة» ستكون مجرد تلويحة عادية. بخلاف هذا، سنتواصل عن طريق الورقة والقلم. أترك لها التعليمات على رخامة المطبخ؛ مواعيد الأكل، والنوم، وتغيير الملابس والحفاضات، وأرقام الطوارئ. وفي نهاية الصفحة، أكتب بخطٍ عريض أهم ملحوظة على الإطلاق: «لا

تخرجي «صوفي» من المنزل». لم أعطِ «كريستين» سببًا لهذا، لكنني أدفع لها أزيد مما اقترحت الوكالة. أتمنى أن يجعلها هذا لا تطرح أسئلة، هذا ما يحدث في أفلام العصابات. أخبرت الوكالة أن زوجتي توفيت في أثناء الولادة. على الرغم من أن هذا يبدو سببًا قديمًا للوفاة. أضفت أيضًا أنها كانت تعاني من مشكلات في القلب لأجعل الأمر قابلًا للتصديق.

قلت لهم: «أنا أرمل».. أعجبني وقع الكلمة. «عليَّ العودة إلى العمل لأعيل ابنتي. يهمني أن ترعاها المربية جيدًا، خاصةً مع مشكلتها الصحية»، قصدت هنا التأكيد على مشكلة السمع لدى «صوفي»؛ بهذا أبني حجة منطقية لكلينا. أردت إخبار الوكالة أن تبلغ «كريستين» ألا تتوقع أي رومانسية بيننا، فهذا ليس فيلمًا. لن أحصل على راحتي من مربية. أريد علاقة مهنية فقط، لكن في اللحظة الأخيرة، قررت ألا أقول شيئًا حتى لا أبدو غريبًا. لن أحتمل خسارة المربية.

في صباح أول يوم من عودتي للعمل، قبلت «صوفي» مودعًا. ما زالت نائمة وشعرها ملتصقًا بجانب وجهها من العرق. تركت بسكويتًا لذيذًا لـ»كريستين» في الدولاب، وذكرتها بأن تكتب لي رسالة إذا حدث شيء؛ فالمكالمات لن تنفع في حالتها. ابتسمت بخبرة لأنها اعتادت على الآباء القلقين. أشرت لها وداعًا على الباب، ثم ركبت سيارتي وقدت عبر «أورانج فيلد» ثم إلى طريق «نيوتاوناردز». عندما وصلت إلى إشارة المرور عند «هوليوود أركس»، وجدت محل سجاد ما زال مشتعلًا منذ مساء أمس. تفوح في الجو رائحة دخان تشبه رائحة نار مخيم ممزوجة برائحة الندى. مررت بخمس مواقد احتفالات قبل أن أصل إلى المركز الطبي. بالكاد لاحظتها، فعقلي مشغول بأمورٍ أخرى.

مكاني المعتاد في الجراج ذهب للدكتورة «ماكتير»، لذلك ركنت السيارة مكان دكتورة «ماكون» القديم. رفعت موظفات الاستقبال رؤوسهن وابتسمن لي. «مرحبًا بعودتك يا دكتور موراي»، سررت برؤية اسمي ما زال على لوحة الاستعلامات، أو ربما أضافوه مجددًا استعدادًا لعودتي. سحبت نفسًا عميقًا وفتحت باب مكتبي القديم، استقبلتني الرائحة قبل دخولي؛ رائحة يود، وقهوة، وملمع أثاث، وبول قديم. لم يتغير شيء، لكن أصيص نباتي في الجانب الأخير.

فكرت في «صوفي» النائمة في البيت. مرت خمس عشرة دقيقة منذ رأيتها. إنها أطول مدة تركتها فيها، مع ذلك أنا هادئ أكثر مما كنت أتوقع. أحضرت لي موظفة الاستقبال قهوة في كوبي المفضل المرسوم عليه شخصية القط «جارفيلد». لقد صَنَعَتْها كما أحبها تمامًا، مع أنني لم أطلب منها قهوة أصلًا. كل شيء سيكون على ما يرام. اتصلت بمكتب الاستقبال وأخبرتهم أنني مستعد لاستقبال المرضى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

يوليو
"سامي"

أنت مثل أبيك، كما كنت أنا مثل أبي، وكما كان هو مثل أبيه بالتأكيد. ذات مرة، بعدما عاد والده من الحرب، ضرب رجلًا بقالب طوب حتى الموت، لأنه تحدث بالسوء عن الملكة. لقد رأيته في الصور التي في بيت جدتك. إنه ذلك الشخص ذو اللحية والزي العسكري.

عائلتنا كلها تملك الوجه نفسه؛ الوجه الذي يوصف بالمخيف، بمعنى نحن من النوع الذي لا ترغب في مقابلته في شارعٍ مظلم. ليس فقط أنا وجدك، بل أعمامك أيضًا كذلك. "ماتي" في السجن، و"جيم" خرج هذا الشهر، أما الاثنان الآخران فيقضيان مدتهما؛ لا يمكنهم كبح غضبهم، يبحثون دائمًا عن شيءٍ يخربونه. حتى «كاتلين» لديها فمٌ كالمطرقة؛ ذات مرة، كسرت إصبع امرأة لأنها أخذت آخر عربة "ترولي" في سوبر ماركت «تيسكو». في شبابها، مارست الملاكمة، ولم يكن هذا معتادًا للفتيات وقتها.

الغضب يسير في دمائنا جميعًا. وكأن لدينا نوعين من الدم في عروقنا؛ أحدهما أحمر والآخر أسود. يعود تاريخ العنف إلى أول رجل رفع يده بغضب وضرب. إنه «قابيل»، أليس كذلك؟ هل درسته في قداس الأحد في الكنيسة؟ بالإضافة إلى «نوح» و»عيسى» و»يوسف»؟ فهمت لماذا قتل «قابيل» «هابيل». المنافسة سبب العنف، شخص مثل «قابيل" كانت ستناسبه الحياة في شرق بلفاست.

أنت لست ابني وحدي بالطبع، صحيح؟ فدماء والدتك تسير في عروقك أيضًا. إنها من الريف. أهل الريف يقطفون عشاءهم من الحقل مباشرةً، ويتصفون بالتدين. إنهم أقوياء مثلنا، لكنهم يستخدمون قوتهم في رفع وحمل الأشياء، وليس لضرب الناس مثلنا. لقد ورثت منها شعرها ولونه الذي يقلب أشقر في الشمس. أنت حاد الذكاء، لكن لم ترث هذا منا. أنت لا تهتم بشيء؛ تبدو كمن يقف من بعيد ويراقب. عقلك حاد، ولسانك أيضًا. تستطيع إيذاء الناس دون استخدام قبضتيك.

عندما كنت في مثل عمرك، كنت أضرب أي رجل يمر بي؛ هذا مُخبر للشرطة، وذاك كاثوليكي، والآخر ثرثار سكران. كنت أضرب الجميع، تتناثر الدماء كلما وجهت قبضتي. أنت تفهم قصدي يا بني، تفهم الغضب الثائر الذي لا يهدأ ولا يمكنك كبحه. ما كنت أرتاح أبدًا إلا عندما تغرق الأرض بالدماء أو تتكسر العظام كالعصي. كنت أمسك سكينًا حادًّا بيد وقالب طوب باليد الأخرى. كنت أحب أن أترك خلفي علامات؛ تركت علامات طوال طريق

«كاسلراي» و»نيوتاوناردز». يمكنك أن تعرف بسهولة أنني كنت هناك بمجرد النظر، وكأن أجزاءً مني كانت تتسرب على الطريق.

لاحقًا، لم تعد تكفيني قبضتاي؛ استخدمت أسلحة. كان من السهل الحصول على سلاح في تلك الأيام، بمجرد أن تمتلك واحدًا ستنجذب لامتلاك المزيد. على الأرجح أخبرتك أمك عن الأسلحة، وكيف أنها تترك أثرًا فينا كلما استخدمناها. أمك امرأة، والنساء لا يفهمن الأسلحة، يكرهن كل أنواع الضوضاء. بالتأكيد ادعت أن الأسلحة هي سبب هلاكنا وزوال أيامنا السعيدة. على الأرجح بكت وهي تحكي لك هذا، أمسكت بيديك وطلبت منك ألا تلمس سلاحًا أبدًا. استمع لوالدتك، أطعها. بعد استخدام الأسلحة، يتغيَّر الإنسان للأبد.

هناك جانبان للأمر؛ لن تخبرك والدتك أن السلاح يشبه مرساة تستقر بثقلٍ في يدك، فهي لم تعرف أبدًا كيف يهدأ البال ويرتاح بمجرد أن تضغط على الزناد. في تلك اللحظة، تصبح حاكمًا على الأرواح، ولاحقًا ترغب في استعادة ذلك الشعور. في تلك اللحظة، تشعر بأنك إله كامل ورجلٌ كامل في الوقت نفسه، كما يقول الإنجيل. يمكنك أن تحصل على الإحساس نفسه بإطلاق مدفعٍ رشاش، ولا داعي لأن تُصْلَب. لا شيء يساوي قداسة هذا الشعور. لا تفهم والدتك أن لا علاقة لهذا بالسياسة، أو الإعلام، أو الحرية، أو الدين، أو الدولة. إنها مجرد شعارات اختبأت خلفها. فعلت «هذا» مرارًا وتكرارًا بقبضتيَّ وبالأسلحة وأحيانًا بالقنابل. فعلت «هذا» ليندفع الدم في عروقي فأحس بالحياة. صدقني يا بني، ستشعر أنك أعظم عندما تقف فوق شخصٍ آخر.

لكنك أنهيت كل ذلك، صدمتني كجدارٍ صلب. ما كنت لأتوقف عن أفعالي لأجل والدتك، أو والدتي، أو حتى لأجل نداء الوطن. لكن أول مرة حملتك بين ذراعيَّ، شعرت بثقلٍ لم أشعر به من أي سلاحٍ حملته. لقد أخفتني بوجهك الصغير، وبأصابعك التي تمسكت بأصابعي. لم أشعر بهذا الخوف منذ شهور، لم أشعر بصوتٍ أعلى من صوتك. قلت لوالدتك: «سأتوقف، أشعر حقًّا بأنني إلهٌ كامل ورجلٌ كامل، الآن وهنا في غرفة الجلوس». قلت هذا أو ما يشبهه.

عندها ردت عليَّ: "لا أصدقك يا سامي". لم تصدق أن كل شيء قد يتغيَّر تمامًا. فهي أشبه بسفينة أبحرت في اتجاهٍ واحد فترةً طويلة، ولم يعد يمكنها الاستدارة فجأة بدون أن تنقلب.

سارت حياتنا إلى الأمام منذ لحظة ولادتك. حصلت على وظيفة، وبيت، وملابس جميلة من «ماركس أند سبنسر»، وسافرنا في إجازات لأماكن دافئة. لم أستطع ترك المنطقة الشرقية تمامًا، فانتقلت بعيدًا عن النهر مرورًا بالطريق الدائري، وذهبنا لأطراف الشرق حتى كدنا نخرج من المنطقة تمامًا. ألحقتك بمدرسة جيدة، وأنجبت لك أخًا وأختًا لأعاقبك. أجبرتك على لعب

الكمان. وعندما لم ينفع، أعطيتك بوقًا. كان من المهم أن تحمل آلة موسيقية وشهادة جامعية. هذا سيفيدك عندما تقف بين الناس ويسألونك عن نشأتك، أردتك أن تنشأ هنا وتكون مختلفًا عني.

أنا تغيرت. مضى عشرون عامًا منذ رفعت قبضتيَّ وضربت أحدًا، لكنني لا أشعر بأنني أصبحت رجلًا مختلفًا، بل رجلًا غريبًا؛ أحمل ذاتي الحقيقية بداخلي مثل المرأة الحامل أو دمى الـ»ماتريوشكا» الروسية، التي تتكون من دمية تضع بداخلها دمى أصغر منها بشكلها نفسه. عندما أغلق عينيَّ، أرى تفاصيل الماضي في أثناء نومي. أرى كل شارع سلكته وكل علامة تركتها على الناس وفي الشوارع. سيتذكرونني حتى الآن؛ لا أحد ينسى هذا النوع من الغضب الهائج، لكنني لم أعد إلى هذا الطريق أبدًا. لا آخذك أنت وإخوتك إلى تلك الشوارع. لا أحكي لكم على الماضي.

أردتكم أن تروا الحياة وردية يا بني، أردت أن تتحسن حياتنا.

لكن تلك «النيران العالية» وكل الفوضى التي تسببها أنت لا تسمحان بذلك. المدينة تحترق وأنت في مركز الحدث تتفوه بالهراء نفسه، الذي قلته في شبابي. الأعلام ومواقد الاحتفالات، الحريات المدنية، وحرية الحديث. لا فائدة من إنكاري لتورطك في الأمر. هل تظن أن لا أب سيتعرف على يد ابنه وهي مرفوعة بغضب؟ هل تظن أن يدك ملوثة بالدماء أكثر مني؟ أشك في هذا يا بني. ألا تعرف من أين جاء الشر الذي بداخلك؟

وددت لو أقول إنني فخورٌ بك، كدت أفخر بك مرة عندما وقفت أول مرة مثل الأولاد الطبيعيين، وعندما لعبت الكرة، وركبت الدراجة، وسرقت مشروبي سرًّا. لكنني لست فخورًا بك الآن، لا يوجد شيء لأتفاخر به فيما تفعل. أنت تتراجع إلى الخلف.

وددت لو أقول إنني أحبك. الرغبة في حب أحد مختلفة عن حبهم حقًا، لكنها بداية جيدة أحيانًا. اسأل والدتك عن هذا. قل لها إنك تسأل بالنيابة عن صديقٍ لك.

أنا خائفٌ منك الآن يا بني، وخائف من الرجل العنيف النائم بداخلي، كما أنني خائفٌ من يدي التي تتكور كالقبضة كلما وقفت شاردًا. أنت مثل أبيك. أعرف ذلك من قبضتيك، أنا خائفٌ عليك لأنك تفسد نفسك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

7

النيران العالية

عُدت لعملي في بداية يوليو، استقبلت مرضاي وعدت إلى البيت. هذا هو كل ما أستطيع فعله، بالإضافة إلى تناول بعض الويسكي قبل النوم. كل عالمي يدور حول «صوفي» الآن، وأنا مصرٌّ على رعايتها وعدم إفسادها.

في أول يومٍ لي في المركز الطبي، كان مريضي الأول طفلًا بعمر العامين حشر حبة زبيب في أنفه. قلت لوالدته: - قد يكون حشر أكثر من واحدة.

- لقد انشغلت في تخزين الطعام أطول مما ظننت فلم أنتبه إليه. آسفة يا دكتور «موراي».

نسيت كم يحب المرضى الاعتذار، وكأنهم مسؤولون عن إصابتهم بقمل أو سرطان الدم، وكأنهم كان يمكنهم ببعض الحذر تجنب التهاب المفاصل وتوفير الموارد الطبية. عندما يعتذر المريض، أبتسم وأقول: «سأصبح عاطلًا عن العمل لو لم يمرض أحد». تعلمت هذا من «مارتي» الذي يجيد التعامل مع الناس. قلت ذلك للأم ثم أدخلت الملقاط لإخراج الزبيب من أنف الطفل. ظل الطفل يعوي طوال العملية، لكنني حافظت على ابتسامتي. يسعدني أن يكون أول مرضاي بهذه السهولة. مضت شهور منذ شعرت بكفاءتي، ارتديت سماعتي الطبية وضبطت الكرسي ليناسب جلستي، ثم حركت الأدوات المكتبية لأترك مساحة خالية أضع عليها كوب «جارفيلد» المفضل لديَّ. حياتي المهنية تعود إليَّ بسلاسة لم أتوقعها، وكأنها جزءٌ مني.

بمجرد انتهائي، وضعت ملصق مكتوب عليه «أحسنت» على ملابس الولد، فتوقف عن البكاء فورًا. أحتفظ بمجموعة في الدرج العلوي من مكتبي. إنها سلاحي الوحيد مع الأطفال. أستطيع تولي أمر الأمهات، لكن الأطفال يرعبونني. فهم مثل القط، لا يمكن توقع تصرفاتهم.

ما بين تناولي القهوة في الصباح واستراحة الغداء، فحصت حالة صدفية، وحالتيَّ احتقان في الحلق، وحالة سعال شديد، وثلاث حالات مضيعة للوقت كان يمكنهم البقاء في البيت وتناول دواء «بينيلين» للأنفلونزا، قابلت أيضًا حالة ذبحة صدرية، وحالة ربو. بالإضافة إلى سيد عجوز اسمه «روني» لا يتذكر حتى في أي سنةٍ نحن، لكنه مصرٌّ على إخباري بتفاصيل مباراة كأس العالم التي أذيعت بالأمس. أرسلت "روني" إلى العيادة الخاصة بمشاكل الذاكرة، وعلى الأرجح سيتم تشخيص مرضه بألزهايمر. صافحته بقوة وهو

يغادر، أعلم كيف ستمر عليه السنوات القليلة القادمة. أردت توديعه بشكلٍ لائق، وكأنه جندي ذاهبٌ إلى الحرب.

في استراحة الغداء، أرسلت لـ»كريستين» رسالة: «كيف الحال؟»، ردت عليَّ: "الوضع مستقر على الجبهة". يا لها من جملة غريبة بالنسبة لمربية صماء، مع ذلك شعرت بالراحة. فكرت في الذهاب إلى مطعم الشطائر السريعة القريب لأشتري شطيرة لحم بالخضار. بعد ثوانٍ، أرسلت إليَّ «كريستين» صورة لـ»صوفي» وهي نائمة بهدوء في سريرها الأحمر. احتفظت في عقلي باللحظة التي رأيت فيها صورة ابنتي نائمة. في هذه الثانية بالضبط، أدركت أن الأمور ستتحسن.

أكلت الشطيرة في غرفة الموظفين، عادةً آكل وحدي في مكتبي، لكن اليوم رغبت في تغيير الروتين. لاحظت موظفات الاستقبال هذا التغيير فورًا. يبدأن في الثرثرة فورًا بمجرد دخولي الغرفة. الطبيبة الجديدة عدَّت هذا التصرف طبيعيًا، لأنها لا تعرفني. لم يخبرها أحد عني. قدمت نفسي باسم «جوناثان» بدلًا من دكتور «موراي». لم تندهش أبدًا، بل مدت يدها لي وقالت: - أنا "سوزان". تسرني مقابلتك، يؤسفني ما حدث لوالديك.

تقبلت تعازيها. اجتمعت موظفات الاستقبال حول كرسيَّ ورددن التعازي. إنهن مثل الدجاج حين يتم حبسه في مساحةٍ ضيقة.

قالت موظفة استقبال ذات شعرٍ يبدو ثابتًا بشكلٍ غريب: - سمعنا أن لديك طفلًا لم نعرف بشأنه من قبل.

إنها محاولة حمقاء لتغيير الموضوع من أشخاص متوفين إلى شيءٍ آخر أكثر قبولًا. انقضت الباقيات على الفرصة، وأخذن يسألنني عن التفاصيل.

- أنت شخصٌ غامض يا دكتور "موراي". لم نعرف أبدًا أنك أب.

- هل الطفل فتى أم فتاة؟

- ما اسمها؟

- هل لديك صورتها؟

قلت:

- "صوفي"، اسمها "صوفي".

أومأن جميعًا برضا عن الاسم.

سألتني واحدة بذقنٍ كبير وهي تصفق بيديها أمام صدرها بحماس مثل كلب البحر: - هل معك صور؟

- ليس معي صور يا سيدات.

ثم تذكرت الصورة التي أرسلتها «كريستين» للتو، فأخرجت تليفوني ومررته بينهن. يبدو لي أن عدد موظفات الاستقبال قد زاد منذ غادرت، وكأنهن ينسخن أنفسهن عند آلة الطباعة دون أن يلاحظ باقي الأطباء. قلت: - المربية التقطت هذه لها هذا الصباح.

- هل عادت والدتها إلى العمل بالفعل؟

يبدو أن موظفات الاستقبال لا يتمتعن بالتهذيب.

- لقد تُوفيت.

سألت موظفة الاستقبال التي فتحت الموضوع منذ البداية: - في حادث السيارة نفسه مع والديك؟

لوهلةٍ ارتبكت ولم أفهم عمَّ تتحدث، ثم تذكرت وأدركت أنه عليَّ قول كذبة أخرى.

- لا، بل ماتت في أثناء الولادة.

ثم أضفت أنها كانت مصابة بمرضٍ قلبي، لكي أجعل كذبتي قابلة للتصديق.

قالت موظفة الاستقبال الأولى:

- يا لك من مسكين يا دكتور "موراي". لقد عانيت الكثير في العام الماضي، لا عجب أنك انهرت تمامًا.

عندها بدأن جميعًا يربتن عليَّ وكأنني كلبٌ حزين، «جولدن ريتريفر» مثلًا. استمتعت بهذا كثيرًا. تقبلت اهتمامهن ولطفهن. مضت شهور منذ أن لمستني امرأة، أشعر بهن بينما يملن نحوي بصدورهن ويغرقنني بعطفهن. سيترك هذا الإحساس أثرًا بداخلي. عندما غادرن إلى وظائفهن بجانب التليفون أو دولاب الملفات، تركن رائحة عطورهن ومستحضراتهن على ملابسي. من آنٍ لآخر بين مواعيد المرضى، كنت أرفع كمي وأشمه. لم أشم رائحة مثلها من قَبل.

عدت إلى البيت بحلول السادسة تقريبًا، وقفت على المشاية المكتوب عليها «مرحبًا»، ورأيت انعكاسي على زجاج الباب ينظر إليَّ. بالكاد عرفت نفسي. هذا اليوم الجميل ترك أثره فيَّ وجعلني أقوى. أدرت المفتاح في الباب ودخلت الشقة.

- لقد عدت.

مضت سنوات منذ عدت إلى البيت وفيه مَن ينتظرني، بخلاف والدة «صوفي»، وقبلها كانت الخادمة التي تنظف.

وجدت «كريستين» تقرأ في المطبخ، لم تسمعني أقترب. سرت بخطى عنيفة لكنها لم تستدر لتنظر حتى. ارتحت لأن هذا يعني أنها صماء حقًّا ولم تكن تمثل. وضعت يدي على كتفها ففزعت قليلًا، وسقط الكتاب من يدها على الأرض وكأنه طائر تعرض لطلقٍ ناري ووقع من السماء. ليتني أعرف كلمة «آسف» بلغة الإشارة. سأبحث عنها لاحقًا، فعلى الأرجح ستفيدني. حركت يدي اليمنى بإشارة «تمام»، فأومأت لي وابتسمت بفمها الكبير. أخذتُ مفكرة وأقلامًا ووضعتها أمامها ثم أشرت لها بالجلوس. بدأنا محادثة.

كتبت لها:

"كيف الحال اليوم؟"

كتبت لي:

"جيد جدًّا».

إنها تكتب بسرعة جدًّا. على الأغلب لأنها صماء؛ عندما يفقد الشخص إحدى حواسه، تشتد باقي الحواس لتعوضه.

كتبت لها:

"كيف قضيتما يومكما؟"

"في النوم. أعني "صوفي" مَن نامت بالطبع، وليس أنا».

ثم رسمت وجهًا مبتسمًا وضحك كلانا بدون صوت، من العجيب أنني تأقلمت سريعًا مع صمتها.

كتبت لها:

"lol"

رأيت هذه الكلمة على الإنترنت. إنها اختصار «laughing out loud"، وتعني «ضحكٌ بصوتٍ عالٍ"، لكننا لم نكن نضحك بصوتٍ عالٍ. «كريستين لا تستطيع أصلًا». لا أعرف لماذا كتبتُ ذلك. هل عليَّ الاعتذار؟ لكنني لا أعرف ما الإشارة التي تعني «آسف». هل تكون مثلًا إبهامين مقلوبين للأسفل؟ أم وجهًا حزينًا مثل الممثلين الصامتين؟ نظرت إلى «كريستين» لأرى إن كانت منزعجة أم لا. لم تبدُ منزعجة أبدًا، بل بدت مركزة جدًّا وهي تكتب عن يوم «صوفي».

“نامت صوفي ساعتين. عندما استيقظت، بدت مندهشة قليلًا ثم هدأت. بللت أربع حفاضات وأخرجت فضلات في واحدة. أطعمتها خمس مرات. شاهدنا كتبًا فيها صور وبعض الكرتون”

فُزعت وكأن أحدهم صفعني، لم أستطع منع نفسي. ارتجف جسدي من تلقاء نفسه. كتبت لها: “لا تليفزيون”

لاحظت أنني كتبتها بحروفٍ كبيرة وكأن الكلام يصرخ بدلًا عني في «كريستين». فأضفت بحروفٍ صغيرة كلمة «من فضلك».

بدت «كريستين» محتارة. كتبت:

“آسفة. لم أعرف، أعلم أن «صوفي» لا يمكنها السمع، لكنها ستستمتع برؤية الصور”

كررت لها:

“لا تليفزيون، من فضلك. إنها مسألة دينية”

في أي مدينة أخرى لبدا كلامي غريبًا. ففي المدن الأخرى، الدين ليس لعبة يضعون قواعدها بحرية، على عكس بلفاست. لقد تربت «كريستين» هنا أيضًا، لذلك تعرف أنه لا يجب عليها الخوض كثيرًا في المناقشة.

كتبت لي:

“عليَّ الذهاب. على الموعد نفسه غدًا»

أومأتُ لها ورفعتُ إبهامي بابتسامةٍ واسعة. أتمنى أن تكون قد فهمت ذلك على أنه «شكرًا لكِ، أنا ممتن كثيرًا لكِ. أرجوك، لا تتركينا أبدًا، لأنكِ أفضل ما حدث لنا منذ شهور». أعددت في عقلي قائمة بالكلمات التي عليَّ تعلمها بلغة الإشارة. يجب أن أتعلم اسمها لكي أقول لها «أهلًا كريستين» كل صباح. أستطيع أن أتعلم اسم «صوفي» أيضًا. وكلمة «أب». لا، لن أتعلم كلمة «أبي»، فهي تبدو جافة وخالية من العاطفة. سأتعلم كلمة «بابا» أفضل.

بعد مغادرة «كريستين»، وضعت بيتزا باردة في الفرن لتسخن، ثم أفرغت غسالة الأطباق وشاهدت بعض التليفزيون. أشعر الآن بأنني رجلٌ عادي، بل طبيعي. كل الآباء حول العالم يفعلون ما أفعله الآن بالضبط. هذه أكثر مرة شعرت فيها بأنني جزءٌ من فريق، الشعور يغمرني بشدة وكأنه شيءٌ مادي أستطيع لمسه.

حوالي الساعة التاسعة، بدأت «صوفي» تتحرك في نومها؛ سمعتها عبر جهاز مراقبة الطفل، أصدرت أصواتًا طفولية بسيطة بفمها تشبه الطقطقة

والمواء، أو كأن شيئين مبتلين يحتكان ببعضهما. وقفت عند باب غرفتها أستمع إلى أصواتها الغريبة، يمكنني الوقوف هنا للأبد أستمع إليها فقط. عندما أحمل «صوفي»، تكور نفسها في تجويف عنقي. إنه يكفيها تمامًا، وكأن فائدته الوحيدة هو احتواؤها.

كان يومًا حافلًا، لكنه سهل. لا أذكر آخر مرة شعرت فيها بهذا التفاؤل. نظرت إلى «صوفي» طويلًا، وإلى فمها. لست خائفًا منه في هذه اللحظة، في هذا الضوء الخفيف والستائر ما زالت مفتوحة، أكاد أكون واثقًا أن لون عينيها بني داكن بدرجة أشد مما كانت هذا الصباح. إنهما بلون التربة، ويشبهان عينيَّ أكثر وأكثر بالتدريج.

قلت لنفسي إنها ابنتي، يبدو لي سهلًا الليلة أن أتغاضى عن أذنيها وشعرها اللذين ورثتهما من أمها. هذا اليوم السعيد جعل العالم حُلوًا في نظري. وقفت الشمس أمام القمر بعناد وهي ترفض الغروب. حملت «صوفي» إلى النافذة ووقفنا هناك قليلًا بين جانبي الستارة.

أشرت إلى القمر الشاحب وقلت:

- انظري، هذا هو القمر يا "صوفي".

جملة بسيطة من خمس كلمات يقولها مئات الآباء لبناتهم بلغاتٍ مختلفة حول العالم. ربما أيضًا أشير إلى النجوم التي بدأت تلمع على تلال "كاسلراي"، أو أغني "Twinkle, Twinkle, Little Star"، (تلألئي تلألئي أيتها النجمة الصغيرة)، بينما أضم وأفتح كفي لأحاكي النجوم وهي تتلألأ. لكن بدلًا من ذلك، غطيت فمي بيدي بقوة، وكأنني أريد ابتلاع الكلمات التي خرجت للتو. انقلبت معدتي وشعرت بالتوتر فورًا. هذا ما كنت أشعر به في كل مرة تتكلم أمها. ألم، غثيان، رعشة عصبية. أعدت «صوفي» إلى سريرها وهدأت نفسي. لم يحدث ضرر، ربما لم تسمعني أصلًا.

على الرغم من هذه العثرة الصغيرة، اليوم هو أفضل يوم مر بي منذ وقتٍ طويل، أريد تخليد ذكراه بشكلٍ ما، أريد اصطحاب "صوفي" للخارج في مغامرة صغيرة وحدنا. ليس الأمر وكأننا لا نخرج أبدًا، لقد ذهبنا عشرات المرات إلى محل «تيسكو» الصغير في آخر الشارع. كما ذهبنا إلى سوبر ماركت «تيسكو» الكبير في «كونزووتر»، لكنني دائمًا أترك «صوفي» في السيارة. أما اليوم فأريد اصطحاب ابنتي معي، أريد أن يراني الناس مع «صوفي» وأريد أن أتباهى بها.

حاولت التفكير في مكانٍ هادئ وغير مزدحم، بالتأكيد ليس المقاهي، وكورنيش البحر سيكون مليئًا بالناس الذين يستمتعون بالتمشية تحت شمس

الغروب. تذكرت المراجيح في حديقة «فيكتوريا بارك». أستطيع أن أقود سيارتي إلى حافة الملعب، ثم أحمل «صوفي» وأحيطها بمعطفي وأسير بها بين الناس الذين يمشون كلابهم. لن يكون هناك أطفال في الملعب في هذا الوقت؛ فالمكان شبه مظلم. الخطة سهلة جدًّا، سنذهب إلى المراجيح، وسأُرِي «صوفي» البط والبجع عند البحيرة، ثم سألتقط بعض الصور بتليفوني لأرضي فضول موظفات الاستقبال عندما يسألن عليها مجددًا. لو التقطت الصور تحت عامود النور، قد تبدو أنها في النهار، عندها سنبدو أسرة عادية تتنزه بصورة طبيعية.

لكن لم تسر الأمسية على هذا النحو.

ثبَّت «صوفي» في كرسي السيارة وتوجهت إلى حديقة «فيكتوريا بارك». مررنا بأطفال في العاشرة والثانية عشرة مجتمعين خارج محل للوجبات الصينية السريعة، كانوا يركبون دراجاتهم بتوازن بينما يشاهدون رجال الإطفاء يحاولون السيطرة على حريقٍ في محل الجزارة المقابل. كانوا ينظرون إلى النيران بالانتباه نفسه الذي ينظُر به المراهقون لشاشات تليفوناتهم.

عندما وصلت الحديقة، ركنت في الجراج في أقرب مكان للملعب. بخلاف سيارتي الـ»رينو» القديمة، هناك ثلاث سيارات منتشرة في الجراج الذي يسع مائة سيارة. يبدو أن أصحابها من ممارسي الجري، لكنهم على الأرجح بدينون ويفضلون الركض في الظلام حتى لا يراهم أحد. بخلاف البط والبجع، لا يوجد غيرنا في الحديقة.. هذا يريحني. أخذت «صوفي» من السيارة وحملتها تحت سترتي، وزيادة في الأمان، سحبت السحَّاب لأحيطها تمامًا. سأبدو مثل امرأة حامل تحت الضوء الضعيف. سرت على حافة البحيرة، مررت بمساحة عشبية واسعة للعب وبالحمامات العامة، ثم بملعب الأطفال. رائحة فتات الخبز الجاف المختلط بفضلات البط غزت أنفي بينما أسير، الوضع أسوأ اليوم بسبب الحرارة. لقد بدأ ماء البحيرة يتبخر. هناك مسافة نصف متر من الطين بين الماء وبين العشب الجاف، وكأنها طبقة من الشوكولاتة محاصرة بين طبقات حلوى «التيراميسو».

اخترت أرجوحة وجلست عليها. ثبَّت «صوفي» على حجري جيدًا، ثم بدأت أهتز للأمام والخلف بلطف. لا أعرف إن كانت مستمتعة بذلك أم لا، من المستحيل معرفة هذا. بعد القليل من الأرجحة، بدأت أتساءل إلى متى عليَّ المواصلة. هذا إن كان ما أفعله صحيحًا أصلًا، ثم تساءلت ما الذي يمكن فعله في الملعب مع طفلة رضيعة.

بدأت أتساءل عن المنطق في إحضار «صوفي» إلى هنا. فجأة سمعت صوت خطوات تقترب من الملعب، توقفت عن الأرجحة وحبست أنفاسي، وانتظرت

ابتعاد الخطوات. لكنها لم تبتعد، بل توقفت عند بوابة الملعب. قذف أصحاب الخطوات شيئًا ثقيلًا لكن طريًّا عبر السور. هبط الشيء بصوتٍ مكتوم على أرضية الملعب المغطاة بطبقة مطاطية. انفتحت البوابة ودخل أصحاب الخطوات. خمنت أنهم يرتدون أحذية رياضية، لأن أصوات الخطوات مكتومة. هناك أكثر من شخص، حاولت تخمين العدد. إنهم خلفي، لذلك لا أعرف بالضبط، لكن هناك اثنين على الأقل، ثلاثة على الأكثر. إنهم يحاولون التسلل خفية. يدوسون على الأرض برفق ويشيرون لبعضهم بالصمت بينما يسيرون خلفي.

إنهم مدمنون على الأرجح، رأيت في مسلسلات مثل «Casualty” (الخسائر) و«EastEnders” (إيست إندرز) أن المدمنين يذهبون لتعاطي المخدرات في ملاعب الأطفال ليلًا. ربما يستمتعون بالتناقض الرهيب بين الشر والبراءة وهم يتعاطون المخدرات تحت لعبة التسلق مثلًا. إنهم على الأرجح يبحثون عن مكان يختبئون فيه وحسب. لا أصدق كم كنت ساذجًا. أنا طبيب محترف، كان يجب أن أدرك ثقافة تعاطي المخدرات في شرق المدينة. ضممت “صوفي” إلى صدري أكثر، استعدادًا للهرب فورًا إن تصاعد الموقف. أظنني أستطيع القتال لو كانوا صبية صغارًا أو تحت تأثير المخدرات بالفعل. لو حدث هذا لأصبح أول شجارٍ بالضرب في حياتي. سأعتمد كليًّا على الحركات التي شاهدتها في أفلام العنف، لكن لو كان معهم حقن، فلن أشتبك معهم أبدًا. فقد يصيبونني بالإيدز أو التهاب الكبد الوبائي. لست واثقًا كيف سأعرف إن كان معهم حقن أم لا، ربما أسألهم قبل أن أقاتلهم.

حسبت الاحتمالات، قررت الهرب في أقرب فرصة. حاولت الوقوف على الأرض المكسوة بطبقة مطاطية، لكن عضلات رجلي رفضت التحرك. لا أستطيع الوقوف أو الجري. تذكرت ذلك الشعور بالجمود في الأحلام، وبدأ تنفسي يتسارع. بدأت «صوفي» بالبكاء حين أحست بتوتري، دوى بكاؤها في الحديقة الهادئة مثل السرينة. فجاء ثلاثة شباب من خلف لعبة التسلق.

صاح أول مَن رآنا:

- تبًا. هناك رجل وطفل.

أسرعت يداي لتغطية أذني «صوفي» تلقائيًّا. اصطف الشباب الثلاثة أمام المراجيح. بدوا حائرين، ليسوا غاضبين أو خطرين. لا أجيد تقييم أعمار الناس، لكن هؤلاء الثلاثة يبدون صغيرين جدًّا. أكاد أقول أطفالًا. في المناطق الفقيرة من شرق المدينة، يعيش المراهقون على السجائر والنودلز الجاهزة، لدرجة أن مَن هم في سن الثامنة عشر أو التاسعة عشر تظل أجسادهم ضئيلة، وكأنهم في الثاني عشر. أظن أن هؤلاء الفتيان في السادسة عشر أو أكبر

قليلًا. يرتدون ملابس موحدة؛ چينز أزرق وسترة رياضية وغطاء للرأس يحيط بوجوههم مثل النينجا.

قال الأول الذي هو أطول قليلًا جدًّا من الآخرين: - آسفٌ حضرتك. لم أقصد السب أمام طفلك.

ارتبكت قليلًا، فأنا لم أتوقع اعتذارًا. رفع الفتى يديه ووضعهما على أذنيه مقلدًا ما فعلته مع «صوفي» ليوضح قصده. هز كفيه وابتسم كأنما يقول لي إنه لاحظ حمايتي لابنتي. أبقيت يديَّ بإصرار على أذنيها. إنه ليس حلًّا مثاليًّا، فما زال يمكنها سماعهم. لكن ما باليد حيلة، لا يوجد ما يمكنني فعله لحمايتها. فات أوان الهروب، سأبدو سخيفًا لو ركضت الآن. همست: - لا بأس. كنا مغادرين.

سأل أصغر الفتيان:

- لماذا تهمس؟

رد الفتى الأول:

- ربما لأن الطفل نائم.

- لا، أرى عينيه مفتوحتين. إنه ينظر إلينا.

- لا تستخدم صيغة المذكر قبل أن تتأكد إن كان ولدًا أم بنتًا يا "دين".

- هل هو ولد أم فتاة، حضرتك؟

هؤلاء الفتية ليسوا مدمنين. إنهم هادئون ومدركون لما حولهم، من الواضح أنهم مهتمون بـ»صوفي» ويحاولون التصرف بتهذيب، ربما لديهم إخوة صغار في البيت. أجبتهم: - إنها فتاة، اسمها «صوفي».

تحدثت بصوتٍ خافت قدر المستطاع على أمل أن يماثلوا درجة صوتي.

قال الفتى الطويل:

- اسمٌ جميل. هناك فتاة اسمها "صوفي" في فصلنا.

قال صديقه:

- لكنها قبيحة جدًّا. لا أقصد إهانة ابنة حضرتك.

- لم أعتبرها كذلك.

أتساءل ماذا يفعل هؤلاء الثلاثة في الحديقة بعد العاشرة مساءً. أعرف أنه يتوجب عليَّ الرحيل حالًا، لكن لا أستطيع الحركة. لم أشعر أبدًا بأي مسؤولية

طبية خارج المستشفى. لكن منذ ظهرت «صوفي» في حياتي أصبحت المسؤولية الطبية جزءًا مني، لا ينفصل عني. لا أستطيع منع نفسي من الشعور بالقلق، ربما يتعلق الأمر بكوني أبًا الآن. أبقيت يديَّ على أذني "صوفي»، واستخدمت ركبتيَّ لأوازنها على حجري. تحججت بأنها مصابة بالتهاب في الأذن. تمنيت لو كنت واقفًا الآن واستخدمت سلطتي كشخصٍ بالغ، لكن لا يمكنني ذلك بينما أنا جالسٌ على أرجوحة. أنا عالقٌ هنا وسأبدو تافهًا لو وقفت الآن.

سألتهم مستخدمًا نبرة «التشخيص» التي أستخدمها مع المرضى، فهي حازمة ومتعاطفة في الوقت نفسه: - هل أنتم هنا لتعاطي المخدرات؟

قال الفتى الطويل بدفاع:

- لا حضرتك. نحن لسنا مدمنين.

أضاف القصير وهو يغمز لي:

- ربما بعض الحشيش أحيانًا، لكن لا شيء آخر. ليس بعدما حدث للفتى الذي كان يرافق صديقنا «بيت».

- لقد أصبح كفيفًا تمامًا، وظل في غيبوبة لأسابيع. كاد يموت ثلاث مرات، فعلوا المستحيل لإنعاشه. مثلما يحدث في مسلسل «ER".

ثم قالوا جميعًا في نفس واحد وكأنها نكتة عادوها مائة مرة: - نشوة خطيرة.

أومأت بهدوء، تمنيت أن أبدو متعاطفًا، لكن أيضًا راشدًا، مثل أخصائي الشباب. سألتهم: - ماذا تفعلون هنا إذًا؟

رد الطويل:

- لا شيء.

ورد القصير:

- لا شيء.

ثم رد الفتى الذي لم يتكلم حتى الآن:

- جئنا نشعل "نارًا عالية" في لعبة التسلق.

نظر الآخران إليه بحدةٍ وقالا:

- يا إلهي. يا لك من ثرثار يا "شيبي"! لا يجب أن ندع الناس يعرفون من نحن. هذه هي القواعد.

- هذا الرجل في حاله. لن يقول شيئًا. لن تقل إنك رأيتنا، صحيح حضرتك؟

لم أنتبه إلا للجزء الذي وصفني فيه الشاب بأنني «في حالي». لم يصفني أحدٌ بهذا من قبل، بسبب اندهاشي من الكلمة وعدم انتباهي لكلامه، أجبت دون وعي: - نعم، طبعًا.

وكأننا في مسلسل أمريكي. إنه مجرد حريق تخريبي صغير، لا توجد كاميرات مراقبة، ولا يوجد ما يربطني بالأولاد أو الحادثة. سأغادر الآن ومعي «صوفي» إلى المنزل. لن أراهم حتى وهم يشعلون الحريق. أنا لست طبيبًا ولا رجل شرطة ولست مسؤولًا عن هؤلاء الصبية.

قال الولد الذي ينادونه «شيبي»:

- أرأيتم؟ هذا الرجل رائع، لن يبلغ عنا. إنه في صفنا على الأرجح.

سألت فجأة لأفهم ما يفوتني:

- أي صف؟

- نتحدث عن "النيران العالية" كما تعلم.

سألتهم:

- ما "النيران العالية"؟

لم أسمع هذا الوصف من قبل، لست جاهلًا. أعرف أن هناك ما يجري في المدينة. التقطت بعض الأخبار، ورأيت بقايا مباني محترقة، لكن لم أنتبه كليًّا للموضوع. كنت مشغولًا.

ضحك الأولاد الثلاثة وكأنني ألقيت دعابة مضحكة، لم أضحك. شعرت فجأة أنني محبوسٌ في دائرة. حملت «صوفي» وأغلقت سترتي حولها مجددًا وكررت سؤالي: - ما "النيران العالية"؟

عندما أدرك الأولاد أنني صادقٌ في سؤالي، ولا أعرف ما يدور خارج بيتي، أخبروني كل شيء عن «النيران العالية». جلسوا يروون لي وكأنهم مبعوثون، لكنهم لا يعرفون كيف يحكون قصة متماسكة، ولا يقولون إلا أنصاف الحقائق. من الصعب أن تخرج بالحقيقة من كلامهم غير المترابط، لكن بعد عشر دقائق، عرفت الخطوط العريضة وشعرت بالصدمة.

- لا أفهم، تبدون شبابًا لطفاء. لماذا تتورطون في هذا الموضوع؟ قد ينتهي بكم المطاف بالطرد خارج المدرسة، أو أسوأ.

قال الولد الطويل:

- هؤلاء الأوغاد يحاولون حرماننا من حرياتنا المدنية.

حتى وهو يتكلم بصوته، أستطيع سماع أسلوب رجلٍ أكبر منه سنًّا لقنه هذا الكلام.

تركتهم بعدما أكدت لهم أنني لن أخبر أحدًا بوجودهم هنا. ليتني أستطيع قول كلام أفضل، لكنني لست فيلسوفًا. وكل ما استطعت قوله هو «أنتم شباب لطفاء، لا تتورطوا في هذا الهراء». يبدو كلامًا قد تقوله أمهاتهم أو القس في قداس الأحد. أعلم أنه لا سلطة لي عليهم، ولا وسيلة لتغيير تفكيرهم. أغلقت بوابة الحديقة خلفي بينما أرى الأولاد يحملون حقائبهم، ويتسلقون قضبان لعبة التسلق. تغلب فضولي على قلقي، كيف سيشعلون النار في هذه القضبان المعدنية؟

في أثناء عودتي للبيت قدت في طريق «كونزوورك أفينو» ومررت بسينما «ستراند». هناك سرينات نجدة، وشريط شرطة أصفر يحيط بأحد المباني. يقف الناس خلفه ينظرون، ويشيرون إلى السينما القديمة وهي تحترق. أوقفني ضابط شرطة ينظم المرور في شارع «بيمز أفينو». أستطيع رؤية السينما عن قرب الآن. كنت أقود بجوارها كل يوم تقريبًا، لكنني لم أدخلها ولم أتمعن في النظر إليها من قبل. لاحظت عمارتها الفريدة؛ الجدران الزرقاء، ولوحة إعلانات الأفلام التي بدأت أركانها تنثني بسبب الحرارة. احترق إعلانان بالفعل، وتحطمت الأبواب الأمامية، فتناثر زجاجها على الرصيف. الجدار المجاور لي مصنوع من قوالب زجاجية مرصوصة معًا مثل قوالب الطوب، هذا الجدار الزجاجي يعكس ضوء اللهب على الشارع والسيارة بشكلٍ مرعب. المبنى بأكمله صار مشعلًا ضخمًا ينير شارع «بيلمونت». إنه يشتعل بقوة مثل معبدٍ وثني، ويثير في النفس ذلك الرعب الذي يثير فضولك لتأتي وتراه.

هذه هي «النيران العالية».

الآن عرفتها وشهدت موقفًا لها. شيءٌ بداخلي يتمنى لو أوقفت السيارة وتعبدت أمام هذه النيران، لكن شيئًا أقوى ألزمني بالابتعاد بسرعة. تحولت إشارة المرور من الأحمر إلى أخضر، وأشار رجل الشرطة لأنطلق بسيارتي. نظرت في مرآة الرؤية الخلفية بينما أقود. «صوفي» نائمة على المقعد الخلفي، ضوء النيران ينعكس على وجهها، فتبدو صفراء وبرتقالية وحمراء متوهجة. لا تشبهني مطلقًا الآن. لا أستطيع إبعاد عينيَّ عنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفتى الذي يرى المستقبل على أي سطح سائل

يتحدث «كونور» بشكلٍ غامض عن أشكال مظلمة وعن حزن، العالم ينطوي على نفسه مثل قشرة برتقال تُركت في الشمس طويلًا. يرى غرباء يبكون في غرفٍ خالية، وأطفالًا يسببون الأذى دون أي داعٍ، والكثير من النيران المتأججة. عندما ينظر إلى الماء، يرى صورًا لأشخاص لا يعرفهم، صور مختلطة معًا وتتحرك بسرعة. وكأنه يبدل قنوات التليفزيون. كان في الثامنة حين قال هذا، لم يكن يعرف معنى الاستعارات والمجاز. عندما صار في العاشرة، أصبح يغطي عينيه كلما خرج من البيت، لأن تغطية العينين تجعل من الصعب رؤية هذه الصور. إنه واسع الاطلاع؛ يقرأ كُتبًا يستعيرها من مكتبة «هوليوود أركس». فعل هذا ليسلح نفسه بالعلم، لكي يستطيع أن يصف ما به بالضبط. يرى "كونور" المستقبل على أي سطح سائل؛ البرك، الحمامات، الشاي في الكوب، المطر، وما أكثره في شرق بلفاست، الأحواض، المشروبات المسكوبة، حتى بوله ودمه ودموعه المالحة. لم تعد حدود قدراته معلقة بالماء فقط؛ أي سطحٍ سائل سيؤدي الغرض. حتى الصنبور المغلق يخيفه. فالمستقبل ليس أول ما يرغب في رؤيته وهو يغسل أسنانه صباحًا.

"كونور" في الرابعة عشر الآن، نادرًا ما يخرج من البيت. يشرب من كوب أطفال له غطاء، ويستحم مرتين في الأسبوع في غرفةٍ مظلمة وهو يغطي عينيه. حتى في الأيام غير الممطرة، يُبقي الستائر مسدلة خوفًا من تكثف بخار الماء على النوافذ. يقول: «أحيانًا نقطة المطر تريني أسوأ مما يريني المحيط». لا أحد يعرف ماذا يعني بكلامه، وكيف لهم بالمعرفة في حين أنهم محظوظون بأعينهم العادية. أحيانًا يطلب «كونور» الذهاب إلى البحر، فيقود به والده إلى خليج «هيلين»، ويجلس بجانبه على مصدات الأمواج بينما يرتجف «كونور» كالمصعوق. ومع ذلك يظل يحدق في البحر بقدر ما يستطيع؛ يقول إنه يحاول زرع المقاومة في نفسه، يقول أيضًا إنه ليس منحوسًا، بل لديه هبة خاصة. لم يصدقه والده؛ يظن أن ابنه يبحث عن إجابات. ربما يرغب «كونور» في رؤية نهاية المستقبل الذي يراه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

أحد عشر، اثنا عشر، ثلاثة عشر

هذه هي بلفاست في يوليو. الحرارة تذيب العقل، ولا يوجد مجال لأي شيء غير المزيد من الحرارة.

الليلة يمكن سماع نبضات قلب المدينة بكل وضوح. «با دوم.. با دوم.. با دوم». تشبه أصوات طبول تدوي في الشوارع الصغيرة، تظل تدق حتى تسير المدينة كلها على إيقاعها. تبدأ الضوضاء مع صوت أطباق العشاء، ثم تسير بتزامن مع دقات الساعة. تشبه صوت زمجرة يعلو فوق صخب المرور، أو مثل صوت رصاصات بعيدة، أو علب بسكويت معدنية يتم دهسها. إنه ليس صوتًا حادًّا، لكنه متواصل ويتعالى، مثل دقات القلب حين ترتفع وقت التوتر.

"با دوم.. با دوم.. با دوم"، يصبح الصوت أنعم كلما ابتعدت عنه، مثل صوت الرعد حين يغطيه صوت المطر. إنها أصوات طبول ضخمة تتدلى من أعناق العازفين وتستند إلى بطونهم. يدقون عليها بعصيٍّ بسرعة، وكأن أيديهم ترتجف. فهم يدقون بسرعةٍ شيطانية. يُطلق على هذه الطبول اسم «لامبجز" (lambegs). "لامبجز" هو أيضًا اسم قرية صغيرة تقع بين "ليسبورن" وبلفاست، فيها حديقة وأكواخ وحقول. إنها من الأماكن الهادئة التي قد تمر بجانبها دون أن تلاحظها. في أثناء المواكب، تتأرجح الطبلة الضخمة مثل رجلٍ سكران، لا يستطيع حملها إلا الرجال أو النساء القويات كالرجال. فهذا الشيء قد يقسم الفتاة العادية إلى نصفين من ثقله.

الجو شديد الحرارة هذه الليلة، لدرجة أنه لا يمكن إغلاق النوافذ. في شرق المدينة، يقتحم صوت الطبول بيوت الناس بلا استئذان.

يسأل الأطفال: "ما هذه الضوضاء يا أبي؟ هل هي أصوات رصاص؟"، فيرد الآباء: "لا يا بني. إنها مجرد طبول".

عندها يرتاح الأطفال، ينامون بينما يتخيلون صورة الطبول في المواكب الأمريكية الرسمية، ينامون وهم يبتسمون؛ فالطبلة ليست شيئًا شريرًا كما يمكن أن يكون السلاح عندما يقع في اليد الخطأ. ينامون مثل الأعصاب المشدودة التي تنتفض بحماس كلما مر صوت الطبول بجانب نوافذهم المفتوحة. لم يروا طبلة ضخمة على الواقع من قبل، بل فقط في أخبار التليفزيون.

تبدو الطبلة الضخمة مضحكة عن قرب، من المستحيل أن تخيف أحدًا؛ إطاراتها ملونة ومزينة بصورٍ سخيفة؛ مثل الملك «ويليام الثالث" الشهير

بالملك "بيلي"، والجنود في معركة «سوم» من الحرب العالمية الأولى، وأيادٍ حمراء، والأميرة "ديانا". قال الملك «جيمس» مؤكدًا على الوصية الثانية من التوراة: "لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا ولا صورة». لكن هنا تُستخدم الصور بغزارة لتمثل معتقدات المذهب البروتستانتي وتكرمها وتخلدها، مثلما يفعل الكاثوليك مع قديسيهم البغيضين.

تهادى عازف الطبول في مقدمة الموكب بحمله الثقيل، الذي يضغط على ساقيه ويصغرهما. منظر الطبلة المثبتة على بطن الرجل وهو يرجع ظهره للخلف تجعله أشبه بامرأة حامل. السير بحملٍ كهذا يتطلب قوة رهيبة وقميصًا بنصف كم. عادةً تنزف معصما عازف الطبلة، وتظهر جروح حمراء حول رقبته بسبب حزام الطبلة، ودائمًا يعرق بغزارة حتى في الليالي الباردة. يسيل العرق من تحت إبطيه وينتشر حول ظهره. يغلق فمه بقوة، ويثبت عينيه على الطريق. يوجه كل طاقته إلى معصميه اللتين يضرب بهما الطبلة. يواصل الضرب حتى يندفع الصوت مع اندفاع الدم في جسده.

كلما اقتربت من الطبلة، تجد صوتها حادًّا ورنانًا. وكأن طفلًا يضرب على ظهر مقلاة. يبدو الصوت مثل «تن نا.. تن نا.. تن نا». إنها ليست موسيقى، وليست ضوضاء أيضًا. دق الطبول الضخمة له فن، مثلها مثل كل الأشياء الصعبة. لا يمكن أن تفهم هذا إلا عن قرب.

لا مهرب من صوت الطبول الليلة، حتى أشد أحياء بلفاست هدوءًا لن تسلم من قرع الطبول المدوي.

فاليوم هو العاشر، وغدًا أحد عشر، وبعده اثنا عشر. قد تكون هذه مجرد تواريخ في فصل الصيف في المدن الأخرى، لكن الثاني عشر إجازة هنا. نكتبه بحروفٍ كبيرة. وكذلك الحادي عشر، إنه بمنزلة الليلة التي تسبق عيد الميلاد، يبدأ الاحتفال به في المساء. الحادي عشر مخصص لمواقد الاحتفالات، والثاني عشر مخصص للمواكب والشرب، وتخليد ذكرى انتصارات البروتستانت العظيمة. الملك «بيلي». معركة «بوين». كل الحقائق وأنصاف الحقائق التي تُبقي جماعة «أورانج» قائمة. يقول الناس لبعضهم: «هل تذكر معركة «بوين» في عام 1690؟"، إنه العام الذي بدأ فيه كل شيء. وبعد ثلاثمائة عام، ما زالوا مصرين على تذكره، على الرغم من أن التفاصيل قد انمحت بسبب انتقالها من جيل لجيل. هذا العام يقدم عرضًا خاصًّا للناس، فاليوم الثالث عشر سيكون نهائي كأس العالم.

"يووو"! هكذا يصيحون عند ذكر نهائي كأس العالم. لا يمكن أن تمر بمقهى أو بار بدون سماع هذه الصيحات البربرية تنطلق من نافذة مفتوحة. «يووو»! هي صيحة في اللغة المحلية تعبر عن فرحة شديدة، أو ألم شديد، أو ببساطة

الرغبة في إظهار صوتك حتى لو لم يكن لديك ما تقوله. في هذه الحالة، «يووو»! تُعدُّ صوتًا وليست كلمة بالمعنى المفهوم، تعبر عن الحماس والأخوة وثلاثة أيام من المتعة المطلقة.

يقول الرجل لصديقه: «يووو! ما رأيك في إجازة الثلاثة أيام هذه يا صديقي؟»، فيرد صديقه: «رائعة، لا يمكن أن يكرهها أحد».

في أثناء ذلك، يرفعون أكوابهم بمرح بينما يعرض التليفزيون الإعلانات المستوحاة كلها من كرة القدم، والمحشورة بين كل البرامج.

هذه اللحظات تسعدهم أكثر من حفلات الزفاف، أو الأطفال، أو ليالي شهر العسل. لكنهم لم يقولوا هذا لزوجاتهم أو حبيباتهم أبدًا؛ لا تفهم النساء تأثير كرة القدم على الرجل، حتى التحدث يصبح غير ضروري حين يجتمع الرجال لمشاهدة مباراة. الأمر مثير. وكذلك المواكب الرسمية، لا يعرف الرجال ما الأنشطة التي تساوي هذا عند النساء، ربما شرب الشاي. يحب رجال شرق المدينة استغلال كل لحظة في الإجازة. هناك المواكب، والطبول، والشرب، وكرة القدم بما فيها من رائحة عرق وتلاحم، مثلما يحدث بين الأخوة، أو الأحباء.

لم تبدأ الإجازة بعد، لكن معظم الناس بدؤوا يشربون بالفعل البيرة والويسكي والنبيذ في براميل ذات صنابير، والفودكا والـ»جين» ونبيذ الفواكه في زجاجات. هذه تليق أكثر بالنساء، لكن لا بأس بأي شيء نظرًا لشدة الحرارة. هناك أيضًا «شاندي» و»بوربون»، وكحول «سانجريا» منزلي الصنع، وعليه شرائح برتقال وأناناس، مثل الذي يقدمونه في بلدة «بينيدورم» الإسبانية. صنعت الزوجات كميات هائلة من الـ»سانجريا». لقد خمرنه في أحواض الاستحمام في منازلهن. يغرفنه بمغارف الحساء، ويسكبنه في أكواب بلاستيكية رخيصة من محلات «باوند لاند». هذه الأيام، يشتري الناس كل ما يمكنهم شراءه من المحلات الاقتصادية. للأسف لا تبيع محلات «باوند لاند» أي نوع من الكحول.

تسمح النساء للأطفال بتناول القليل من الـ»سانجريا» مع شطائر البرجر. يقلن: «ولِمَ لا؟ إنه مجرد عصير فواكه»، ثم يتظاهرن بعدم الملاحظة عندما يعود الأطفال نفسهم لأخذ علبة من هذا العصير أو اثنتين من الدلو المليء بالثلج. يتذكرن أنفسهن وهن في الثامنة والتاسعة، وكيف كن يتظاهرن بالسكر ويتصرفن بجنون بعد شرب ربع علبة يتشاركونها معًا. يفتح الكبار برميلًا آخر من النبيذ، ويحكون ذكرياتهم وهم صغار ويجرون في الشوارع. عندما ينفد النبيذ، يشربون البيرة، وعندما تنفد يرسلون أحدهم إلى البار لشراء المزيد من البيرة والسجائر قبل موعد الإغلاق، سيشربون كل ما

تطوله أيديهم هذه الإجازة. سيسكرون بينما يتناولون رقائق البطاطس مع المشروبات. يواصلون الشرب ثلاثة أيام، ولا يفيقون إلا في اليوم الرابع عشر من الشهر من أجل الذهاب للعمل.

ما بين الحرارة الشديدة وكأس العالم، هناك شعور عام بأن يوم الثاني عشر هذه السنة سيكون مميزًا. يتمنى معظم الناس ألا تعوق «النيران العالية» فرحتهم، أما الباقي فتمسكوا بحبهم للعنف، لن يرفضوا فرصة لإثارة الشغب. يحكي كبار السن كيف كانت إجازة الثاني عشر في الماضي مشمسة، ومليئة بالموسيقى، وبأشخاص يرتدون الأزياء الرسمية بأناقة. لم تكن هناك متاعب مع الشرطة ولا مع أي جهة أخرى. وبالتأكيد لم تكن هناك متاعب مع الشباب المنتشرين في الشوارع. الحرارة هي ما تجعلهم يظنون هذا. للشمس طريقة غريبة في اجترار ذكريات الناس. يبدو الماضي في ذكريات الناس أفضل مما كان في الواقع. من الأفضل أن يتذكر أهل المدينة ذلك؛ يجب كتابته بالطلاء على جدران بعض البيوت بدلًا من رسم اللاعب «جورج بست» والوجوه المقنعة.

الجو شديد الحرارة في الشوارع هذه الليلة. قطط الجيران تنام على أسقف السيارات المركونة، لا أحد يرتدي سترة، هناك أطفال يجلسون على الرصيف بركبهم المجروحة، يأكلون مصاصات مجمدة بينما يحكُّون بعض النقود المعدنية، والأحجار الصغيرة في الأسفلت الساخن. ما زالت الشمس ساطعة في السماء، لونها مزيج من درجات الأصفر الداكن والفاتح، مثل بيضة نيئة سالت فوق بيضة مقلية. لم تمطر قطرة واحدة منذ أربعة أسابيع.

تم منع استخدام الخراطيم نهائيًّا، ومغسلة السيارات على طريق «نيوتاوناردز» مغلقة. سمعت أن الجفاف حل بالريف أيضًا. فسدت الحقول والمحاصيل. لا يهتم سكان المدينة بهذا؛ فعالمهم مكوَّن من الطوب والمعدن. لم يقتربوا من الحقول منذ سنين. يظهر المزارعون في الأخبار بوجوههم الجامدة، وهم واقفون في حقولهم بقرى «تاندراجي» و»دوا”، بينما يرتدون أحذية برقبة خاصة بالعمل. يشبهون ضحايا المجاعات في البلاد البعيدة. يغيِّر أهل المدينة القناة بلا اهتمام، وكأن هؤلاء الناس ليسوا أهلهم ولا هذا بلدهم. وينسون المزارعين المساكين وحقولهم الفاسدة في ثوانٍ.

ستبدأ مواقد الاحتفالات في أقل من أربع وعشرين ساعة، وبعدها المواكب. الطبول مستعدة وجاهزة للمعركة. الآلاف من القمصان البيضاء في أنحاء البلاد تم كيُّها، والأزياء الرسمية تم فردها على الأسرة أو تعليقها أو على الأبواب. اشترى الناس البيرة ورقائق البطاطس بكميات كبيرة، تم تنظيف القبعات وتلميع الأحذية السوداء. أما شرائط التشريفة فتم إخراجها من

حافظاتها. إنها آخر ما يخرجه الناس، صباح يوم الثاني عشر بالضبط، خوفًا عليها من الاتساخ أو الكرمشة.

في أنحاء بلفاست وخاصة في شرقها، يتم تكديس الأخشاب طبقات فوق بعض لبناء الموقد مثل كعكات الزفاف. الأعلام والدمى التي تجسد الشخصيات المشهورة تم تعليقها بالحبال بالفعل. استعار الناس كراسٍ من مجلس المدينة، ووضعوها حول مواقد الاحتفال على مسافةٍ آمنة من النار، وذلك لراحة كبار السن أو لمن يرغب في المشاهدة دون المشاركة بالرقص حول النار مثل الهمج. استخدموا البكرات والرافعات؛ لرص الأخشاب في الطبقات العليا من المواقد. عند قاعدة الموقد، اجتمع الشباب يشربون مشروبات الطاقة من الزجاجات مباشرةً. وضعوا أيديهم حول أفواههم؛ لتكبير صوتهم وهم يرشدون الأشخاص الذين يرصون الأخشاب في الأعلى قائلين: «إلى اليسار قليلًا. إلى اليمين قليلًا يا صديقي. هكذا رائع!»

إنهم يفعلون مثلما فعل آباؤهم وأجدادهم قبلهم. يقفون وأيديهم في جيوبهم بكسل، في انتظار فصل الصيف الذي تتم فيه دعوتهم للمشاركة في احتفالات النيران، مثل تحريك الأخشاب بالمجارف الطويلة، أو تحريك الرافعة، أو إطلاق الرصاص في قلب النيران «بانج.. بانج.. بانج»، وكأنها وحش عليهم قتله. يجب على مَن يطلق الرصاص أن يغطي وجهه، ليس بسبب الحرج أو الخوف، وإنما لأن الوجوه المخفية تثير الفزع أكثر.

معظم مواقد الاحتفالات زادت على حد الثلاثين قدمًا المسموح بها إلى عشرين أو ثلاثين أو أربعين قدمًا أخرى، ومنها ما زاد خمسين قدمًا. إنهم يتحدون الشرطة أن تتدخل، ويتحدون السياسيين لتنفيذ تهديداتهم. السياسيون هنا مشهورون بكثرة الكلام والثرثرة بلا فائدة؛ عندما يكون مطلوب منهم التصرف. إنهم يراقبون بعضهم ليعرفوا من سيهاجم مواقد الاحتفالات أولًا. لا أحد يريد أن يكون أول المعترضين ولا آخرهم. المهارة في أن تتكلم في الوقت نفسه الذي يتكلم فيه الجميع. في هذا الأمر وغيره، لا يختلف السياسيون كثيرًا عن الأطفال والمراهقين.

جاءت نشرة الأخبار وانتهت. عرضت صورة المواقد قبل أن تشتعل، مرة من منظور أرضي ومرة من منظور جوي. قابلوا الكثير من الناس لإجراء أحاديث صحفية. أما الأشخاص الذين أجروا المقابلات، لقد قضوا كل لحظة في الاتصالات لإخبار معارفهم بأنهم قد يظهرون في أخبار السادسة إن لم تكن هناك قصة أفضل من قصتهم. لن تأتي شبكة «البي بي سي» إلا إذا ظهرت مشكلة. سوف تقع مشكلة. هذا ما يحدث دائمًا، لكن «البي بي سي» تقرر أولًا ما مدى سوء المشكلة لتعرف إذا كانت ستثير اهتمام باقي دول أوروبا أم لا.

وصلت الشرطة بالفعل، ركنت ثلاث سيارات «لاند روفر» بالقرب من المواقد الكبرى. إنهم هناك منذ أسبوع، يحاولون القضاء على المشكلات من بدايتها. وبالطبع يحصلون على رواتب إضافية مقابل كل ليلة يقضونها بكسل تحت مصابيح الشارع. داخل كل سيارة، يجلس شرطيان يشعران بالملل. يمضغان العلكة ويتراسلان مع حبيباتهما ويقرآن روايات جريمة، بينما يلتفتان إلى الشوارع المظلمة بين لحظةٍ وأخرى. كل طفل في المدينة يعرف جيدًا أنه حين يمر بجانب سيارة الشرطة، عليه أن يركل الإطارات أو يمرر عصا على جانبها المصفح ليزعج الشرطيين بداخلها.

واصلت «النيران العالية» اشتعالها في كل مكان في المدينة. رجال الشرطة مرهقون من محاولة توقع أي المباني ستحترق. ليس سهلًا أن تكون فردًا من رجال شرطة أيرلندا الشمالية خلال موسم المواكب. في الثاني عشر من يوليو، سيرغب الناس في السير في الشوارع التي لا يُسمح لهم بالسير فيها. سيتلقى رجال الشرطة أوامر بمنعهم. الكثير من رجال الشرطة لا يعرفون سبب المنع أصلًا. تسعة من أصل عشر مرات يتم فيها منع شخصٍ ما من السير في الشوارع الممنوعة ينتج عنها شغب. تقع أعمال شغب قبل يوم الثاني عشر، وتحدث فيه، وأحيانًا تستمر لأسبوع. هذا متوقع، ويمكن التخطيط له مقدمًا. يتم إيقاف إجازات رجال الشرطة، واستدعاء المزيد من الضباط من الضواحي، وتجهيز مدافع الماء لإيقاف أسوأ المشاغبين.

تعدُّ «النيران العالية» نوعًا مختلفًا من المتاعب؛ لا يمكن توقعها ولا التخطيط لها. إنها أحد الأعباء التي على رجال الشرطة التعامل معها بخلاف الشغب. رجال الشرطة متحفزون الآن. باقي يومان على يوم الثاني عشر. يتساءلون متى ينتهي كل هذا، وإلى متى سيجلسون في الانتظار، وهل سيمكنهم أخذ إجازة قبل عودة أولادهم إلى المدارس. لقد مضت أربعة أسابيع الآن، والحرائق تزداد سوءًا.

في كل ليلة، يجوبون المدينة كلها في حلقات بطيئة مملة. يفتشون المباني المهجورة ويتحققون من أي ضوء قد يكون نارًا. عادةً يخلطون بين إنذار الاقتحام وإنذار الحريق، وأحيانًا يلمحون ضوء كمبيوتر فيظنونه ألسنة لهب ويقتحمون المبنى. هذا يكلف وقتًا ومالًا، وتجعل شرطة أيرلندا الشمالية تبدو غير كفء. في نظر الصحافة المحلية، أحيانًا يعتقلون أشخاصًا أبرياء يقيمون حفل شواء في حديقتهم. أحيانًا يقومون بهذه الاعتقالات الخاطئة بينما تشتعل بعض المباني حقًّا. لا تمر هذه الحوادث مرور الكرام.

الشرطة لا تربح هذه المعركة. لقد خسروا الجناح الغربي من مجلس المدينة والمكتبة المركزية التي احترقت تمامًا. كل هذه الكتب والمخطوطات الفريدة اشتعلت بسرعة وصارت رمادًا قبل وصول فريق الإطفاء. قيل لهم أن يبذلوا

جهدهم. جاءتهم هذه الرسالة من رؤسائهم والصحافة والرأي العام بإحباطٍ شديد، وأيضًا من السياسيين الذين يراقبون الأحداث من بعيد، ويرغبون في السيطرة على الموقف قبل ليلة الحادي عشر. فلو وقعت المدينة تحت ضغط النيران والشغب في الوقت نفسه، سيكون من المستحيل إخفاء الأخبار عن الصحافة العالمية. يتمتمون لبعضهم بينما يسيرون في البرلمان: «يا إلهي، وكأنه لا يكفينا المتاعب التي نواجهها لمحاولة جذب السياح. ألا يمكن تأجيل أعمال الشغب لما بعد موسم الصيف؟ لن يخسروا شيئًا لو انتظروا انتهاء وقت الذروة الذي نمر به الآن".

في الأسبوع الماضي، سحبت قوات الشرطة خمسين ضابطًا متخفيًا من أعمالهم المعتادة، ووظفتهم لملاحقة الحرائق. بعضهم يتلقى أجرًا إضافيًّا، وبعضهم ما زال شابًّا ويريد فقط بناء سمعته في القسم. يقضون النهار في ملاحقة الأدلة، والليل في المرور بالبيوت بسيارات لا يوجد عليها شعار الشرطة. كل سيارة مزودة بطفاية حريق، وبطانية مضادة للنيران، وإسعافات أولية خاصة لضحايا الحرائق. إنه إجراء وقائي، فهي مسألة وقت حتى يتأذى شخصٌ ما. كلهم مدربون على كيفية إطفاء شخصٍ يحترق. يجب دحرجته على الأرض وتغطيته بالبطانيات المضادة بسرعةٍ إذا استدعى الموقف.

لقد أصبحوا مثل قطط الشارع، معتادين على الرؤية في الظلام. لو لمحوا لونًا برتقاليًّا أو وهجًا، يخرجون من السيارة بسرعة وينطلقون على الطريق حاملين طفاية حريق استعدادًا لتغطية كل شيء بالرغوة البيضاء، لكنهم عادةً متأخرون جدًّا. نادرًا ما يصلون إلى موقع «النيران العالية» قبل أن تخرج عن السيطرة. تفوح من أزيائهم رائحة حرائق الليلة السابقة، أصبحوا يربطون بين هذه الرائحة وبين شعورهم بالفشل. إنها ليست غلطتهم. هناك آلاف المباني في بلفاست، وكلها تصلح لإقامة «نيران عالية». أما عدد رجال الشرطة فأقل بكثير.

لم يتوصلوا إلى شيء في التحقيق بشأن «مشعل النيران» الرئيس منذ شهرٍ كامل. لم يُذع شيء جديد منذ أسابيع بخلاف الفيديو نفسه الذي تتم مشاركته مرارًا وتكرارًا على «الفيسبوك» و»تويتر». لا تستطيع الشرطة منع تداوله، لقد انتشر بالفعل في كل الدول التي تتحدث الإنجليزية. لقد حلل رجال الشرطة الفيديو على الكمبيوتر لساعات. كبَّروا كل مشهد على حدة حتى لم يظهر شيء على الشاشة إلا نقاط سوداء وزرقاء وبلون البشرة. «مشعل النيران» بارع. إنه (أم هل يمكن أن يكون امرأة؟) لم يترك أي دليلٍ للشرطة. قد يكون أي شخص، حتى منهم. وهكذا واصلوا البحث في المدينة بلا فائدة. كلما أطفؤوا حريقًا، اشتعل اثنان بدلًا منه. الوضع يشبه لعبة ضرب الفئران

في الملاهي، إذ تمسك بمطرقة وتضرب الفئران التي تخرج من الفتحات، لكن كلما ضربت واحدًا، ظهر المزيد منه وكأنهم يتكاثرون في الأسفل. من الطبيعي أن تشعر الشرطة بسخرية الناس منها. الكثير من الضباط الشباب انهاروا واستسلموا من الضغط. لا يمكنهم احتمال الموقف أكثر.

في مساء اليوم العاشر، توصل السياسيون إلى قرار. جمعوا الصحفيين أمام البرلمان للإدلاء بتصريحٍ صحفي. «النيران العالية» لن تفوز. قالوا بثقة غير معتادة: «لن نتسامح مع هذه الفوضى بأي شكل». كلهم يرتدون سترات رسمية، حتى النساء. إنه تصريحٌ مهم يستدعي إظهار سلطتهم. في الصباح سيتم هدم أي موقد يتخطى حد الثلاثين قدمًا.

"الوطنيون" يبدون سعداء، بينما «الاتحاديون» يبدون مكتئبين. أما من يقفون في المنتصف، ينظرون إلى الجانبين بتوجس مثل مخلوق تفاجأ بسيارة تقترب منه وتكاد تدهسه. لم يمر قرارٌ كهذا بدون تداعيات، يعلم الجميع أن المتاعب ستزداد الآن أكثر بكثير من أعمال الشغب المعتادة يوم الثاني عشر.

سُئل السياسيون عن إجراءات هدم مواقد بارتفاع سبعين قدمًا. هل ستتم إزالتها بالكامل أم إزالة الارتفاع الزائد وحسب؟ من سيكون المسؤول عن العملية؟ هل سيتم التعاقد مع مقاول أم ستتولى الشرطة الأمر؟ هل هذه الأعمال مذكورة في سجل الشروط والأحكام الخاص بالشرطة؟ هل تمت استشارة نقابة العمال؟ من سيدفع تكاليف إزالة هذه الفوضى؟ عندما فتح السياسيون أفواههم للإجابة، لم يخرج منها سوى صوت الجهل. إنهم لا يعرفون بالضبط، فهم متعبون من التفكير في هذا القرار الصعب، ويحتاجون أسبوعًا على الأقل للتفكير في إجراءات التنفيذ والتخطيط. لكنهم لا يملكون أسبوعًا، ففي أقل من ساعة، سيحل يوم الحادي عشر، ثم بعد عشرين ساعة، سيحل مساء يوم الحادي عشر. سيحدث شيءٌ الآن، ولن يكون جيدًا. المدينة تحبس أنفاسها وتنتظر.

بعد أقل من ساعتين، ظهر فيديو جديد على الإنترنت. ومع وقت الفطور، كان قد انتشر بالفعل.

شكله مألوف. غرفة صغيرة، معلق على جدارها ملاءة بيضاء. وهناك شخص، على الأرجح ذكر، يجلس أمام الملاءة المعلقة ويرتدي قناعًا عليه وجه «جاي فوكس» وچينز أزرق وسترة سوداء لها غطاء للرأس يسحبه على رأسه. لم يتحدث، بل حمل لافتات عليها كتابة أمام الكاميرا. «إنهم لا يستمعون إلينا». «أحرقوا المدينة كلها». «أنا مشعل النيران». أما الموسيقى التي تعمل في الخلفية فهي نفسها الأغنية السابقة، مقطع متكرر مدته ثلاثون ثانية من أغنية «Fire Starter". بمجرد أن رفع كل اللافتات، ظهرت شاشة سوداء عليها سبع

كلمات مكتوبة بحروف بيضاء كبيرة: «كان عليكم أن تتركوا مواقد احتفالاتنا وشأنها».

تداولت الصحافة القصة بسرعة. مع كل موجز أنباء، يذكرون الخبر. لقد قرر «مشعل النيران» أنه حان وقت تصعيد العنف. من يعلم ما الخطوة التالية؟ الشرطة تدعو الناس للهدوء. السياسيون من مختلف الأحزاب يدلون بتصريحات، قادة الكنيسة ظهروا للصحافة أيضًا، حيث وقف قس كاثوليكي وآخر بروتستانتي جنبًا إلى جنب على «جدار السلام»، ودعوا الناس للدعاء والبقاء في المنازل، والتفكير بمدى ما وصلنا له في السنوات الأخيرة.

سمع الفتيان والفتيات في أنحاء بلفاست هذا الكلام كثيرًا من قبل. إنهم لا يريدون البقاء في البيت والدعاء لأجل السلام، لا يريدون اتباع القوانين واعتبار سلامة الآخرين. إن الغضب يعميهم. «أولًا بناء «جدران السلام»، ثم فرض قيود على الطرق والأعلام، والآن يهدمون مواقد احتفالاتنا، قريبًا لن يبقى لنا شيء». إنهم خائفون من خسارة آخر رموزهم، وإلا لن يتبقى ما يميزهم عن غيرهم. لن يبقى لهم ما يعتمدون عليه، لن يعرفوا كيف يشرحون هذا للصحفيين حتى لو أعطوهم وقتهم للكلام. بدلًا من ذلك، يتحدثون عن العنف الذي كان يشهده آباؤهم، وكأنه حقٌ حُرِموا منه. يشاركون أفكارهم الهائجة مع بعضهم بينما يستندون على جدران مجلس المدينة، أو بينما يتحدثون على التليفون، أو من خلال كتاباتهم الغاضبة على «الفيسبوك» و»تويتر». يستخدمون لغة الحرب المليئة بحس الواجب، مثل «أصبح الأمر على عاتقنا»، «الآن هو الوقت المناسب»، «حرياتنا المدنية في خطر». ذات صباحٍ جميل، انفجر غضبهم حتى أغرق شوارع المدينة؛ أحرقوا المباني، والسيارات، والأشجار لكي يجري الدم في عروقهم ويشعروا بأنهم يفعلون شيئًا ما.

قبل أن تتحرك السلطات لهدم المواقد المخالفة بطريقةٍ آمنة، كان الناس قد أشعلوها جميعًا. ارتفعت حرارة بلفاست بشكلٍ كبير بسبب الشمس ومئات المواقد، خرجت المواقد الكبرى عن السيطرة، وسالت نيرانها في الشوارع مثل الحمم البركانية. التهمت النيران كل ما في طريقها بلا حسيب ولا رقيب. أشعلت السيارات والبيوت، وأذابت الأسفلت، وأحرقت النوافذ الزجاجية العازلة حتى تشققت طبقاتها واحدة تلو الأخرى وهي تصدر صوتًا يشبه خرير الماء. تم إخلاء كبار السن من بيوتهم، ووقفوا بعيدًا في آخر الشارع يشاهدون ألسنة اللهب. بعضهم بكى، حتى الرجال.

فريق الإطفاء غير قادر على متابعة الأمور. تم استدعاء قوات مطافئ إضافية من الجنوب، لم يحدث شيءٌ كهذا منذ ألقى «دي فاليرا» خطابه تعليقًا على قصف لندن. في أي مكان تذهب إليه قوات المطافئ، تتعرض لهجوم

بالزجاجات والطوب من المراهقين. مكافحة النيران أمرٌ صعب في حد ذاته ولا ينقصه هجوم الأطفال أيضًا. ارتدى المراهقون أوشحة لتغطية وجوههم من الكاميرات. وقفوا على السيارات المركونة، والأسوار العالية يراقبون الفوضى التي سببوها. لقد فتحوا أبواب الجحيم، وهذه مجرد البداية. رفعوا قبضاتهم بثورة وانتصار، بينما يصيحون بوحشية «يووو!». ترددت صيحاتهم في الشوارع الصغيرة. امتزج صوت الصخب مع أصوات شاحنات المطافئ والطبول، التي أخذت تدق مجددًا ويدوي صوتها في الأفق. أما الكلاب فأخذت تعوي في حدائق البيوت الحارة. إنه صوت الحرب التي اندلعت للتو، والشباب يشعرون بالفخر لأنهم يشاركون فيها.

بحلول منتصف ليل يوم الحادي عشر، شعر رجال المطافئ الشباب بالملل من إخماد مواقد الاحتفالات، فانتقلوا لحرائق أخرى. انتشر مئات المراهقين والشباب في أوائل العشرينيات في شوارع بلفاست، يشعلون النار في أي رمزٍ للسلطة؛ مثل الكنائس، والمدارس، ووسائل المواصلات المركونة على جانب الطريق، وصناديق البريد، وشاحنات البريد، وسيارات الشرطة الـ»لاند روفر» التي يخرج منها رجالها، والمحلات، والأشجار، والبارات. أشعلوا كل ما يمكن إشعاله. في الساعات الأولى من يوم الثاني عشر، أخذوا شاحنة آيس كريم ممتلئة عن آخرها استعدادًا للمواكب، وقادوها إلى جسر «ألبرت» ثم أشعلوها. دوى منها موسيقى «Show Me The Way To Amarillo” (أرني الطريق إلى أماريلو)، بينما تشتعل فيها النيران. وقف الأطفال المقَنَّعون حول النيران، وناولوا لبعضهم المثلجات التي أخذوها من الشاحنة قبل إحراقها. هذه هي المشاهد التي أذاعتها الـ»بي بي سي» في النشرة الصباحية. بدا المنظر وكأنه مشاهد من نهاية العالم. أطفال مقَنَّعون يأكلون مثلجات بينما تشتعل المدينة كلها كجحيمٍ أحمر من خلفهم.

بحلول الظهيرة، بدَّلوا هذا الفيديو بآخر، لكن قبل عرضه، رفعت المذيعة الورق الذي أمامها وخلطته بطريقةٍ غريبة وقالت: «المحتوى الذي سنعرضه الآن قد لا يكون مناسبًا لبعض المشاهدين». بدت وكأن شيئًا ما عالقٌ في حلقها.

من الصعب أن يجد أي مشاهد هذا المحتوى مناسبًا؛ السياسيون لن يشاهدوه لأنه سيشعرهم بالحرج، رجال الشرطة يشربون القهوة في غرفة الاستراحة بين المناوبات، ويغيرون القنوات كنوع من الاحترام للسياسيين أو بالأحرى الخوف. الآباء لن يسمحوا لأولادهم بمشاهدة الأخبار هذا الأسبوع. أما الأجانب الذين كادوا ينسون متاعب بلفاست، فسيشاهدون الفيديو وهم يمتعضون، ويعضون على شفاههم بصدمةٍ وتعاطف. وكأنها ذكرى قديمة عادت للحياة.

في الغرفة العلوية بأحد البيوت الواقعة أول طريق «كاسلراي»، لم يستطع «مارك أجنيو» إبعاد عينيه من على شاشة التليفزيون. يشاهد مجموعة من الشباب يرتدون ملابس رياضية ويغطون وجوههم بأوشحة. ركضوا عبر الحواجز في منطقة «شورت ستراند»، وأخذوا شرطية وسحبوها إلى وسط الطريق.

شاهدهم وهم يرفعون عبوة من الديزل ويصبوها على رأسها، هناك اثنان يقيدان يديها وكأنهما يصلبانها، بينما يرفع الثالث ولاعة سجائر فوق رأسها، والرابع يصب عليها الوقود. شاهد الفتاة التي لا تتحرك ولا تحاول حتى الهرب.

شاهد «مارك» الفتى الذي مهمته إشعال النار فيها. رفع يده لكنه لم يشعل الولاعة. إما لأنه لم يستطع أو لأنه ظن أن وجهه ليس مخفيًّا بشكلٍ كافٍ للاختباء. فجأة دوى صوت رصاصات مثل الأفلام. مات الفتى الذي يمسك الولاعة، ثم تبعه الثلاثة الآخرون. لكن الفتاة ظلت واقفة مرفوعة الذراعين وسط الطريق وكأنها مصلوبة وتنتظر من ينزلها.

شاهد «مارك» الفيديو ثم أوقفه قبل بدء الأخبار التالية، وأخذ يعيد تشغيله أكثر من مرة. فكَّر في الشرطية الشابة وهي تقف تحت الدُش الليلة تحاول إزالة رائحة الوقود من عليها بغسول الاستحمام والشامبو، وهي تعلم جيدًا أن الوقود يغطيها تمامًا وهي ليست أوهامًا. ستخضع لستة أشهر من العلاج النفسي حتى تختفي هذه اللحظة من ذاكرتها، وتبدو مجرد وهم. حتى بعد العلاج النفسي والأدوية المهدئة، ستلتزم بالأعمال المكتبية ولن تجرؤ على العمل الميداني مجددًا. فكَّر في كل ذلك بينما يعيد تشغيل الفيديو مرارًا وتكرارًا، وهو يرتدي السماعات لكيلا يسمع والده في الطابق السفلي.

يعلم «مارك» أن كل هذا بسببه. إنه واثقٌ تمامًا. شعر بأنه ملك العالم، لكنه لا يستطيع إخبار أحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9
الأخبار

أصبحت أتابع الأخبار الآن، وضعت التليفزيون في المطبخ، وأشاهده بينما أجهز اللبن لـ»صوفي» والغداء لي. ألغي الصوت تمامًا، وأكتفي بقراءة شريط الأخبار الذي يمر أسفل الشاشة. جاءتني هذه الفكرة مؤخرًا، ولقد جعلت أمسياتي أقل مللًا بكثير. بدأت أيضًا أشاهد أفلامًا أجنبية على أسطوانات «دي ڤي دي»، لا يهم اللغة التي يتحدثون بها، فأنا لا أشغل الصوت أصلًا. أحببت فكرة مشاهدة الأفلام الجادة الهادفة، حتى الأفلام الرومانسية الكوميدية تبدو أرقى بالفرنسية أو الإسبانية.

أجد طرقًا جديدة للتأقلم مع «صوفي» كل يوم. نتدبر أمورنا معًا حتى الآن، بل أكثر من هذا، نحن نحرز تقدمًا. أصبحت أنام أفضل مما كنت منذ سنين. عندما أستيقظ على صوت «صوفي» أو على ضوء الشمس، أجد نفسي مبتسمًا. هذا هو أقرب شعور للسعادة أحسست به في حياتي، حتى وأنا طفلٌ صغير. ما زلت أعد مخاوفي، فهذه عادة، مثلها مثل غسيل الأسنان أو حك الأذن في أثناء التوتر. لكن تبقى خوفٌ واحد، وهو جديدٌ عليَّ. إنه الخوف مما هو قادم.

“صوفي” منزعجة هذا الصباح؛ لم تنم جيدًا في الليالي القليلة السابقة. ألوم الحرارة والطبول على ذلك، مستحيل تفسير سبب الطبول لطفلٍ صغير. فهي أشياء مستديرة فظيعة، وحتى أنا لا أفهم أهميتها. حملت ابنتي من سريرها وهي تشعر بالإرهاق. شعرت بجفونها ترفرف على رقبتي، تغلقها وتفتحها باستمرار في محاولة لمقاومة النوم، مثل شخصٍ سكران يتظاهر بأنه مستفيق. أحب الشعور بثقلها حين تنام. أصبحت ذراعي اليسرى أقوى من اليمنى بسبب حمل «صوفي». ترك رأسها بحرًا من العرق على قميصي، لكنني لا أمانع. دندنت لها أغانٍ شعبية قديمة، وإعلانات تليفزيون، وأي شيءٍ يخطر ببالي. صوتي لا بأس به. أخبرتني أمي بهذا ذات مرة. إنه المدح الوحيد الذي أذكره خلال حياة مليئة بالاستهزاء الخفي.

تنام «صوفي» بشكلٍ أفضل حين أحملها، وأفضل أكثر حين أدندن لها. لا أدندن الآن، بل أشاهد الأخبار بينما أحاول تهدئتها. بينما أتحرك في المطبخ حاملًا ابنتي، لاحظت أن صوت التذمر الذي يخرج منها ليس آدميًا، بل يشبه صوت الأجهزة الكهربائية، مثل الخلاط أو المكنسة الكهربائية. إنه يصيبني بالصداع. لقد استيقظتْ باكرًا هذا الصباح، وكذلك أنا. ارتفعت الحرارة خلال الليل، وأصبحت لا تطاق في الطابق العلوي من البيت. سأشتري مروحة كهربائية آخر الأسبوع إن لم يتحسن الجو.

بينما أحضِّر شطائر الغداء، أرهف سمعي إلى الباب لكي أطفئ التليفزيون بسرعة بمجرد أن تصل «كريستين». تسير الأمور على ما يرام مع المربية. لم تحدث أي مشكلات منذ مشاهدة الكرتون في اليوم الأول. لا أريدها أن تكتشف أنني أشغل التليفزيون أمام «صوفي» بعد ما قلته لها. أصبحت الحياة أفضل بعشر مرات منذ وصول «كريستين»، أصبحت أتطلع للعمل وأيضًا للعودة إلى البيت. بدأت أسمح لنفسي بتخيل «صوفي» وهي بعمر السنة والسنتين والأربعة، وأيضًا وهي تذهب إلى المدرسة بالحذاء ذي الإبزيم. كل هذا بفضل «كريستين»، والنظام الذي نشرته في حياتنا. أستطيع القول إن «صوفي» أحبتها أيضًا. وجهها يشرق كلما رأت وجه «كريستين»، وكأنها تتذكر ذكرى سعيدة. إنها تفعل المثل معي، لكن هذا متوقع. عندما تنظر إلى وجهي، تشعر كأنها تنظر إلى وجهها في المرآة.

في المساء بعدما أحممها، أنظر إلى وجهي ووجهها في المرآة جنبًا إلى جنب مثل لعبة البحث عن الاختلافات. لدينا العينان والأنف وعظام الخد البارزة والذقن المثلثة نفسهم. نظرت سريعًا لفمها وأذنيها، بالكاد أتذكر شكل والدتها. قلت لانعكاسي العابس في المرآة: «نحن طبيعيان. نحن عائلة". أحب استخدام كلمة "أب عازب" كلما سمحت الفرصة في الحديث، فهي تشعرني بأنني طبيعي. الكثير من الآباء والأمهات عُزَّاب هذه الأيام، حتى الرجال. بدأت أفكر مؤخرًا في مفهوم الرجولة، لم أفكر جديًّا في هذا الموضوع حتى الآن.

ليلة أمس كان نهائي كأس العالم، شاهدت جزءًا من المباراة بلا اهتمام، بينما أغيِّر القنوات بين المباراة وبين فيلم قديم لـ»بروس ويليس» على القناة الرابعة. لم أكن ميالًا للرياضة، لكن بما أنني أصبحت أبًا الآن، بدأت أمارس الكثير من الأنشطة «الرجولية"؛ فمثلًا أشرب البيرة بدلًا من النبيذ، وأشاهد الأخبار على الفطور، وأتابع كرة القدم و"الرجبي"، وأحلق ذقني بالموس والرغوة، وأطلب بيتزا بالتليفون. جربت مشاهدة الفيديوهات الإباحية مرة واحدة، لكنني وجدتها تجربة غريبة لم أحبها. تشبه مشاهدة الحيوانات في الحديقة من خلال نافذة زجاجية، لم أفعلها مجددًا. على الأرجح أنا ذلك النوع من الرجال الذي يستمتع بلعب الجولف أكثر من مشاهدة الأفلام الإباحية.

مشاهدة الأخبار هي إحدى ممارساتي «الرجولية». من الجيد أن أكون على اطلاع. أخبار هذا الصباح كانت مثل مباراة من شوطين؛ كانوا يناقشون في النصف الأول من وقت النشرة نهائي كأس العالم، وفي بقية الوقت ركزوا على «حرائق بلفاست». هذا ما أطلقه الإعلام العالمي على الموقف الذي يدور في مدينتي. كنوع من المراعاة، مر المذيع سريعًا على أخبار البلاد الأخرى قبل أن يعود فورًا إلى بلفاست. قال إن نهائي كأس العالم جعل الأمور أسوأ، وذلك ليوضح الموقف للأجانب الذين لا يعرفون شيئًا عن أوضاع

المدينة. لقد فاز الفريق غير المرغوب، مما يعني أنه في أماكن معينة من المدينة فاز الفريق المنشود. صار هذا سببًا آخر لاندلاع الشغب. أصبحت الأوضاع «شديدة الاضطراب»، هذا ما قاله المذيع ليصف الموقف المعقد العنيف الذي لا حل له.

صوته يبدو مرهقًا وهو يقرأ الأخبار، مثل ممثلٍ في الأسبوع الخامس من أصل ستة أسابيع تصوير متواصلة. إنه أحد مذيعي الـ»بي بي سي» المشهورين. يقرأ الأخبار منذ بداية السبعينيات، ليست أول مرة يقول فيها كلمة «شديدة الاضطراب» وبلفاست في الجملة نفسها. وعلى الأرجح لن تكون الأخيرة، لكن من المطمئن رؤيته وهو يرتب ويخلط أوراقه بتمكُّنٍ مثل الملك في مملكته. بعد ذلك سيتغيَّر الجو تمامًا.

الأيام القليلة الماضية كانت حربًا؛ ظل البرلمان يناقش إلى أي مدى يجب أن تتدخل الحكومة، ربما يبدؤون جولة أخرى من المباحثات، هذا ليس مفاجئًا. الجيش ينتظر، لا يتدخل تمامًا ولا ينسحب تمامًا. قرر أعضاء منظمة «أورانج» مواصلة المواكب. حل يوم الثاني عشر بعنف على الشوارع المحترقة أساسًا. النار والغضب والثورة يَعُمُّون كل شيء. هناك احتجاجات وشغب ومشاجرات لفظية وضرب. وفي إحدى المناطق على طريق «كاسلراي»، تمت إصابة شابين في ركبتيهما وهما يرتديان الزي الرسمي لعازفي المواكب. من الواضح أنهما لن يشاركا في المواكب مجددًا.

المستشفيات عاجزة عن سد الحاجة؛ الأطباء يعالجون المرضى على النقالة في الجراج. لحسن الحظ أن الجو ما زال جافًّا، ليس لديهم خطة احتياطية لو هطلت الأمطار. جماعة الكنيسة يدعون لأجل المطر، يطلبون فيضانًا كطوفان «نوح». على الرغم من أن الرب وعد بألا يكرر هذا الطوفان مجددًا، فإنهم يتساءلون إذا كان من الممكن عمل استثناءٍ لهم هذه المرة لحل متاعبهم. ومع ذلك يتذكرون في ثنايا عقلهم أن العالم سينتهي بالنار. يكررون هذه الجملة من الإنجيل: "وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ" (مَتَّى ٢٤:٣٦)، بينما تغزو رائحة الكبريت والرماد الشوارع الكبيرة والصغيرة. إنهم ليسوا جاهزين للنهاية كما ظنوا.

قوات الإطفاء عاجزة عن ملاحقة النيران، هناك مباحثات لجلب قوات إضافية من إسكتلندا، ونقلها بالعبارات المدنية. وهناك مناقشات حول حظر علب الكبريت والولاعات بكل الأنواع. والآن مشجعو كرة القدم يحتجون بالعصي، والطوب، وقنابل المولوتوف المصنوعة من زجاجات اللبن الفارغة. أغلبية من يفعلون هذا من الشباب. عرضت الشاشة خلف المذيع فيديو «مشعل النيران»، وإحصائيات عن بطالة شباب الطبقة الكادحة في بلفاست.

فجأة اختفى الإستوديو وانتقل العرض لوِحدة مراسلة خارجية في «كايف هيل». مرت الكاميرا على بلفاست من منظور علوي، بينما تحدث المذيع عن خسائر الدخل القومي في مجالات السياحة والتجارة والنقل، ذكر رقمًا يقدر بالملايين، بدا أنه يقاوم نفسه حتى لا ينظر للكاميرا باستياء.

دفعت وجه «صوفي» في منحنى رقبتي أكثر. لقد قضيت وقتًا طويلًا لأجعلها لا تسمع الأشياء المؤذية، والآن هناك أشياء لا أريدها أن تراها أيضًا.

يعرض التليفزيون حشدًا من الرجال والنساء يهاجمون قوات مكافحة الشغب، ويقذفونهم بالزجاجات والطوب بينما يجرون. بعدها جاء بعض الأطفال يرتدون قمصانًا عليها رسومات كرتونية، وأحذية مدرسية بيضاء، ويضعون أقراطًا على شكل نجوم وقلوب صغيرة في آذانهم. حطموا الواجهة الزجاجية لمطعم صيني، وسرقوا المشروبات الغازية من الثلاجات. بعد ذلك اشتعلت سيارات الملاكي، والإسعاف، ومدرسة ابتدائية في شارع «أنتريم». لقد تفحمت من الداخل تمامًا، لكن ما زال يمكن تمييز رسومات الأطفال المعلقة على الجدران، هناك زرافات وأسود وأفيال غير متقنة. كل هذا يحدث على بعد ميلين من بيتي.

قال المذيع: «هذه الصور مأخوذة منذ أقل من ساعة». أنا أصدقه، أستطيع أن أشم رائحة بنزين محترق تتسلل من نافذتي المفتوحة.

أغلقت التليفزيون لأجلي ولأجل «صوفي». فكرت في الشباب الثلاثة الذين أشعلوا النار في لعبة التسلق في حديقة «فيكتوريا بارك». من الصعب التصديق أنهم متورطون في هذا الجنون. أتذكر ستراتهم الرياضية، وبساطتهم في المزاح مع بعضهم كما يفعل الأصدقاء المقربون. لا أستطيع ربط ذكراي عنهم بالعنف الشديد المعروض في الأخبار. لا أصدق أنهم من الأطفال الذين يخربون الأشياء عمدًا، لم يكونوا قساةً هكذا. إنهم أفضل من ذلك بكثير. إنهم مساكين، لقد ورثوا حقد شخصٍ آخر وحسب.

انفتح باب البيت وانغلق بحدة، اندفعت «كريستين» إلى المطبخ. ألقت حقيبتها على الطاولة وأخذت «صوفي». ناولتها الطفلة، وشعرت مجددًا بأنهما تبدوان مناسبتين لبعضهما، بينما تستند على الثلاجة وهي تحملها. وكأنهما أم وابنتها. ربما يمكن قول هذا على كل امرأة دون الخمسين تحمل طفلًا بطريقة صحيحة. لا تبدو «كريستين» بخير هذا الصباح؛ المكياج على جانب عينيها يبدو مائلًا للأسفل، وكأنها كانت تبكي أو تمسح وجهها. وجهها الشاحب عادةً يبدو أحمر، تبدو مثل شخصٍ حزن مؤخرًا. ثنيت إبهامي وسبابتي على شكل دائرة وفردت الثلاثة أصابع الأخرى وأشرت لها لأسألها إن كانت بخير، كما جعلتُ ملامح وجهي مناسبة للسؤال.

أومأت «كريستين» بنعم، نقرت على معصمها ثلاث نقرات ثم حملت «صوفي» بذراعٍ واحدة، وأشارت بيدها الأخرى وكأنها تقود سيارة وتدير المقود يمينًا ويسارًا ببطء. أظنها تعني أن زحام المرور هو سبب تأخرها. هكذا نتواصل معظم الوقت؛ بمزيج من لغة الإشارة والتمثيل، هذه الطريقة تنفع، وعندما لا تنفع نكتب في المفكرة. أخذتها وكتبت:

"تبدو الأوضاع وكأنها نهاية العالم، أليس كذلك؟"

أومأتْ مجددًا، ثم رفعت يدها اليمنى ومررتها بحدة على جبهتها فوق أنفها بالضبط. على ما أذكر، هذه علامة كلمة «أحمق» أو كلمة أشد منها. بدأت أتعلم لغة الإشارة عبر الإنترنت، كما سجلت في دورة تدريبية في المستشفى. يَسعد «مارتي» كلما ذكرت هذا. يقول إنني عدت إلى العمل بحماسٍ وشغف.

وضعت يدي برفق على كتف «كريستين» لأواسيها، ما زلت لم أتعلم إشارة كلمة «آسف». كلمات السباب تشتت انتباهي، فإشاراتها مضحكة أكثر من الكلمات العادية. أحب أن أشير بها في الخفاء حين يزعجني زملائي أو موظفات الاستقبال. أبعدت «كريستين» يدي. هل تصرفت بجرأة أكثر من اللازم؟ هل تظنني مغرمًا بها الآن؟ أنا لست مغرمًا بها بالتأكيد، لكنني لست متأكدًا إن كنت أستطيع تدبر أموري بدونها. ترى هل أؤكد عليها ألا تتوقع أي علاقة رومانسية بيننا؟ هذا مستحيل الحدوث، لكن النساء أمرهن عجيب في هذه الأمور، فهن يسمعن عكس ما يقوله الرجال. قد أجعل الأمر أكثر تعقيدًا.

تنهدت «كريستين» ورفعت يدها بإشارة «اذهب». هذه الإشارة تشعرني أنها تدفعني إلى الباب بالفعل، أخذت غدائي ثم عدت لآخذ مفاتيحي. قبل أن أغادر المطبخ، كتبت لها: «هناك لازانيا في الثلاجة. كليها». سآخذ هذه الملحوظة لاحقًا وأوهم نفسي أن زوجتي الوهمية كتبتها لي قبل أن تذهب إلى صالة الألعاب الرياضية، أو عندما ستتأخر في العمل. هذه هي الحياة العادية التي أتمناها كما يتمنى شخصٌ آخر مالًا أو منزلًا للإجازات في إسبانيا.

بينما أخرج بسيارتي الـ»رينو»، لمحت سيارة «كريستين» الـ»كورسا» الصغيرة مركونة تحت مصباح الشارع. ينقصها مرآة جانبية، وباب الراكب يبدو مثنيًّا بقوة وكأنه تعرض لضربٍ شديد من شيءٍ مصمت مثل قالب طوب. عندما وصلت إلى المستشفى، أرسلت لها رسالة:

"رأيت سيارتكِ، ماذا حدث؟"

ردت فورًا:

“لقد نال مني مفتعلو الشغب عندما توقفت عند إشارة مرور. يا لهم من أوغاد!”

عندما قرأت رسالتها، رفعت يدي اليمنى تلقائيًّا ومررتها على وجهي بحدة. لقد تذكرت أن هذه إشارة «وغد»، أما «أحمق» فهي أخف بكثير، مثل الموجة.

المستشفى أهدأ من العادة؛ الناس يبقون في بيوتهم قدر المستطاع، منذ يوم الثاني عشر والحرائق وأعمال الشغب لا تحدث إلا ليلًا. لكن كبار السن حذرون بطبعهم، يفضلون البقاء في منازلهم والموت بسبب أمراض قابلة للعلاج بدلًا من المخاطرة بالتعرض لحصار خارج البيت. يخشون ألا يمكنهم العودة إلى بيوتهم قبل الظلام، مثل مصاصي الدماء، لكن بالعكس. هذا ليس بسبب الحرائق فقط، بل هو أمرٌ معتادٌ هنا. إنه يتعلق بفترة «المتاعب» وبالخوف من المخلوقات التي تتربص في الظلام، سواء البشرية أو السحرية. يدخل كبار السن في سباتٍ فِعلي في الشتاء.

لم يأتِ الطبيبان الشابان إلى العمل. إنهما يعيشان بعيدًا عن المستشفى، في الطرف الآخر من المدينة. أما «مارتي» فيسكن على بعد شارع، وأنا على بعد أقل من ميل. ليس آمنًا عبور الجسور بعد الخامسة. وخوفًا من أن يحاصرا هنا في الشرق، نصحهما «مارتي» بالبقاء في البيت حتى تهدأ الأمور. قرر أن نقسِّم المرضى الإضافيين بيننا.. هكذا قابلت «سامي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفتاة التي تتحول لقاربٍ أحيانًا

في ساحة أحد المنازل على طريق «كاسلراي»، تحولت «لوسي أندرسون» لقاربٍ للمرة الثالثة هذا الأسبوع؛ وقفت في مسبح أختها القابل للنفخ وانتظرت. يترك والدها النباتات تنمو عاليًا حتى لا يراها الجيران. تفضل «لوسي» التحول لقاربٍ في النهر، تحب الانسياب على الماء مع البجع في «فيكتوريا بارك»، لكن أحيانًا تأتيها رغبة التحول فجأة ولا يوجد وقت لأي شيء غير نفخ المسبح المرسوم عليه سمك في حديقة المنزل الخلفية. الخصوصية مطلوبة، لهذا توجد نباتات حول البيت وستائر حول النوافذ. لن ينفع هذا لو جاء عابر سبيل مثل ساعي بريد، أو مرشح انتخابات يبحث عن أصوات ونظر عبر النافذة ورأى وجهها الشاحب ممطوطًا ليشكل مقدمة القارب وذراعيها وساقيها تشكل جسم القارب.

تنتظر «لوسي» في الماء الفاتر. تنتظر بصبر بينما يزول شعورها بوزنها، مثلما يزول الماء عن الغسيل المنشور. تبدأ عظامها بالصرير. العملية ليست مؤلمة؛ أعني التمدد والالتواء والتصاق الأطراف، لكنها ليست طبيعية. لا تعرف «لوسي» كيف تصف ما يفعله جسدها. إنه يتحول، يتغير، يحرك السوائل بداخله. تسمى هذه العملية «التغيير»، لكن بعدها تشعر وكأنها كانت مصلوبة، وتعجز عن الانحناء لمدة أسبوع. يبدو التحول ممتعًا في لحظتها. وكأن عظامها خفيفة كالهواء، ولحمها كالريش، والهواء في رئتيها أخف بكثير، مثل الهيليوم أو السحاب. فجأة لا تصبح «لوسي» تلك الفتاة الحمقاء التي تراها في المرآة. لا تصبح ثقيلة أو ضخمة أو ممتلئة الفخذين. تجلس بخفة على الماء. تطفو، تنساب. وكأنك تصف حركات فتاة رشيقة مثل راقصة الباليه أو عارضة الأزياء.

تحولت «لوسي» إلى قارب مائة وتسعة وأربعين مرة. لا تذكر أول تحول لها؛ لقد كانت في الثانية من العمر فقط، وجسدها الصغير يستكشف قدرات جديدة كل يوم. ربما تعلمت التحول لقارب في الوقت نفسه مع المشي والكلام وكل شيءٍ آخر. أخبرها والداها أنها ظلت تعوي لساعاتٍ بعدها. كانت مجرد بركة صغيرة، لكن الضوضاء التي افتعلتها في أثناء التحول كانت صادمة؛ مثل صوت أعواد كبريت تحتك بشدة لتصدر شررًا مع صوت قطعة مطاط تمتد عن آخرها حتى تصدر صريرًا. لم يتجاوز والدها هذه الصدمة أبدًا. كبر جسد «لوسي» واعتاد على التحول لقارب. لقد أوشكت على السادسة عشر الآن، واعتادت على صوت صرير عظامها، وعلى شعور جلدها بالتمدد، لدرجة أنها توقفت عن عد مرات تحولها. إنها لعنة تحملها، لكنها أيضًا نوع من النعمة. هذا ما يميزها عن غيرها. لن تعرف نفسها بدونها، لن تعرف ماذا

تفعل. ما الهدف من التحول لقارب؟ لم تقرر بعد. تظن أن الأمر يتعلق بفكرة الحمل، حمل الأشخاص أو المشاكل أو الأشياء الثقيلة الكبيرة. ترفض أن تقول على نفسها منحوسة، لكنها تود لو وجدت كلمة تصفها، تصف حالتها العجيبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10
رجل شرير جدًّا

يأتي «سامي» إلى المستشفى بصفته مريضًا منذ ستة أشهر. تقريبًا لم يذهب إلا للدكتورة «أوينز»؛ فهو يشعر بغرابةٍ شديدة إذا كشف جسده لرجلٍ آخر، حتى لو كان طبيبًا. لا يحتمل فكرة أن يكون عاريًا ويلمسه رجل وليس امرأة. إلا إذا تعلق الأمر بعملية جراحية، عندها يصر على طبيب ذكر، فهذه مسألة كفاءة.

كان «سامي» ينتظر عند مكتب الاستقبال عندما وصل «جوناثان» إلى المستشفى، أومأ الرجلان لبعضهما بتحية. لا يعرف «سامي» أن «جوناثان» طبيب. نظر إلى الشاب وهو يسير بثقة عبر الردهة مرتديًا بذلة وقميصًا مكويًّا. ظنه يعمل في المحاماة أو أي مهنة مربحة مثلها. تساءل عن سبب قدومه. لا تبدو عليه لمحة من الإحراج، لذلك خمَّن «سامي» أن الشاب يعاني التهابًا في الحلق أو ما شابه. مستحيل أن يعاني مرضًا جنسيًّا، أو أمراضًا باطنية، أو تشوهًا في الجلد. وبالتأكيد ليس مرضًا نفسيًّا.

“سامي” هو الذي يشعر بإرهاقٍ نفسي.

لقد قضى الليل بطوله يستجمع شجاعته لرؤية الطبيب، والآن يستند بثقله على مكتب الاستقبال، وكأن هذا سيمنعه من الفرار والعودة إلى البيت. طلب رؤية «ميلاني» بالاسم. سألته موظفة الاستقبال إن كان يقصد دكتورة «أوينز»، فأومأ «سامي». دكتورة «أوينز» هي طبيبة شابة حديثة التخرج، وتسمح لمرضاها بمناداتها باسمها الأول. تخيَّل «سامي» دكتورة «أوينز» في عقله؛ وجهها بريء كالحمل الوديع. سهر طوال الليل يتدرب على اعترافه. وفي كل تخيلاته للموقف، كانت هذه المرأة الوديعة تكتب ملاحظات وتصف له الدواء. إنها «ميلاني» بأنفها الطويل المائل للأعلى، وأسنانها المبتسمة الصغيرة الشبيهة بأسنان جدته المتوفاة. «ميلاني» هي من تضع يدها البيضاء على يده وتقول: «لا تقلق يا سيد «أجنيو». إنها ليست نهاية العالم».

هزت موظفة الاستقبال رأسها باعتذار. هناك مشكلة، و»سامي» لا يشعر بالراحة. ليس واثقًا إن كان سيتماسك ولن يتقيأ على مكتب الاستقبال. قالت الموظفة: - آسفة يا سيدي. دكتورة “أوينز” لم تحضر اليوم، بسبب الحرائق كما تعلم. يمكنني توجيهك لدكتور “موراي” أو دكتور “بيل”. أيهما تحب؟

سألها «سامي»:

- هل أي منهما امرأة؟

ردت المرأة وهي تغمز:

- ليس على حد علمي.

ذهبت غمزتها المازحة على «سامي» هباء. إنه رجلٌ كبير لكنه يبدو على وشك البكاء، حركت علبة المناديل تلقائيًّا لتكون في متناول يد «سامي»، الذي يتشبث بحافة المكتب الخشبي.

سألها:

- أيهما ألطف؟

- دكتور "بيل".

ثم غطت فمها بسرعة واستدركت:

- أعني أن كليهما رائع، لكن دكتور» موراي» أكثر جدية.

- سأذهب إليه.

- هل أنت واثق؟

- لا أريد شخصًا لطيفًا يا عزيزتي، بل أريد شخصًا يساعدني.

لا يعرف «سامي» لماذا قال ذلك، فهو يريد شخصًا لطيفًا. لقد جاء إلى هنا خصيصًا ليحصل على معاملة لطيفة من الدكتورة ذات الوجه البريء، لكن الآن فمه يقول إنه يريد شخصًا جادًّا وصريحًا، وربما أيضًا قاسيًا. فمه يعرف أنه لا يستحق اللطف، بل يستحق شخصًا يعامله بمدفعٍ رشاش.

- كما تحب. فليكن دكتور "موراي"، تفضل بالجلوس في غرفة الانتظار وسيستقبلك فورًا.

ابتعد «سامي» عن مكتب الاستقبال، وذهب بتثاقل إلى غرفة الانتظار. راقبته موظفة الاستقبال وهو يذهب، يشبه غوريلا حزينة مرهقة. جلس في أبعد ركن في الغرفة بين الجدار وبين «باري»، الذي يأتي كل يوم حاملًا مشروبه ليهرب من حرارة الجو. أخذ مجلة سيارات قديمة من على طاولة القهوة وتصفحها، لم تركز عينه على أي صفحة. عندما حان دوره ليقابل الطبيب، انتظر ثلاثين ثانية وهو ينظر إلى قدميه، وكأنه يأمرهما بالوقوف والسير في الممر الطويل المفروش بالسجاد حتى باب دكتور «موراي».

وقف خارج المكتب وطرق الباب على الرغم من أنه كان مفتوحًا جزئيًّا. لمح الطبيب الشاب يجلس على مكتبه. تبًا، إنه ذلك الشاب الأنيق. شعر بأنه محكومٌ عليه من قبل أن يتحدث. لا بأس، إنه يستحق الانتقاد بسبب ما فعله.

فتح الباب ودخل المكتب، هناك مقعد بلاستيك من النوع الموجود في المستشفيات والعيادات عادةً. جلس عليه «سامي»، ارتاح عندما جلس أخيرًا.

لم يضع وقته في تقديم نفسه، بل قال: - أنا رجلٌ شرير يا دكتور. رجلٌ شرير جدًّا.

اندهش «جوناثان» من كلامه الذي بدا سخيفًا؛ فهذه جملة تسمعها في الأفلام وليس في الحياة الواقعية، كتم رغبته في الضحك وهو يرفع عينيه عن الورق، الذي يكتب فيه روشتة علاج تعتمد على المضادات الحيوية. حلت المضادات الحيوية محل الدين لتكون مسكنًا في المنطقة الشرقية. من الواضح أنه لا يوجد مرض - سواء حقيقي أم وهمي - لا يمكن علاجه بالبنسلين أو أحد مشتقاته. ترك «جوناثان» أوراقه، يمكنه الانتهاء منها لاحقًا. وأعطى مريضه كل انتباهه. الرجل في الخمسين من عمره تقريبًا، يرتدي حذاءً شديد البياض وچينز أزرق وقميصًا بياقة مثلثة لونه أحمر باهت. لم يبدُ شريرًا جدًّا كما يقول، بل كمدرس جغرافيا متقاعد. ذَكَّر «جوناثان" نفسه بأن المظاهر قد تكون خادعة. فوجه "هتلر" لو وضعناه على رجلٍ آخر لربما بدا ودودًا ومطمئنًا، وربما بدا أيضًا ككبير خدمٍ متقاعد.

ابتسم «جوناثان» للرجل الشرير، وقال وهو يمد يده: - أنا دكتور "موراي".

ثم نظر لورق المريض وقال:

- وأنت "ساموبل أجنيو". كيف أساعدك؟

قال الرجل:

- نادني "سامي".

نظر بارتيابٍ في أرجاء الغرفة، دارت عيناه يمينًا ويسارًا مثل كشافات السجن.

تفحص «جوناثان» الرجل من رأسه حتى قدميه، والطريقة التي يحرك بها عينيه. قرر استخدام النبرة الهادئة المخصصة للمرضى النفسيين. ابتسم بحذر دون أن يُظهر أسنانه. تحرك «سامي» في كرسيه وعلق ساقه على فخذه الأخرى، فبدا مثل مثلثٍ قائم الزاوية، بدا حادًّا ومتوترًا. مال إلى الأمام، فمال «جوناثان» نحوه. فتح ذراعيه بدلًا من أن يشبكهما. تعلم هذا من دكتورة «ميلاني»، فتح الذراعين معناه أنك مستعد لتلبية احتياجات مرضاك، لكن عقله مشغول بالفعل. يتساءل ما الذي سيفكر فيه بينما يخبره هذا الرجل بقصته الحزينة. يمكنه التخمين أن «سامي» من النوع كثير الكلام. ربما في العشر دقائق التالية، سيفكر في «كريستين» وكيفية منع أي احتمال للرومانسية بينهما قبل أن تظهر.

سأله «سامي»:

- هل تذكر قاعدة الأطباء الخاصة بعدم إفشاء ما سأخبرك به لأي شخص؟

رد «جوناثان»:

- خصوصية المريض.

- نعم، خصوصية المريض. هل تُطبق هذه القاعدة حتى لو أخبرتك بشيءٍ غير شرعي؟

إنها ليست المرة الأولى التي يسمع فيها «جوناثان" هذا السؤال. إنه أمرٌ معتاد لدى الأطباء، عادةً يتبعه اعتراف بتعاطي المخدرات. حافظ على ابتسامته حتى شعر بأنها تجمدت على وجهه.

سأله:

- ماذا تعني بـ»غير شرعي»؟ هل قتلت شخصًا أم تعاطيت مخدرات؟

اندهش الرجل وقال:

- كلاهما، لكن كان هذا منذ سنين والشرطة تعلم عني بالفعل. لست هنا بشأن ذلك، بل لشيءٍ أسوأ بكثير.

في شرق بلفاست فقط، يمكن أن تجد جرائم أسوأ من القتل.

سأله «جوناثان»:

- هل لمست طفلًا؟

لم يؤكد أو ينفي الاتهام، لذلك افترض «جوناثان» أنه ربما أساء إلى أحد الأطفال. لم يعد شاردًا يفكر في «كريستين»، بل أصبح في قمة التركيز وهو يفكر في البروتوكول الذي سيتبعه. سيكتب تقريرًا ليبلغ «مارتي»؛ فهو المسؤول عن برنامج حماية الأطفال. على الأرجح سيتحدث مع الشرطة. إنه منزعجٌ الآن. فمن البشع أن يبدأ صباحه يوم الثلاثاء على جريمة سوء معاملة الأطفال. ليس هذا وحسب، «جوناثان» أناني بطبعه، ويكره أن يضطر للتعامل مع كل الأوراق اللازمة لادعاءٍ كهذا.

لم يلاحظ «سامي» ذعره، بل مال للأمام وقال: - اسمع، عليك إخباري. لو أخبرتك بشيءٍ ما، هل ستذهب وتبلغ الشرطة؟

انتبه «جوناثان» إليه وقال:

- لو أخبرتني أنك ارتكبت فِعلًا غير قانوني والشرطة لا تعلم بشأنه، أو لو اشتبهت بأن شخصًا ما في خطر بسبب تصرفك، فعندها من واجبي إبلاغ الشرطة.

لقد حفظ هذه الجملة عن ظهر قلب، لكن نادرًا ما استخدمها. لقد عرفها بسبب سنين من مشاهدة مسلسلات الـ»بي بي سي» الطبية مثل «Casualty". لكن وهو يقولها الآن، لم يعرف إن كانت صحيحة أم لا.

قال «سامي»:

- صحيح، لا فائدة كبيرة من وجودي هنا إذًا.

- أظنك تحتاج إلى قسٍ للاعتراف يا سيد "أجنيو".

هذا ليس جيدًا. رجع «سامي» للخلف في كرسيه، لمح «جوناثان» بقايا وشمٍ على معصمه. إنه وشم قديم خاص بالجيوش غير النظامية. إنه ليس من الوشوم التي يرسمها شخص يذهب إلى الكنيسة، بل العكس تمامًا.

قال «جوناثان» محاولًا إدارة دفة الحديث مجددًا: - اسمع، هل أستطيع مساعدتك في شيء؟ أعني، من الناحية الطبية؟

جلس «سامي» صامتًا قليلًا وهو يفكر في العرض. أخذ يحرك فكه ببطء بينما يفكر وكأنه يمص حلوى. كاد ينهض مرتين، فيظن «جوناثان» أنه سيرحل، لكنه بقي في مقعده يتنفس ببطء وكأنه يحاول السيطرة على كل نفس. أخيرًا قال: - أنا مكتئب يا دكتور.

اندهش «جوناثان» عندما لمح دمعة صغيرة بحجم بذرة الليمون، تخرج من عين الرجل وتسيل على خده. مد يده تلقائيًّا ليأخذ منديلًا ويناوله للرجل. نظر «سامي» إلى المنديل بحيرة؛ في البداية لم يفهم، ثم فزع وكأن الطبيب يناوله فضلات كلاب. لم يدرك أنه كان يبكي، فهو لا يبكي في العلن أبدًا. مد يده إلى خده ومسح الدمعة. احمرَّ وجهه فورًا؛ إنه يتعذب. بالنسبة إليه، رؤية دموعه مثل رؤيته عاريًا. قال: - آسف.

- لا داعي للاعتذار، لن تصدق عدد الناس الذين يأتون إلى هنا لأسبابك نفسها.

- حتى الرجال؟

- الكثير من الرجال.

قال «سامي» بنبرةٍ فيها شعور بالنقص: - عجيب.

بدأ «جوناثان» يراجع معه أعراض الاكتئاب؛ فقدان الشهية، أرق، خسارة الوزن، زيادة الوزن، قلق. رد «سامي» بالإيجاب على جميعها. ربت على

معدته عندما سأله الطبيب عن خسارة الوزن وسأله: - هل أبدو نحيلًا جدًّا؟

إنه في غرفة الكشف منذ ثمانِ دقائق، يجب على «جوناثان» الانتهاء بسرعة وإلا سيقتحم المريض التالي الغرفة. من الواضح أن الرجل يعاني اكتئابًا. فكر في أن يصف له مضادات اكتئاب، يمكنه أن يصف دواءً يزيل حزنه ليخرج من الغرفة خلال تسعين ثانية بالضبط. ويمكنه أن يقول: «تعالَ الأسبوع المقبل لتستشير الدكتورة أوينز». يستطيع أن يفعل أيًّا من ذلك ولن يُعد تصرفًا سيئًا، لكنه لم يفعل.

لقد تغيَّر شيءٌ ما في «جوناثان» بالفعل منذ جاءت «صوفي» إلى حياته، لطالما التزم بالقواعد وكأنها كتيب إرشادات، كل تصرفٍ يقود للآخر. دائمًا كان يختار الطريق الأسهل. كان يسأل نفسه ماذا سيفعل معظم الناس في موقفٍ كهذا. بغض النظر عن الرغبة أو النية، كان دائمًا يختار ما يختاره معظم الناس. مثل أن يختار دراسة الطب العام بدلًا من التخصصي، ويتناول اللحوم بدلًا من أن يكون نباتيًّا، ويقص شعره بتساوٍ ليكون قصيرًا من الجوانب والخلف، ويرتدي جينز أزرق، وحذاءً جلديًّا تقليديًّا برباط وزخرفة من الأعلى، ويشتري سيارة بأربعة أبواب وصندوق واسع، ويذهب إلى سوبر ماركت «تيسكو» بدلًا من «سينسبري» و»U2" أو علامات تجارية شهيرة أخرى. لا علاقة لهذا بالكسل، بل الخوف كان العامل الأساسي دومًا. مع «جوناثان»، كانت المسألة هي رغبته في التوافق مع محيطه، أو بالأحرى الخوف والهلع الشديد من أن يكون منبوذًا. تغيرت الأمور الآن ولا يمكنه منع نفسه؛ أصبح لديه آراء وأذواق فيما يحب ويكره، لا يمكن لطبعه المتحفظ كبح كل هذا. شعر بأنه يتحرك، مثل سيارة أو قطار أو أي شيء يندفع بسرعةٍ رهيبة وقد يسبب ضررًا.

لم يقل «جوناثان»: «هل تفضل أن أصف لك مضادًا للاكتئاب يا سيد «أجنيو»؟» ولم يقل: «تعالَ الأسبوع المقبل وسترشدك دكتورة «أوينز» لطبيبٍ مختص». لم يقل حتى: «كل ما تقوله لي قد يُستخدم ضدك يا سامي». بدلًا من ذلك، تحدث بلطف.

- هل يوجد ما يحبطك يا "سامي"؟ هل هو الشيء نفسه الذي لا يمكنك إخباري عنه؟

رد:

- نعم.

لاحظ «جوناثان» أن أكتافه ارتفعت قليلًا، فأدرك أن «سامي» شعر بحملٍ ينزاح عن عاتقه عندما اعترف. تساءل عن كيفية الشعور عندما تعترف بشيء

وتتركه خلفك وتنساه، بدلًا من الرجوع إليه مرارًا وتكرارًا مثل جرحٍ يحكك. إنه يفكر في «صوفي» وسرها الخفي في كل مرة يغادر البيت. ربما سترتفع أكتافه براحةٍ هكذا لو استطاع التحدث مع شخصٍ آخر عن كل المخاوف التي تثيرها فيه، ولو لمرةٍ واحدة.

قال بطريقةٍ غير مهنية على الإطلاق بالنسبة لطبيب: - تبًا للقواعد، لن أخبر أحدًا ما تقول. سرك في أمانٍ معي.

سأله «سامي»:

- هل تعدني يا دكتور؟

- أعدك. هيا، أخبرني ما الشيء الفظيع الذي ارتكبته؟ سأساعدك أن تتخلص من همك.

اعتدل «سامي» في كرسيه وشبك ذراعيه؛ وضع الذراع اليسرى فوق اليمنى، تشبه ذراعاه شماعة الملابس. قال: - لقد فعلت أمورًا فظيعة في شبابي يا دكتور. لن أخوض فيها لكنني متأكد أنه يمكنك التخمين. كان هذا في فترة «المتاعب»، تعرف ما أعنيه. ظننت تلك الفترة انتهت من حياتي، أردت أن أتغير، قررت ألا أؤذي أحدًا مجددًا.

- هل آذيت أحدًا؟

أومأ «سامي» ونزلت دموعه مجددًا، فرك عينيه بخشونةٍ بكم قميصه.

- من أذيت؟

- أذيت ابني يا دكتور.

- هل مات؟

- لا، ليس ميتًا. ليته كان كذلك.

- هل تحرشت به يا "سامي"؟

- بالطبع لم أتحرش به، أنا لست منحرفًا.

تجعد وجهه بشدة وهو يقول هذا وكأنه يمص ليمونة لاذعة.

سأله «جوناثان»:

- هل صفعته؟ هل ضربته؟ عليك إخباري بما فعلت لكي أستطيع مساعدتك يا "ساموبل".

- أنا لم أرفع يدي على ابني أبدًا، لكنني أذيته.

بدأ «جوناثان» يفقد صبره، تخيل باقي المرضى مكدسين في غرفة الانتظار وكأنهم في ساعة الذروة في زحام مروري في طريق «ويست لينك». قرص طرف أذنه بقوة لكي يعيده الألم إلى الواقع. بدأ يتساءل إن كان «أجنيو» من الرجال كبار السن المتذمرين من كل شيء. وتساءل إن كان فات الأوان على إيقاف اعترافه ووصف دواء «بروزاك» له. مد يده وقرَّب دفتر الروشتات منه.

ما زال «سامي» يتحدث:

- أنا قلقٌ جدًّا على ابني يا دكتور. لقد أصبح مثلي، لكن في الماضي وليس الحاضر. بل أصبح أسوأ مني؛ سيؤذي شخصًا ما على الأرجح. سيؤذي الكثير من الناس وستكون غلطتي.

مد «جوناثان» يده إلى دفتر الروشتات مجددًا وقال: - ماذا تعني بأنه سيؤذي شخصًا ما؟

رد «سامي» وقد بدأ ينهار:

- الأمر خرج عن السيطرة؛ هناك الكثير من الحرائق، ولا أعرف متى ستنتهي. يجب أن أفعل شيئًا. يجب أن أوقفه قبل أن تسوء الأمور. إنها غلطتي لأنه أصبح هكذا.

اختفى الهدوء من على وجهه، وأصبح متوترًا تمامًا ويضم قبضتيه بقوة، ثم نهض عن الكرسي البلاستيك وخرج من الباب إلى الممر. لم يقل حتى وداعًا، وكذلك «جوناثان»، نهض من على مكتبه وأغلق الباب. لم يندهش من تصرف «أجنيو»، فالمرضى النفسيون هكذا عادةً. لا يمكن التوقع بتصرفات شخص مجنون في أثناء جلسةٍ طبية. ذات مرة، حاولت سيدة عجوز تقبيل فمه بينما يقيس ضغط دمها، كما تعرض للصفع والدفع والسب. وفي كثير من الأحيان، البصق. لهذا فالمغادرة دون داعٍ تعد شيئًا عاديًّا.

نظر «جوناثان» إلى يده وتحتها دفتر الروشتات. لقد كتب عليها دون أن يشعر كلمة «آسف» بحروفٍ كبيرة، وكأن الندم يمكن وصفه في روشتة كالعلاج. تساءل من الذي يأسف بالضبط. هو؟ أم «سامي»؟ أم أن أحدهما يأسف على الآخر؟ كل الاختيارات ممكنة.

مزق الورقة ووضعها في جيبه وحاول نسيان «أجنيو». انتقل للمريض التالي والتالي والتالي. هذا الأخير كان مصابًا بالسكري.

لم يمكنه نسيان «أجنيو» أو الورقة التي كتب عليها كلمة «آسف»، وتستقر في جيب بنطاله الآن. تلمسها أصابعه في كل مرة يبحث عن منديل أو علكة، حملها معه إلى المنزل بعد انتهاء العمل. عندما دخل من الباب، وجد المخاوف القديمة تنتظره بجانب بضعة مخاوف جديدة، مثل الخوف من حب الناس،

والخوف من إيذاء الناس الذين يحبهم. ترك حقيبته عند طاولة التليفون، وصعد السلم كل ثلاث خطوات بقفزة واحدة. حمل «صوفي» التي كانت نائمة وضمها إلى صدره، فأخذت تصرخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

أجنحة صغيرة

وصلت «إيلا بيني» إلى المستشفى في اللحظة المناسبة تمامًا، لو تأخَّرَت يومين آخرين كنت سأفوتها. ولو أكثر من ذلك سيكون قد فات الأوان تمامًا.

لست معروفًا بمهارتي مع الأطفال الصغار. ذات مرة بينما أقيس نبض طفلٍ صغير، أصدرت له صوت مواء كأنني أنادي على قطة. لم تحب والدته ذلك، وقدمت شكوى ضدي ونقلت عائلتها كلها لطبيبٍ آخر. وقعت حوادث أخرى من بعدها. لا أتذكر أبدًا تدفئة السماعة الطبية قبل وضعها على صدر طفل، هناك كريم لتسكين ألم الإبرة يتم وضعه قبل الحقن بقليل، لكنني دائمًا أنسى الانتظار حتى يبدأ مفعوله. أحيانًا أخاطب مرضاي الصغار برسميةٍ كالكبار، فأقول «سيد» أو «سيدة»، وكأنني طبيب من العصر الفيكتوري. تعرف موظفات الاستقبال كل هذا. إنهن يعرفن كل ما يحدث في المستشفى، هن محترفات في هذا المجال ومجالات أخرى. ما لا يسمعنه مباشرةً يستنتجنه من الأحاديث التي تلتقطها آذانهن، ومن الطريقة التي يدخل أو يخرج بها بعض المرضى الغاضبين. لهذا يُدخلن الأطفال الصغار والمرضى الحساسين لأطباءٍ غيري لا يُبكون الأطفال، ولا يُزعجون الأمهات. حتى «مارتي» الذي هو رجلٌ عجوز بنظارة قبيحة ووجه غائر منفر، يعدُّ صديقًا للأطفال أكثر مني. ربما سيغيرون نظرتهن عني الآن بعدما أصبحت أبًا.

لو لم يعلق الأطباء الشباب في البيت بسبب الحرائق، ولو لم يذهب «مارتي» لطبيب الأسنان لحشو ضرسه، لما دخلت «إيلا بيني» لمكتبي أبدًا. لو جاءت بعد يومين، لكان الأوان قد فات ولما غيَّرَت حياتي.

بعد يومين من اليوم، سأعود إلى البيت من العمل باكرًا. سيكون معي بيتزا بلحم الخنزير والأناناس مع مشروم إضافي على أحد نصفيها، ستقابلني «كريستين» عند الباب ومعها ورقة مكتوب فيها: «آسفة، لا يمكنني البقاء لتناول البيتزا، فلديَّ موعد». سأشعر بالصدمة والارتياح في الوقت نفسه عندما تقول إن لديها موعدًا. مع ذلك، سأظل أحاول رفضها بلطف. لوهلةٍ سأشعر بالحرج الشديد، سأقف على بابي وأتذكر كل المواقف التي كنت واثقًا بأنها كانت تغازلني؛ مثل أن تضع يدها على كتفي أو تبتسم لي، وهناك ذلك القميص الأحمر الذي ارتدته ثلاث مرات بالفعل. إن ياقته منخفضة وتكشف الكثير من صدرها الصغير. عندها سأستنتج ما استنتجته من قبل، وهو أنه لا يمكن الثقة بالنساء ولا يمكن فهمهن. سأرفع لـ»كريستين» إبهاميَّ الاثنين وسأبتسم ابتسامةً عريضة، هذه هي إشارتنا لوصف «السرور

الشديد». أما في هذه المناسبة فتعني أيضًا «لا أحد يستحق ذلك أفضل منكِ». سأهنئها بصدق. بغض النظر عن «صوفي»، أنا أحب «كريستين» بقدر ما أحببت أي شخص قابلته.

سأنظر يمينًا ويسارًا ثم سأتحرك جانبًا لأسمح لـ»كريستين» بالمرور والذهاب إلى موعدها، لكنها لن تخرج بعد، بل ستشير إليَّ لأدخل المطبخ ثم ستخرج المفكرة من الدرج حيث نتركها دائمًا وتكتب: "ضحكت «صوفي» اليوم كثيرًا»

سنبتسم بسعادة عند قراءة هذه الجملة، تمامًا مثلما تتثاءب تلقائيًّا إذا قرأت كلمة «تثاؤب».

ستواصل «كريستين» الكتابة:

"سيكون عليك أن تدون سجل ملاحظات عندما تبدأ "صوفي" في الذهاب لطبيب تخاطب"

بعد ذلك ستأخذ شريحة بيتزا من النصف الخالي من المشروم، وتقبلني على خدي ثم تذهب إلى موعدها وأمسيتها.

سأظل في المطبخ نصف ساعة حاملًا المفكرة بين يديَّ، بينما تبرد البيتزا وتتيبس في علبتها. سأقرأ كلماتها مرارًا وتكرارًا، وأتساءل إن كان عليَّ القلق أم لا. سأمزق الورقة من المفكرة وأضعها في جيبي وأشعر بها تتكور على فخذي مع الورقة الأخرى، التي وضعتها في جيبي يوم الثلاثاء. سيبدو لي وكأن زمنًا قد مر. فأنا كنت سعيدًا ومتفائلًا يوم الثلاثاء. سأخرج الورقة القديمة وأفردها وأقرأ كلمة «آسف» التي كتبتها عليها. ستبدو عندها مثل رسائل مخفية في «بسكويت الحظ» وتحققت.

"آسف".

سأتأكد وقتها أن كل الأمور الجيدة تنتهي، سأضطر لتولي أمر «صوفي» بنفسي. سأشرب كأسين لأهدأ، لكنهما لن يُهدآ خوفي. لن أشرب الثالث لأنني أب وعليَّ أن أكون مسؤولًا، عليَّ التفكير بـ»صوفي»، إنها نائمة بالأعلى. سأشعر أنني رجلٌ سيئ.

لكن كل هذا سيحدث بعد يومين. اليوم هو الأربعاء، و»إيلا بيني» ستدخل مكتبي في اللحظة المناسبة تمامًا.

دخلت الطفلة الغرفة أولًا، وأمها خلفها بخطوتين تحمل معطف مطر مشمع على ذراعها، وكأنها نادلة تحمل منشفة. رفعت ابنتها إلى سرير الكشف على الرغم من أنها كبيرة كفاية لتصعد وحدها. نظرت المرأة إلى الغرفة، ثم جلست بانزعاجٍ على الكرسي البلاستيك بجانب مكتبي. شعرها أشقر مقصف

يتدلى بخصلات تحيط بوجهها، مصبوغ بلون أصفر يشبه لون بقع النيكوتين. بدأت جذوره السوداء تظهر عند فروة الرأس. ترتدي معطفًا رخيصًا بلون وردي لامع لدرجة أن وجهها يبدو شاحبًا مقارنةً به. يمكن أن يكون سنها أي رقم بين الثامنة عشر والأربعين. من الصعب التحديد أحيانًا مع نساء المنطقة الشرقية، خاصةً عندما يكُن ثملات.

الطفلة لا تشبه أمها؛ شعرها بلون النحاس وأملس، يتدلى على جانبي وجهها كالشلال. عيناها زرقاوان كالمحيط، ونادرًا ما تطرفان. ترتدي حذاء مطر وشالًا، على الرغم من أن الجو ليس شتويًّا. وجهها أبيض كورق التصوير، لكن لا يمكن وصفه بالشاحب. فكلمة «شاحب» وصفٌ سلبي ويوحي بنقص اللون من وجهها، إنما وجهها أبيض لدرجة منيرة، مثل البورسلين أو الثلج، أو الهالة المشعة من المسيح. إنها متوهجة، من الصعب عليَّ أن أتخيل هذه المخلوقة البيضاء وهي تخرج من أمها. ربما هي أحد هؤلاء الأطفال الذين يمتصون الحياة من كل من يلمسونه. تذكرت أسطورة "ميداس"، أعلم أنه ليس تشبيهًا دقيقًا، لكنه ما جاء ببالي. فهو يحول كل ما يلمسه إلى ذهب حتى لو كان إنسانًا، وبالتالي يفقد حياته.

اسم الطفلة «إيلا بيني». إنها في السابعة، تكاد تتم الثامنة. عرفت هذا لأنها واصلت إخباري به. إنها تخبرني الكثير من الأشياء دون أن أسألها؛ ستشتري كلبًا في عيد الميلاد. ليس جروًا، بل كلبًا، إنها ثاني أطول تلميذة في الفصل، تستطيع العد حتى عشرين بالإسبانية. وأوضحتْ هذا بحماسٍ شديد: - Uno, dos, tres, cuatro, cinco, seis…

ليس لديَّ فرصة لأتحدث حتى.

- Siete, ocho, nueve, diez…

نظرتُ إلى السيدة «بيني» ورفعت حاجبي وكأنني أطلب منها المساعدة.

قاطعت السيدة «بيني» ابنتها وقالت:

- اهدئي الآن يا «إيلا» ودعي الدكتور يتحدث.

صمتت «إيلا». لوهلةٍ، نسيت أنني الطبيب، هذا يحدث أحيانًا في أثناء الكشف. عليَّ أن أسأل عن صحة الطفل ومما يشكو، جلست في كرسي أنظر إلى حذاء المطر الأصفر الذي ترتديه. انعكس نور اللمبة عليه مثلما تنعكس الشمس على بركة. أود سؤالها عن لونها المفضل، وعن الاسم الذي ستختاره لكلبها الذي ستشتريه. وجود هذه الطفلة غيَّر أجواء مكتبي؛ أصبح أكثر دفئًا، والهواء أخف وأسهل للتنفس. صار فجأة مكانًا لا أمانع الراحة فيه، مثلما يحب شخصٌ ما البقاء في السرير قليلًا بعد الاستيقاظ.

سألتها على الرغم من معرفتي بأنه لا فائدة: - كيف أساعدكِ يا "إيلا"؟

لا يوجد ما يمكنني فعله لفتاة مضيئة، بل من المفترض أن أسألها ما الذي يمكنها فعله لي، وكم بقي لي معها من وقت.

ابتسمت «إيلا بيني» لي. ابتسامتها ساحرة. قالت: - لقد كسرت ذراعي، لكن أظنهم وضعوا الجبيرة بقوة أكثر من اللازم حتى ازرقت أصابعي.

ثم حركت أصابعها لتريني. قلت:

- لا يمكننا السماح بهذا. هل تمانعين لو فحصت ذراعكِ؟

مدت ذراعها اليمنى إليَّ، فرأيت الطرف الظاهر من الجبيرة البيضاء من تحت الشال. أصابعها رمادية أكثر من المفروض، هذا ليس مبشرًا. سألتها: - هل يمكن أن تخلعي هذا الشال يا "إيلا"؟

صاحت السيدة «بيني»:

- لا!

نهضت من مقعدها فجأة، فسقطت حقيبتها على الأرض ووقع منها مناديل، وقلم حبر، ونقود معدنية. نزلت على ركبتيها لتجمع أغراضها.

قالت «إيلا بيني»:

- بالتأكيد.

خلعت الشال عبر رأسها مثل الـ»بلوفر»، فأصبحت عارية من خصرها للأعلى. ما زال بطنها مستديرًا مثل بطن الأطفال، لكن بدأ صدرها ينمو استعدادًا لظهور نهديها. إنها بيضاء كالحليب، وصدرها صافٍ كوجهها.

من المستحيل ألا يحدق بها أي شخص.

فردت ذراعيها مثل ديناصور مجنح صغير، فرأيت جناحين حقيقيين وسليمين يمتدان بين ذراعيها وجانبيَّ جسدها.

من المستحيل فعلًا ألا أحدق الآن.

وجدت نفسي أنهض من على كرسيَّ، وأقترب لألقي نظرة عن قرب. لم أنوِ فعل هذا، بل كان رد فعلٍ تلقائيًّا مثل العطس أو البكاء عند تقطيع بصلة. وقفت على بعد بوصات قليلة من إبطيها ونظرت إليها بذهولٍ شديد. مررت إصبعي على جناحها الأيسر. بدت والدة «إيلا» وكأنها على وشك التدخل ثم تراجعت. ألقت جسدها على الكرسي مجددًا وراقبت، كان عليَّ طلب إذنها

أولًا، لكنني لا أفكر بعقلي الآن. أضغط على أسناني بينما أتنفس فيخرج الهواء من بينها كالصفير. نسيت كيف أتحدث.

رفعت «إيلا بيني» ذراعيها لأراهما، لقد فعلت هذا من قبل. انفرد جناحاها عن آخرهما مثل الأكورديون. فأصبحت كأنها طائر يرتدي بنطال چينز أزرق، وحذاء برقبة. أمسكت معصمها السليم وفردت ذراعها تمامًا، ثم فحصتها بدقة بنظراتي، نسيت أنها طفلة. إنها مجرد مريضة بالنسبة لي، بل أقل من ذلك، إنها فصيلة مختلفة. تسارع عقلي ليأخذ ملاحظات. لديَّ ما يكفي لكتابة كتاب.

هناك عظمٌ صغير ممتد عبر كل جناح بمسافةٍ متساوية، يمتد بين العظم غشاء رفيع من الجلد. إنه مشدود بقوة ويكاد يكون شفافًا في بعض الأجزاء، لكنه مع ذلك قوي ويحمل بعض اللحم، يشبه قطعة الجلد الممتدة بين الإبهام والسبابة. هناك درجة من اللون الأشقر على كل جناح. نفخت بلطف على سطح الجلد، فوقفت الشعيرات الصغيرة التي تغلفه بالكامل مثل قشرة الذرة. أرى مكان اتصال الجناحين بذراعيها. اللحم أسمك وأنعم هناك. لمست هذا الجزء بطرف إصبعي المغطى بالقفاز، فارتجفت. ربما شعرت بالألم أو الصدمة من برودة يدي. أخبرني الكثيرون أنها باردة بالنسبة ليد طبيب.

قالت:

- لا يمكنني الطيران.

لم أسألها عن ذلك لكنني أتساءل بالفعل. سحبت ذراعها السليمة مني وطوتها على صدرها، بينما تركت اليد الأخرى تتدلى بجانبها. عدت لرشدي ولمقعدي. أشعر أن الغرفة تدور بي، مددت يدي لمفكرتي على أمل أن تساعدني أدواتي المكتبية على الهدوء والثبات.

قالت أمها:

- بل يمكنكِ يا «إيلا»، لكنكِ لا تريدين.

- لا أستطيع يا أمي. تعرفين أنني حاولت. الأجنحة لا تعمل، أستطيع فعل أشياء أخرى لكن ليس الطيران.

استدارت لي السيدة «بيني» وقالت:

- آسفة يا دكتور، كان عليَّ شرح الموقف. تمنيت أن نعالج معصم «إيلا» دون أن ندخل في موضوع الأجنحة. لكن كما ترى، تفعل «إيلا» ما تريد دون اعتبار العواقب.

لديَّ مائة ألف سؤال. أريد تسجيل المحادثة، والتقاط صور، وجمع كل موظفات الاستقبال فيِ مكتبي ليشهدِن هذه المعجزة. فكرت في الاتصال

بالـ»بي بي سي». بدلًا من ذلك، سألتها: - هل لديها هذان الجناحان منذ البداية؟

أجابت سيدة «بيني»:

- لقد وُلدت بهما.

صحت:

- مدهش!

الآن أبدو مثل دكتور في فيلم كرتون.

واصلت سيدة «بيني»:

- إنها ليست أول حالة في عائلتنا، أنا من «كوشيندول». لا أقول إن كل الأطفال مجنحون هناك، لكن ليس غريبًا في الريف أن يولد طفل هكذا من كل جيل أو اثنين. كان يعتمد المزارعون عليهم للطيران فوق الوديان ومراقبة الغنم عندما تشرد عن الجبال بسبب الجو. لم يعد هذا يحدث الآن، فمعظم المزارعين لديهم سيارات دفعٍ رباعي، لكن جينات الطيران متأصلة في أهل الريف. حتى الآن من العاديً أن يسمعوا عن طفلٍ مجنح. لم أنصدم حين ولدت «إيلا» بجناحين. لديَّ قريبة مجنحة، كاد زوجها يفقد وعيه حين علم. إنه من شرق بلفاست، ولم يسمع أبدًا عن الأطفال المجنحين، لقد ظنها كائنًا متحولًا. استغرق وقتًا طويلًا ليعتاد على هذه المعجزة.

سألتها:

- وهل يمكنها الطيران؟

- بالطبع يمكنها الطيران. ألا ترى الأجنحة؟

عارضت «إيلا» والدتها:

- لا، لا يمكنني الطيران، لكنهم يواصلون إرغامي للقفز من فوق سلالم وما شابه ليدربوني.

- الأطفال المجنحون كالطيور يا دكتور. أحيانًا عليك إعطاؤهم دفعة لتحفيز أجنحتهم.

- هل هذا ما كسر معصمكِ يا «إيلا»؟

- نعم، دفعني أبي من على شجرة فسقطت على العشب، سقطت بشكلٍ سخيف. أصدر ذراعي صوتًا يشبه تكسير «الكورن فليكس». أدركت فورًا أنها كسرت.

- ومن عالجكِ؟

ردت السيدة «بيني»:

- هناك طبيب في مستشفى "روبال" نذهب إليه دائمًا، اسمه دكتور «كانوري». إنه هندي، لكن لهجته الإنجليزية مفهومة. إنه يعتني بكل "الأطفال المنحوسين"، معظم الأطباء لا يعرفون بوجودهم أصلًا. يقول دكتور «كانوري» إن هكذا أفضل؛ فالناس لا يعرفون كيفية التعامل معهم. الأطباء الآخرون على الأرجح سيجرون عليهم تجارب، أو يعرضونهم على التليفزيون، أو ما شابه. بالطبع هناك "أطفال منحوسون" في الهند أكثر من هنا. لكن دكتور «كانوري» استطاع تتبع بعضهم حتى الآن. عندما ولدت «إيلا»، كانت هناك مجموعة دعم واحدة في بلفاست. أما الآن فهناك اثنان، واحدة في الشرق وأخرى في الجنوب، ويفكرون في عمل واحدة وسط المدينة أيضًا. بالطبع نذهب إلى مجموعة الشرق لأنها أقرب.

شبكت ذراعيَّ ثم وضعت ساقًا على الأخرى. ارتحت عندما شعرت بجسدي يضغط على نفسه، لم أعد أشعر بأنني في عالم الواقع الآن.

سألتها:

- "الأطفال المنحوسون"؟

كادت السيدة «بيني» تبدأ بتوضيح طويل وممل للمعنى، لكن «إيلا» ردت فورًا: - تقصد الأطفال غير الطبيعيين.

- يعني من لديهم احتياجات خاصة؟

- بل قدرات خاصة.

- مثل الطيران؟

- أخبرتك أنه لا يمكنني الطيران. لديَّ قدرات أخرى أفضل من الطيران؛ أستطيع إحياء الأشياء.

- مثل المسيح؟

- لا، لا يمكنني فعل هذا مع الأشياء الكبيرة كالإنسان، أو الأشياء التي ماتت منذ فترة طويلة. لكنني أفعله مع الحشرات والديدان، وذات مرة مع هامستر، ومع الكثير من النباتات. كل ما أفعله هو لمس الأشياء فتصحو.

قاطعتها السيدة «بيني»:

- كفي عن الهراء يا "إيلا"، لا يمكنكِ إحياء الأشياء. لديكِ جناحان، من المفترض أن تطيري. الأشياء الأخرى من نسج خيالها يا دكتور.

قلت محاولًا استيعاب المعلومات:

- إذًا، دعيني أستوضح الأمر. تقولين إن هناك الكثير من الأطفال المجنحين في بلفاست.

أوضحت السيدة «بيني»:

- ليس حقًا، هناك بعض الأطفال المجنحين، واثنان يطفوان على الماء، وواحد يعلو في الهواء على ارتفاع نصف قدم من الأرض. ليس كثيرًا كما تظن، لكن هناك بعض الأطفال ذوي القدرات المختلفة.

- إذًا، هناك الكثير من الأطفال ذوي القدرات المختلفة في أنحاء بلفاست، ودكتور "كانوري" يعتني بهم.

- يعتني بهم بمعنى أنه يجمعنا معًا كل أسبوعين لندعم بعضنا، هذه الجلسات للآباء أكثر منها للأبناء؛ فليس سهلًا أن تكون والدًا لأحد "الأطفال المنحوسين".

- لماذا تطلقون عليهم «أطفال منحوسين"؟

- قرر دكتور "كانوري" أنه يجب تسميتهم هكذا. أظنها ترجمة للكلمة الهندية، في الهند يتركون «الأطفال المنحوسين" ليموتوا جوعًا في المجاري وصناديق القمامة. يعدهم الناس لعنات. أما دكتور «كانوري» فيفضل تسميتهم بالمعجزات.

- هل هناك "أطفال منحوسون" في شرق بلفاست؟

- هناك تقريبًا عشرون واحدًا معروف، بعضهم يملك قدرات أفضل من الآخرين. بصراحة يا دكتور «موراي»، هناك اثنان منهم لا يجب تصنيفهم ضمن «الأطفال المنحوسين" أبدًا، مثل الفتاة التي تستطيع كتم نفسها طويلًا تحت الماء.

- بالكاد يمكن وصف ذلك بقدرة خاصة. على الأرجح حجم رئتيها أكبر من المعتاد.

أضافت «إيلا»:

- وهناك فتى الأشجار ذاك.

- بالضبط يا عزيزتي. ما المميز في الجلوس على شجرة لخمس سنوات؟ نتقابل مساء كل خميس في النادي الاجتماعي، أحيانًا يأتي الأطفال وأحيانًا

يكون الآباء فقط. إنها نعمة أن تجد من تتحدث معه ويفهمك.

جلست في كرسي وأرجعت ظهري للخلف بينما أنظر إلى السيدة «بيني». تبدو جادة جدًّا، لقد اعتادت على ألا يصدقها أحد، هذا واضح. إنها تحمل حقيبتها بوضعية دفاع وكأنها درع. نظرتُ إلى «إيلا بيني» وإلى الغشاء العجيب المتدلي من ذراعها. مصباح الغرفة ينعكس عليها فيجعل أجنحتها شفافة، ويسهل عليَّ رؤية العروق الزرقاء الصغيرة المنتشرة تحت جلدها. إنها أفضل ما حدث لي بعد «كريستين»، بل من المحتمل أن تكون أفضل من «كريستين».

قالت السيدة «بيني»:

- تظننا مجانين، أليس كذلك؟ كل طبيب تحدثنا معه ظننا مجانين، ما عدا دكتور «كانوري».

وقفت واستدرت إلى السيدة «بيني» وقلت:

- لا، بالتأكيد لا أظنكِ مجنونة.

وقفت تلقائيًّا عندما وقفت. نظرنا لبعضنا بشدة. أدركت «إيلا» أنه لا يجب عليها الكلام في هذه اللحظة. لذلك راقبتنا من على سرير الكشف. أنا تحركت أولًا قبل أن أفكر حتى في الحركة. غريزتي قادتني، عانقت السيدة «بيني» دون تفكير. في البداية جفلتْ من عناقي، وتجمدتْ كجدار أو كقالب طوب أو أي شيءٍ صلب، ثم أرختْ جسدها وعانقتني.

همست في أذنها بصوتٍ خافت لكيلا تسمع «إيلا»: - أظن أن لديَّ «طفلة منحوسة" أيضًا.

بعد ذلك تنفستُ بعمقٍ وراحة لأول مرة منذ ثلاثة أشهر. عندما انتهى العناق، وجدتُ السيدة «بيني» تبكي، ناولتها منديلًا من العلبة التي على المكتب، وهي أيضًا ناولتني واحدًا. لم أدرك أنني كنت أبكي أيضًا.

لاحقًا أرخيت الجبيرة حول ذراع «إيلا». بينما كانت مشغولة بالضمادات المربوطة بقوة على ذراعها، مالت السيدة «بيني» نحوي وهمستْ: - إنها ليست غلطتك، تذكر أنها ليست غلطتك.

حاولت تذكر ذلك، لكنه صعب.

كتبت السيدة «بيني» على ورقة الاتجاهات إلى النادي الاجتماعي، حيث يلتقي "الأطفال المنحوسون" في شرق بلفاست. عرضت عليَّ اصطحابي إن لم أرد الذهاب وحدي. قالت: - نادني "كاتلين".

ناديتها كذلك مرتين بالفعل قبل أن تخرج من مكتبي. لم تسألني عن «صوفي»، وهذا أسعدني.

بعدما غادرت «بيني»، ألغيت موعد مريضي التالي. هذا ليس تصرفًا مهنيًّا أبدًا. أخبرت موظفة الاستقبال أنني مصابٌ بصداع شديد وعليَّ الاستلقاء لمدة ساعة. استلقيت على سرير الكشف وظللت أبكي. حاولت أن أوقف نفسي بفرك إبهاميَّ في عينيَّ، لكن لم أستطع. تساءلت إن كانت هذه هي دموع الارتياح. لست حزينًا، لكنني لست سعيدًا أيضًا. أشعر كأن الخوف انتقل لجزءٍ آخر في جسدي بعدما كان يثقل صدري، والآن أصبحت رئتاي متفرغتين للتنفس وحسب.

يوجد دولاب ملفات فوق رأسي، وفوقه أصيص نبات كان ذابلًا، لكن يبدو أنه بدأ ينتعش. أعلم أن «إيلا بيني» لمستها، أو ربما لا تحتاج إلى لمس الأشياء مباشرةً. ربما يكفيها النظر إليها أو التفكير فيها، مثلما حدث مع المسيح والرجل الذي ماتت طفلته على بعد أميال، ثم عادت للحياة فجأة. أشعر وكأن معجزة حدثت في مكتبي، وعليَّ الجلوس ساعة أو اثنتين لأتبارك بأثرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

”لويس“، مصاصة الدماء النهارية

الأمر أسهل كثيرًا في الصيف؛ فمعظم الليالي لا تكون حالكة الظلام قبل الساعة العاشرة أو بعدها. يجب أن تلزم «لويس» الحذر. بمجرد أن يبدأ الغروب ويطل على الأسطح، يبدأ جسدها بالارتجاف، تشعر بوخزٍ في أسنانها وألم في أظفارها، تزداد حرارة جسدها وكأنه يشتعل إذا بقيت في الظلام. ربما يشتعل حقًا لو بقيت في الظلام لوقتٍ كافٍ. لكنها لم تجرؤ على المخاطرة. حسب الأفلام، يحترق مصاص الدماء فورًا إذا تعرض للشمس. يظل يصرخ بينما يتجعد جسده ثم لا يبقى منه إلا كومة من الرماد على الأرض. على الأرجح يتبخرون.

في الأفلام، يخاف أشباه «لويس» من نور الشمس، لكن «لويس» مختلفة. حالتها معكوسة تمامًا. إنها لا تستغني عن النور، مثل ضوء الشمس أو المصابيح، حتى نور الثلاجة البارد سيفي بالغرض. الظلام هو ما تخشاه. تحت ضوء النهار، يمكنها أن تذهب إلى المدرسة، وتقابل أصدقاءها، وتخرج معهم إلى المركز التجاري المتوهج بالأنوار. لقد اكتسب جسدها سمرة دائمة، لكن كل فتيات بلفاست هكذا. خلال النهار، يمكن أن تظنها فتاة عادية بكل سهولة.

أما في الليل، تظل «لويس» حبيسة المنزل، الليل بالنسبة لها سور يحيط بها من كل جانب. لا يجب أن تفكر في الخروج أصلًا، ولا حتى مع مصباح بقوة ستين وات مسلط على وجهها. تجلس في غرفتها تلتهم لحمًا مفرومًا نيئًا. لقد اعتادت على ترويض جوعها باللحم الجاهز، فهي لن تنحدر لمستوى عض أحد، الفكرة بذاتها تنفرها. لن تمص دماء أشخاص غرباء لا تعرف أين كانوا أو ما إذا كانوا نظيفين. تقضي ليلها في نوبات انفعالية وتشنجات. ليس سهلًا أن تنام تحت أنوار شديدة، ومصباح المكتب موجه إلى وجهك مباشرةً، لكن «لويس» بدأت تعتاد على ذلك. إنها تقضي كل لحظة من الصيف في الخارج. تركب الدراجة، تجري، تأخذ حمام شمس في الحديقة الخلفية بينما ترتدي «بيكيني». الشتاء هنا يبدو أبديًّا. إنه طويلٌ جدًّا. بلفاست ليست مكانًا يناسب مصاصة دماء نهارية. أحيانًا تقضي «لويس» أسابيع عاجزة عن مغادرة البيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12
أحاديث

الساعة الثامنة مساءً يوم السبت، اقترب أغسطس. "النيران العالية" تحتل الأخبار في كل البلاد المهمة، وبدت رائحة المدينة كرائحة محرقة الجثث. كل شخصٍ عاقل غادر إلى مكانٍ آخر، فقط من ليس لديهم مكان يذهبون إليه بقوا في المدينة، وحاولوا العيش بصورةٍ طبيعية إلى حدٍ ما. رجال السياسة فقدوا الأمل تقريبًا، لا يعرفون متى ينتهي كل هذا؛ الحرائق، الشغب، الحرارة الحارقة. ولا توجد وسيلة لتعقب «مشعل النيران».

جلس «سامي» على أعلى درجة في سلم بيته. هناك قطعتان من بسكويت الشوكولاتة في جيب قميصه، واحدة زرقاء وأخرى برتقالية. لا يتذكر إن كان «مارك» يحب بسكويت الشوكولاتة أم لا، قد يكون «كريستوفر» أو «لورين». بعدما كبر أولاده، أصبح ينسى ما يفضلونه، وأحيانًا يخلط بين أذواقهم وأذواق الأطفال الذين في المسلسلات التليفزيونية. بدأ البسكويت يذوب في جيبه بسبب حرارة جسده، فكر في تركه على السلم وأخذه لاحقًا بعد أن يلتقي «مارك». تمنى لو أحضر معه صينية؛ سيفيده لو تشبث بشيءٍ ما.

أحضر «سامي» كوبين من الشاي، واحدًا له وآخر لـ«مارك». أراد أن يجعل اللقاء جادًّا ومميزًا، فاختار أكوابًا جيدة؛ أي الأكواب التي اشتروها كطقمٍ واحد، بدلًا من الأكواب التي حصلوا عليها كهدية مجانية مع بيض الشوكولاتة الخاص بعيد الفصح في العام الماضي. يشربون في هذه الأكواب حين يكونون وحدهم بلا ضيوف. حصلوا على أكواب هدية من علب «كادبوري» و«كيت كات» و«كرانشي» و«مارس». لديهم طقم كامل تقريبًا، لكنه اليوم يستخدم أكوابًا فاخرة مخططة. شاي «سامي» مضاف عليه لبن وسكر، أما شاي «مارك» سادة. حذرته «باميلا» من إضافة لبن أو سكر لـ«مارك»، لأنه أصبح نباتيًّا هذه الفترة. أراد أن يقول لها بأن السكر واللبن لا علاقة لهما بذلك، لكنه صمت. لقد اعتاد على التزام الصمت مع «باميلا».

إنها ليست عبقرية مثلًا لكن لديها حسًّا سليمًا، أما الآن فيبدو أن المخاوف تتلاعب بعقلها باستمرار. معظم الوقت تبدو شاردة تمامًا ولا تستمتع إليك. هذا لا يعني أن «سامي» كان دائمًا منجذبًا لعقل زوجته، بل أول ما جذبه إليها كان وجهها. في بداية التسعينيات، كانت نسخة طبق الأصل من الأميرة «ديانا». أحب الطريقة التي تنظر بها إليه بتعالٍ وهي تضم شفتيها، وكأنها تخبره أنه لا يستحقها. كانت بالفعل أفضل منه، الجميع قال له هذا. لم تكن من المنطقة الشرقية، ولم تكن معتادة على قسوتها. هذا هو السبب

الأساسي لزواج «سامي» بها. شعرها الأشقر الطويل يجعلها مثل دمية «باربي» جديدة، أما قوامها المثير، فكان يفتن المنطقة الشرقية كلها.

لم تكن المنطقة الشرقية حنونة مع «باميلا»؛ لقد بدأت تذبل في اليوم الذي غادرت فيه مزرعة والدها، والآن هي مجرد ظل بلا روح لنفسها السابقة.

لم يعد «سامي» منجذبًا إليها. لقد حاول، لكن لم تعد تلك الشرارة موجودة. لم يعد لدى الزوجان ما يتكلمان عنه. لقد اختفت المواضيع المهمة؛ الأطفال، المستقبل، العلاقة الحميمية. أصبحا يتكلمان بلغاتٍ مختلفة، وهذه اللغات كالزجاج العازل الذي يفصلهما عن بعض كلما جلسا جنبًا إلى جنب. إنهما يحاولان. لا يمانع «سامي» المحاولة حتى الآن. تتحرك الشفاه وتنعقد الحواجب ويتصاعد الغضب، ثم يهدأ ببطء ويضيع كل شيء بلا فائدة. إنهما لا يتفقان إلا في الأساسيات؛ كالمال والطعام والتليفزيون. هذه الأشياء لا تهم. إنهما ليسا قويين بما يكفي للشجار عليها.

يحاول الانجذاب إليها، لكن الأمر ليس سهلًا. لقد ازداد وزن «باميلا» كثيرًا جدًّا، تغيَّر شكلها تمامًا عما كانت عليه في العشرينيات. ترتدي قمصانًا رجالية وسترات واسعة كلما غادرت المنزل، تصف نفسها بالبقرة السمينة، وهو لا يرد بالنفي أو الإيجاب، يعرف أن عليه المحاولة بجهدٍ أكبر. ما زال يجاملها عندما تعود من الكوافير، أو عندما تتأنق لأجل مناسبة. لكن كلماته خاوية بلا عاطفة، لذلك تمر مرور الكرام. تمارس حمية وتواظب على التمرينات، تشغل أسطوانات الـ»دي ڤي دي» وتبدأ، فيهتز البيت كله وهي تحرك فخذيها السمينتين مع الموسيقى. «دوم.. دوم.. دوم»، ثم صوت «ويتني هيوستن» العالي وهي تغني”Wanna Dance with Somebody” (أود الرقص مع أحدهم). يشاهدها “سامي” من فتحة ضيقة بالباب، ويتساءل هل كان عليهما الانفصال منذ سنين قبل أن تنهار علاقتهما تمامًا. كانا شابين وربما وجدا السعادة في مكانٍ آخر.

جربت ألا تأكل اللحم، وجربت ألا تأكل غير اللحم. تشرب أكوابًا من الـ»جريب فروت»، وتأكل تونة مجففة، وجبن قريش، وخبزًا بدقيق القمح الكامل، وخضروات. لا تشرب نبيذًا وتصوم أيام الخميس ثم ترتاح في الإجازة الأسبوعية. تزن نفسها مرتين في الأسبوع أمام أشخاص غرباء في المركز الترفيهي، وتدفع خمسة جنيهات لتحصل على كل الامتيازات الإضافية، مثل نصائح، وتفاصيل بخصوص وزنها. تطلب وصفات طعام للتخسيس من مجلات نسائية، تمارس تمارين اللياقة واليوجا و”الزومبا” في النادي الاجتماعي صباحًا وسط الأسبوع، لأنها تكون أرخص من أيام الإجازات. تحاول إقناع «سامي» بمرافقتها، لكنه يعتذر دائمًا. لم تتوقف لحظة لتفكر لأجل من تريد إنقاص

وزنها. يريد «سامي» أن يقول لها: «توقفي وتحدثي معي كما كنتِ تفعلين، ربما أمكننا إنقاذ أي شيءٍ بيننا».

إنه لا يفكر بنساء أخريات، كل ما يرغب به هو عودة «باميلا» السابقة إليه. إنها الفتاة التي وقع في حبها. في الأيام الهادئة، يلمح طرف فمها يرتفع كما في الماضي، أو يمزحا ببساطة على مائدة الفطور. عندها يدرك أنه لا يستطيع تركها أبدًا، لقد مرا بالكثير معًا. ثم من هو حتى ينتقد شكلها؟ إنه ليس وسيمًا أو جذابًا. لقد أصبح مجرد كرش يسير على ساقين شاحبتين، جلده المجعد يتدلى حول ذراعيه وساقيه، وهناك آثار ترهلات تمتد عبر بطنه الكبير، يظن أحيانًا أن الكسل والشعور بالذنب هما ما يبقياهما معًا حتى الآن. أحيانًا يتذكر الماضي حين كانا ودودين معًا، مثل طفلين يتشاركان الأسرار. عندها لا يطيق البقاء معها في الغرفة نفسها.

اقترحت «باميلا» عليه التحدث مع «مارك». إنه تصرفٌ شرير. يفضل «سامي» قضاء الأمسية بجانبها على الأريكة أمام التليفزيون، على الرغم من أنهما لا يحبان البرامج نفسها. إنهما يشاهدان الآن برنامج «جايمي أوليفر» للطبخ، وهو اختيارها. يحضر «جايمي أوليفر» سمكًا طازجًا صحيًّا. «باميلا» لا تأكل حتى أصابع السمك خوفًا من الاختناق بالشوك، لكنها تحب «جايمي أوليفر». تقول إنه وسيم على طراز أهل لندن، ويشبه «مايكل بورتيلو». فهم «سامي» أن وجه الشبه بينهما هو شفاهما الممتلئة. تحب الطريقة التي يمزق بها «جايمي أوليفر» الخس بيديه، كما تحب تأثره بالأطفال المساكين الذين يتناولون رقائق البطاطس في الوجبات المدرسية كل يوم. أما «سامي» فيظنه ثرثارًا أحمق. إنه ليس مهتمًّا بالسمك الطازج، بل يفضل مشاهدة برنامج الجريمة على قناة «ITV” المحلية، لكنه لم يحظَ بفرصةٍ للجدال. بالكاد بدأ يسترخي عندما اقترحت عليه «باميلا» الصعود والتحدث مع «مارك».

قالت فجأة وكأن الفكرة جاءتها فورًا:

- عليك التحدث مع “مارك”.

نظر «سامي» إلى وجه «جايمي أوليفر» الكبير الممتلئ في التليفزيون. كان يقشر سمكة قَد بأصابعه. لم يفهم «سامي» ما الذي ذكّر «باميلا» بـ»مارك». «جايمي أوليفر» لا يشبه ابنهما في شيء. «مارك» طويل وأبيض وغير وسيم، وله شعر أشقر خفيف ومجعد مثل سلك غسيل الصحون، ولونه أشقر وفاتح جدًّا كأنه أبيض.

سألها محاولًا أن يبدو غير مبالٍ:

- لماذا سأتحدث إليه؟

- بلا سبب. إنه فقط لا يخرج من غرفته أبدًا، لقد شاهدت برنامجًا على القناة الرابعة. إنه لتلك المذيعة التي كانت على الـ«بي بي سي». كان يدور عن الشباب الذين يقتلون أنفسهم. ينتحر المئات منهم الآن، وكلهم انطوائيين مثل «مارك». يقولون إنه وباء، لذلك فكرت يا «ساموبل». عليك التأكد من أنه لا يخطط للانتحار، أو يشاهد أفلامًا إباحية على الكمبيوتر. يقولون في التليفزيون إنه من المهم للشباب ذوي الميول الانتحارية أن يعرفوا أنهم محبوبون.

لا أحد منا يحب «مارك»، من المستحيل أن يحبه أحد في العالم. نظرا لبعضهما ولم يعترفا بالكلام، لكن عيونهما اعترفت بذلك.

اقترح «سامي»:

- لمَ لا تذهبين أنتِ للتحدث معه؟

- لا، أنا أشاهد "جايمي أوليفر"، فتلك الحلقة جديدة. اذهب أنت قبل أن يفوت الأوان!

- تبًا يا "باميلا". كلانا يعرف أن «مارك» لا يحاول الانتحار.

- كيف تتأكد؟ متى رأيته آخر مرة؟

قاوم «سامي» رغبته في الرد عليها، بل قال: - أخبار هذا الصباح لم تعرض سوى الفوضى المدمرة، أظن أنه لا بأس في التحدث مع الشاب. سأرى إن استطعت جعله يفكر في العمل.

ردت «باميلا»:

- اذهب إذًا.

ثم رفعت صوت التليفزيون أكثر لتزعجه فيضطر للخروج والصعود فورًا. في البداية، لم يستطع «سامي» التحرك. حاول أن يجبر ظهره على ترك الأريكة، لكن عقله وباقي جسده وعضلاته لم يرغبوا في الاقتراب من «مارك».

مالت «باميلا» نحوه، فظن أنها ستضع ذراعها حول كتفه كما كانت تفعل في الماضي حين يركبا السيارة. لكنها بدلًا من ذلك حاولت دفعه للنهوض وهي تقول: - اذهب وتحدث مع "مارك"، خذ له معك كوبًا من الشاي وبسكويت.

شعر بغضبه القديم يتكون بداخله وكأنه مطارق تضرب حلقه من الداخل، أراد ضرب زوجته. إنه لم يضرب «باميلا» من قبل، وهو فخور بذلك. لقد شتمها كثيرًا وهي ردت عليه بالمثل. كانا مثل القطط التي تصرخ في أثناء الشجار. ذات مرة وهو يشتم ألقى كوبه بعنف على مجلة "ويمنز ويكلي" (Woman's

Weekly) فانسكب السائل على وجه الممثلة التي على الغلاف. تجعدت الورقة وصارت مموجة مثل الكثبان الرملية. لقد انهار كل شيء. قال: - صحيح، سأذهب وأتحدث مع «مارك».

قالها وكأنها فكرته، لكنها ليست كذلك. التحدث مع ابنهما هو آخر ما قد يرغب في فعله هذا المساء.

وصل «سامي» إلى أعلى درجة في السلم ثم توقف، بقي جالسًا هناك خمس دقائق وهو يحمل الشاي، كل كوب في يد. شعر بالشاي وهو يبرد بين يديه. نظر إلى الكوب فرأى انعكاسًا ضبابيًّا لنفسه ولوجه «مارك» المظلم العابس. لم يفهم كيف يستطيع أي شخص أن يشرب الشاي سادة. طعمه يشبه ورق السيلوفان. هناك الكثير من الأشياء التي لا يفهمها في ابنه؛ الشاي السادة هو أبسطها. تذبذب سطح الشاي وكأنه ينبئ بحدوث زلزال. إن يديه تهتزان. ترك الشاي على الأرض ووضع يديه على فخذيه حتى تهدآ، ثم اتجه إلى غرفة «مارك» وطرق الباب.

لم يفتح «مارك»، بل صاح:

- لحظة واحدة!

انتظر «سامي» دقيقتين أو ثلاث وهو يتعرق، بينما يأتيه صوت حركة الولد في الغرفة ليخفي أشياء لا يريد لأحد رؤيتها، ثم انفتح الباب ووقف «مارك» على العتبة. كل النوافذ مغطاة، والضوء الوحيد يأتي من مصباح صغير على المكتب. نظر «سامي» خلف ابنه إلى الغرفة. سريره مرتب وكتبه مرصوصة فوق بعض على الأرض، لا توجد ملصقات أو صور على الجدران، لا شيء يشير إلى هوية صاحب الغرفة، مثل الزنزانة. لكن «مارك» يعيش هنا منذ عشرين سنة، يقضي كل لحظة بين هذه الجدران الأربعة. سأله «سامي»: - كيف حالك؟

هذه الطريقة تبدأ بها محادثة مع صديق قابلته في الشارع، لكن من الغريب أن تتحدث هكذا مع ابنك الذي يعيش معك. مضت أسابيع منذ رآه آخر مرة؛ يأكل الفتى وهما نائمان، يصعد وينزل السلم ليحضر «كورن فليكس» أو بيتزا، يستعمل الحمام الذي في الطابق العلوي. أحيانًا يكون صوت المياه المتدفقة في الحمام هي دليلهما الوحيد على أنه ما زال على قيد الحياة.

قال «مارك»:

- أنا بخير.

- تبدو كذلك.

لا يبدو «مارك» بخيرٍ أبدًا، بل يبدو شاحبًا كالأشباح، مثل إنسان لم يرَ نور الشمس منذ أسابيع. يكاد يضيء من بياض جسده الشاحب، أما شفتاه فخاليتان من الحياة ولا لون فيهما.

- هل أتيت لتطلب مني البحث عن وظيفةٍ يا أبي؟

- نعم... لا، ليس حقًا. أردت فقط التأكد أنك بخير.

قال «مارك»:

- أنا بخير.

إنه يمسك الباب بقوة لكيلا يسمح لـ»سامي» بوضع خطوة داخل الغرفة ويغلق الباب بينما يتحدث، موضحًا بصوته وحركاته أنه ليس مهتمًّا بالتحدث مع والده. شعر «سامي» بيديه تنقبضان داخل جيوبه، بدأ الغضب يستعر في أعماقه. هناك شيءٌ مريب في هذا الولد بوجهه الشاحب.

- اسمع.

قالها «سامي» وهو لم يعرف حتى ماذا سيقول بعدها إلى أن قالها بالفعل. لاحظ وجه «مارك» وهو يتجمد بابتسامة مصطنعة كأنه وجه دمية. قال: - أنا أعرف كل شيء.

- تعرف ماذا يا أبي؟

- أعرف عن الفيديو و"النيران العالية". أعرف أنه أنت.

ضحك «مارك» وقال:

- حقًّا يا أبي؟

ضحكته ليست طبيعية، مثل صوت مضغوط يخرج بالقوة من فجوةٍ صغيرة.

- وكيف عرفت ذلك؟

- عليك أن تتوقف يا "مارك". هذا جنون، سوف يُقتل شخصٌ ما في أي وقت.

- لا علاقة لهذا بي يا أبي. أنا لم أؤذِ أحدًا.

- الأمر كله بسببك يا "مارك". أنت من بدأ، لا يهم إن كنت نفذت الأمر بنفسك أم أخبرت الآخرين لينفذوا. أنت المسؤول.

- أنت مخطئ يا أبي. لا علاقة للأمر بي.

- أعرف أنه أنت، ويجب أن تتوقف الآن.

قال «مارك»:

- التوقف مستحيل. بمجرد أن يبدأ شيءٌ كهذا، لا يمكن إيقافه. سيزداد الأمر سوءًا. لا علاقة للأمر بي، لكن أراهن بأن جحيم الفوضى سيشتعل أكثر.

أصبح وجهه باردًا للحظة، ثم ابتسم ابتسامةً مرعبة بشعة. اقشعر جسد «سامي». شعر ببرودةٍ تخرج من ابنه وتخيفه. إنه على وشك البكاء، لكنه لا يستطيع البكاء أمام «مارك». إنه وغدٌ شرير. لا يراه إلا غريبًا في نظره، لكنه شعر بالاشمئزاز لأنه يدرك الصلة بينهما.

قال بنبرة طفلٍ حزين:

- سأبلغ الشرطة.

- تبلغهم بماذا بالضبط؟

- كل شيء.

على الرغم من رده، فإنه يعرف تمامًا أن هذا الأمر لا يستطيع قوله أو إثباته.

- بينما أنت هناك تخبر الشرطة كل شيء، لا تنسَ إخبارهم عن نفسك يا أبي. فأنت لست قديسًا، أليس كذلك؟

أغلق «مارك» الباب في وجهه. لم يغلقه بعنف لأن السجادة سميكة فأوقفته، لكن النية واضحة. وقف «سامي» لوهلةٍ ينظر إلى الباب ويتساءل إن كان عليه المحاولة مجددًا بصوتٍ أعلى. شعر بأنه عجوز، حتى عيناه متعبتان. بعد دقائق عاد للأسفل. نزل الطابق السفلي وأخذ كوبي الشاي معه. أصبح الشاي فاترًا. دخل المطبخ ليعد كوبًا جديدًا. سألته "باميلا" من غرفة الجلوس كيف حال "مارك"؟ قال لها إنه بخير. لم يحتمل أن يزيد حزنها. أعد لنفسه كوب شاي وشربه سادة بدون سكر. هذا ما يستحقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

“الأطفال المنحوسون” في شرق بلفاست

في ليلة اجتماع الآباء، دفعتُ لـ»كريستين» الضعف لتعتني بـ»صوفي» وقتًا إضافيًّا. أخبرتها أن لديَّ اجتماعًا مع محاسبي، لأوحي لها بأن الأمر يتعلق بالرهن العقاري. اقتنعت بهذه الحجة بسهولة بعدما تناولنا الطعام معًا. أكلنا خضار «سوتيه» وحلينا بكعكة “سويس رول”. تركتها على الأريكة ومعها كأس نبيذ ورواية. “كريستين” تعشق القراءة، أجد معها كتابًا جديدًا كلما رأيتها. ربما يجيد الإنسان القراءة عندما يفقد القدرة على الكلام.

كتبت لها في المفكرة:

“سأرسل لكِ رسالة إن كنت سأتأخر. يمكنكِ المبيت في الغرفة الإضافية إن أردتِ”.

سأعود بعد أربع ساعات لأجد «كريستين» نائمة بجانب «صوفي» على سريرها. أفعل هذا كثيرًا عندما لا تكون «صوفي» في مزاجٍ جيد وترفض النوم، النوم في سريرها ليس مريحًا لأنه صغير. لكنني اكتشفت أنه حين تكون محرومًا من النوم لفترة، عندها سيرضى جسدك بأي مكان حتى لو كان حوض الاستحمام. سأفكر في إيقاظ «كريستين»، لكنني سأغير رأيي. لسوء الحظ، سيرهقني اجتماع “الأطفال المنحوسين”، وسيمنعني من الدخول في أي محادثة. سأسحب البطانية عليهما ثم سأستلقي على الأرض بجانب سرير «صوفي». سأحتاج أن أكون بالقرب من ابنتي هذه الليلة لأرى ملامح وجهها الصغير تتحرك مع أحلامها الصغيرة، لأتذكر أنها كنزٌ غالٍ وليست عبئًا أو وحشًا وبالتأكيد ليست خوفًا.

قررت أن أرتدي بذلة وربطة عنق لأول اجتماعٍ لي مع جماعة «الأطفال المنحوسين” في شرق بلفاست، أردت أن أبدو شخصًا ناضجًا قادرًا على تحمل مسؤولية شخصٍ آخر.

عندما وصلت «بورتاكابين»، أدركت أن هذا ليس اجتماعًا رسميًّا. هناك ملصقات عن الرضاعة الطبيعية، وعن تصنيف القمامة لإعادة تدويرها. الكراسي بلاستيكية يمكن رصها بمحاذاة الجدار وتكديسها فوق بعضها في اثنتي عشرة طبقة. نظرت حولي ثم خلعت ربطة العنق عبر رأسي وهي ما زالت معقودة وحشرتها في جيب سترتي، ثم فتحت أول زرين من قميصي.

مع ذلك، ما زلت أبدو رسميًّا مقارنةً بالآخرين. معظم الآباء يرتدون چينز أو ملابس رياضية، وهناك سيدة ترتدي روب لا تشده بإحكام حول وسطها فتظهر من تحته منامة من قماش الساتان بلون خوخي فاتح. إنها متعبة لدرجة ألا تهتم بتغيير ملابسها. هذا مقبول جدًّا هنا. كل آباء «الأطفال المنحوسين" متعبون، لا أحد يحق له انتقاد الآخر.

الرجل الجالس بجانبي قدَّم نفسه باسم «مايك»، قضى الأمسية بأكملها ينزع خصلات من شعره من الصلعة التي خلف أذنيه. إنه مصاب بالصلع في أربع مناطق مختلفة. قال إن لديه طفلًا يتوهج في الظلام، ولا يمكنه الخروج في العلن إلا في نور النهار. وهذا صعب في بلفاست حيث يُغيِّم الجو طوال اليوم من سبتمبر حتى مايو.

سألني بينما يدور أحدهم بصينية مليئة بأكواب القهوة وكريمة الكاسترد:

- ماذا لديك؟

- بنت.

- ما مشكلتها؟

لا أعرف كيف أجيب على هذا السؤال. معظم الأيام تبدو رائعة لي، لكن في أيام أخرى أفكر أنه من الأفضل لو كانت ميتة. لم أحظَ بالفرصة أبدًا لأتحدث عن خوفي. تحت هذا الضغط، شربت رشفة قهوة ساخنة فاحترق لساني. لم أستطع التقاط أنفاسي لأجيب.

في اللحظة المناسبة بدأ الاجتماع. قدَّم الجميع أنفسهم، بعض الأشخاص جاؤوا أزواجًا لكن الأغلبية أتوا بمفردهم. سعدت بهذا على الرغم من أنه لا يعني شيئًا. فأنا بمفردي لأنني أعزب، لكن الآخرين قد يكون لديهم زوج أو زوجة في البيت للاعتناء بالأبناء. أرسل دكتور "كانوري" اعتذاره مع رجلٍ أكبر سنًا منا. اسمه "دايفي" ولديه ابنة تتحول إلى قارب، وتطفو على الماء مع البجع في بحيرة «فيكتوريا بارك». «دايفي» هو أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية "الأطفال المنحوسين". لقد أوضح أن دكتور "كانوري" تلقى دعوة للمسرح ولن يستطيع حضور اجتماع الليلة. سرت همهمات خفيفة بين الأعضاء. مضى شهران منذ حضر دكتور» كانوري» آخر مرة. أشعر بالإحباط، كنت أتمنى التحدث معه كطبيبين عن موضوع الحوريات.

قدمت نفسي عندما حان دوري للكلام. قالت المجموعة:

- أهلًا جوناثان.

وبعضهم لوَّح لي. لوهلة شعرت أنني في أمريكا، ثم تحدثت بلهجة «أورانج فيلد» القريبة من مكان الاجتماع في «بورتاكابين» على طريق «سيدينهام». قلت «إنها أول مرة لي هنا» و«أشكركم على دعوتي» و«لديَّ طفلة صغيرة اسمها صوفي». لم أخبرهم أنني طبيب. لم أقل شيئًا عن والدة «صوفي» أو ما الاحتمالات التي يمكن حدوثها لو تكلمت عن "صوفي"، يكفي حضوري الليلة. في المرة القادمة سأحاول شرح خوفي من كلامها وعدم كلامها، وكل المخاوف الأخرى التي تؤرقني. لم يلح عليَّ أحد للكلام. الآباء الآخرون ابتسموا ومالوا نحوي بتشجيع. إنهم سعداء بقدومي. إنهم دائمًا سعداء بالأعضاء الجدد. الكثرة تولد شعورًا بالأمان، والأمان هو أقصى أمانيهم لأجل أطفالهم.

كل مَن في الاجتماع لديه الدور ليتحدث. بعد التعارف، علمت بوجود طفلين طائرين آخرين، وطفل يسمع الأشجار، وولد يعيش في شجرة، وتوأم خفي، وفتاة صغيرة مولودة ببيضة طائر في كل يد، وطفل يرى المستقبل على أي سطح سائل، وطفل يتحول إلى سحابة كلما نام. والأفضل على الإطلاق، طفل اسمه «ماثيو» لديه عجلات مثبتة بقدميه.

وضح والده:

- إنها ليست معدنية أو مطاطية كعجلات الدراجة، بل هي مثل العظم أو الأسنان.

بالطبع باقي المجموعة سمعوا هذا من قبل.

تمتم «مايك» وهو يجذب خصلة أخرى من شعره:

- يجري على التل مثل البرق.

بعد ثانية واحدة، كرر الرجل مجددًا أن ابنه يجري على التل مثل البرق. فهمت أن آباء "الأطفال المنحوسين" يقولون القصص نفسها في كل اجتماع، هذا ما يأتون لأجله. إنه بمنزلة إقرار أو اعتراف. إنهم يأتون لسرد قصصهم، أما قصص الآخرين فمجرد ضوضاء مضطرون لتحملها حتى يأتي دورهم للكلام. كل واحد لا يهتم بمن يجلس بجانبه أو بغرابة أطفاله، بل يهتم فقط بأطفاله ومشاكله. هذا مفهوم طبعًا. هذه ليست أنانية، لكنني مهتم. أذناي تنصتان وعيناي تريان. أنا مثل الكاميرا التي تصور كل التفاصيل الليلة.

جلست «كاتلين بيني» في كرسيها وحكت للآباء الآخرين عن معصم «إيلا» المكسور. هذا ما يعدُّ أخبارًا في جمعية «الأطفال المنحوسين". لم تتطرق للتفاصيل، بذلت ما في وسعها لتبدو طبيعية وهي تقول: «لقد كُسِر في ثلاث مواضع» و«يتحرك بصعوبة». بالكاد كتمت دمعتها وهي تقول: «من المحتمل

أن نجري جراحة». لا يمكن لومها، لم يدفعوا «إيلا» أو يحثوها للقفز من ارتفاعاتٍ كبيرة. ببساطة، لقد أصيبت الفتاة إصابة بسيطة وهي تتعلم الطيران، هذه الإصابات متوقعة. وأيضًا ألمْ تكد تلك الفتاة التي تتحول إلى قارب تغرق وهي تتعلم السباحة؟

سألت الأم الأخرى التي لديها طفل يطير:

- هل طارت من قبل؟ ابني "سيمون" كان يطير لارتفاع ثلاثة طوابق وهو بعمر "إيلا".

"سيمون" بارعٌ في الطيران، حسب كلام والدته. لقد طار قبل أن يمشي، على الأرجح منذ تكوينه. من المحتمل أن يدور حول القمر ذات يوم. لا أحب تفكير "سيمون"، فهو بالغ الطموح. أو ربما نظرة والدته له هي ما لا أطيقها.

قالت «كاتلين»:

- نعم، «إيلا» تطير طوال الوقت. إنها طيارة رائعة، لكنها تعاني من بعض المشكلات البسيطة لتطوير أسلوبها.

نظرت إليها فنظرت إليَّ بتحذير ثم طرفت بعينيها ونظرت بعيدًا. «كاتلين» تكذب. إنها تعرف أنني أستطيع كشفها. لن أفعل، الكذب أسهل من الحقيقة أحيانًا. علمني والداي هذا في بداية حياتي، «لا تفسد الأجواء». لا فائدة من كشف والدة «إيلا» أمام باقي الآباء. إنهم جميعًا يستندون على أكاذيبهم الصغيرة على الأرجح. شعرت بالأسف على «كاتلين» وزوجها، لكنني لا أشعر بالأسف على «إيلا بيني»، فهي أروع من أن يشفق عليها أحد. سيشبه الأمر وكأنك تشفق على الشمس، أو أي شيءٍ آخر يماثلها في القوة. لا أستطيع التوقف عن التفكير في «إيلا» وأجنحتها.

حتى الآن أستطيع تخيلها وهي ترتدي خوذة ونظارات طيران قديمة الطراز مثل طيار في الحرب العالمية الأولى، أتخيلها وهي على وشك القفز من شجرة عالية جدًّا، شجرة صنوبر أو تَنُّوب. تعرف أنها ستقع. إنها دائمًا تقع، ومع ذلك لن ترفض القفز أبدًا. إنها تعشق أبويها. ويمكن أيضًا وصف سلوكها بالصبر أو المعاناة طويلة الأمد. الأبوان أحمقان، أما «إيلا» حكيمة وعطوفة وأحيانًا تماثل القديسين. سوف تكسر كل عظمة في جسدها الصغير قبل أن تخذلهما.

أتخيلها أيضًا في غابة، قدماها عاريتان وأوراق الأشجار تحيط بها. إنه الخريف أو بداية الشتاء. تعابير وجه «إيلا بيني» تبدو مثل القديسة والمحاربة "جان دارك" في الفيلم الوثائقي؛ عينان عجوزتان على وجهٍ صغير، لكنهما عينان واثقتان ثابتتان. بينما السماء خالية مؤقتًا، أرض الغابة عامرة بالمخلوقات،

مثل ديدان الأرض، وأم أربعة وأربعين، والعناكب، وخنافس الروث، أعادتها «إيلا» للحياة مؤخرًا، فأخذت تنتشر وكأنها رسل الرب. ثم تجمعت في مكانٍ واحد، عند قدمي "إيلا» البيضاء. تخيلت كل هذا وتساءلت إن كانت الرؤى تبدو هكذا للفتى الذي يرى المستقبل في أكواب الماء، أو البحيرات الباردة، أو حتى البول. إذا كان الأمر هكذا فأنا أحسده؛ هذه القدرة تستحق الإيمان بها ودعمها. لست حزينًا على «إيلا بيني»، بل على والديها اللذين لا يقدرانها وقد يفوتهما أجمل ما فيها.

جاء الدور على فتاة مراهقة، شعرها يخفي وجهها. تتحدث برقة شديدة. ترتدي بنطال چينز، وسترة لها غطاء للرأس، وقفازات فرن محكمة حول يديها بدلًا من القفازات العادية. لكن الفردتين مختلفتان؛ واحدة على شكل ضفدع بعينين متحركتين ولسانٍ وردي يخرج من بين الجزء الذي يغلف الإبهام والجزء الذي يجمع الأربع أصابع الأخرى، أما الفردة الأخرى تذكارًا من جزيرة «تنريفي»، لونه أصفر فاقع ومرسوم عليه الجزيرة، فتبدو مثل وحمة على ظهر يدها. نهضت لتتحدث، وبجانبها رجل لديه ذقنها نفسه، أو بالأحرى لا ذقن لهما أصلًا، إنها مسحوبة للوراء بشدة وتصل بين الفك والرقبة مباشرةً. يشبهان السنجاب أو النمس، أو أي حيوان يستطيع الوقوف على أقدامه الخلفية. قال الرجل:

- هذه ابنتي "كارين"، وأنا فخورٌ بها جدًّا. سوف تحكي قصتها الليلة.

صفق الجميع ما عدا «كارين»، لأنه من غير التهذيب أن تصفق لنفسك، ولأنه من المستحيل أن تصفق بقفازات الفرن.

قالت عندما توقف التصفيق:

- أهلًا. اسمي "كارين". أظنني أحد «الأطفال المنحوسين". على الأقل دكتور "كانوري" يقول ذلك. كل ما ألمسه يتحول إلى "زينة عيد ميلاد".

ثم رفعت يديها للتوضيح، فأومأ الجميع بفهم. أما أنا فلم أفهم. هل يمكنها أن تبث شعورًا بالسعادة في قلوب الناس، أم أنها تستحضر فعلًا زينة الاحتفالات؟ ربما يتولد بداخلها المعنى الحقيقي لعيد الميلاد، وهو الرهبة من معجزة ميلاد المسيح. لا أعرف بالضبط ما قصد «كارين»، وأظن أنني سأظل مرتبكًا حتى بعد أن تنهي قصتها. شبكت ذراعيَّ لأجلس في وضعية الاستماع بانتباه، بينما أتساءل في نفسي ماذا سأقول عن «صوفي» لآباء «الأطفال المنحوسين". إنها لم تفعل شيئًا فظيعًا حتى الآن، لكن يمكنها. الاحتمال قائم دائمًا. مثل سحابة عاصفة، صغيرة لكن موجودة، وتحلق فوق رأسي باستمرار.

حكت «كارين» قصتها. إنها مثل الملك «ميداس»، لكن بدلًا من لمسته الذهبية لديها لمسة «عيد الميلاد". إنها تتمنى لو لم يكن لديها هذه "الهبة". تتمنى لو احتفلت بعيد الميلاد في وقته المخصص فقط، بدلًا من طوال العام. من الصعب أن تكون مراهقًا في السابعة عشر، وكل ما تلمسه يتحول إلى أجواء احتفالية. ظهرت قدرة «كارين» وهي في الثالثة عشر، قضت فترة الثانوية وهي ترتدي قفازات، وتبقى مسافة بينها وبين الآخرين. تركت الثانوية ولم تحصل إلا على شهادة في التربية الرياضية، مارست الجري لمسافات طويلة لأنها الرياضة الوحيدة التي لا تتطلب أي تلامس. المواد الأخرى لم تكن متاحة لـ»كارين»؛ لا يمكنها ضمان قوتها للعمل في مجموعة. التجارب العلمية كانت خطرة، والكمبيوتر يصاب بالجنون كلما لمست أزراره بأصابعها العارية. بعد الثانوية عملت على ماكينة «الكاشير» في سوبر ماركت «تيسكو» في مركز «كونزووتر» التجاري. على الرغم من أنها كانت تفضل العمل في صالون للشعر أو حضانة أطفال، فإنها عملت في «تيسكو» لأن الوظيفة لم تتطلب مؤهلات خاصة أو تلامس مع الناس باليد مباشرةً.

ترتدي «كارين» قفازات الفرن لكيلا تلمس الزبائن بالخطأ، أو تترك زينة براقة على الطاولة وتشبك فيها حين تنهض فتبدو مثل موكب السيرك. استمرت أسبوعين وثلاثة أيام، وهذا وقتٌ قياسي. لم تتوقع أن تصمد يومًا كاملًا. بدأت الأمور تسوء في الأسبوع الثاني؛ وصلت العمل يوم الأربعاء لتجد سيدة في منتصف العمر تعمل على ماكينة «الكاشير» المجاورة لها. مكتوب على بطاقة التعريف اسم "دورين".

سرقت «دورين» لحظات سريعة من العمل وصاحت لتقدم نفسها إليها:

- أهلًا يا عزيزتي. ما اسمكِ؟ أنا "دورين".

لم ترد «كارين». أساس وجودها هو عدم لفت الانتباه. حركت بطيخة على الميزان بمرفقها، ثم ضغطت أزرار ماكينة «الكاشير» بأنفها.

نظرت «دورين» إليها وقالت بصوتٍ منخفض عندما لاحظت اقتراب الزبائن:

- آسفة يا عزيزتي، لم أدرك أنكِ تعانين إعاقةً في ذراعيكِ. هل تحتاجين مساعدة؟

تظاهرت «كارين» أنها لم تسمعها، وواصلت تحريك البصل والفلفل الأحمر إلى الميزان. لم تنزعج «دورين» من صمتها. استدارت إلى موظفة أخرى وسألتها بلهجةٍ ثقيلة تحمل مغزى خاصًّا:

- هل هذه الفتاة بخير؟

أجابت الموظفة «مارجريت» من على الماكينة الأخرى:

- نعم، إنها عاقلة مثلي ومثلكِ، لكنها منطوية ولا تزعج نفسها بالتعامل معنا.

- لا أعرف يا عزيزتي، تبدو من ذوي الاحتياجات الخاصة. إنها ترتدي قفازات فرن، وتضغط على الأزرار بذقنها.

سمعت «كارين" هذه المحادثة بينما تختفي خلف عبوة ضخمة من مسحوق الغسيل، أرادت الاختباء لكن كل ما استطاعت فعله هو الانحناء فقط لأنه لا مكان للهرب.

صاحت "دورين":

- سأتفقدها وحسب. هل يمكن أن تتولي أمر زبائني لوهلة؟

في اللحظة التالية تعالت صرخات فزعة وخربشات. تخلت «كارين» عن عبوة مسحوق الغسيل والزبائن وكل آمالها في التمسك بوظيفتها، وحاولت الاختباء تحت طاولة «الكاشير». بعد بضع ثوانٍ أطلت برأسها لتختلس النظر، فرأت وجه «دورين» المستدير الكبير وخلفه نور السقف.

قالت ببطء وفمها يضغط على كل الحروف:

- مرحبًا يا عزيزتي، لا تخافي. لقد رأيت الكثير من العجائب في حياتي. أصغر أبنائي يعاني من التوحد. يجن جنونه عندما أقوم باختبارات التوحد معه.

ابتسمت المرأة لكن «كارين» نظرت لها شذرًا، ثم سمعت من يقول:

- هناك فتاة سخيفة تعمل على ماكينة "الكاشير" وترتدي قفازات فرن، بالتأكيد لن تستطيع الضغط على الأزرار.

قبل أن تستعد «كارين» للعض والركل والطعن والدفاع ضد هذا الهجوم اللفظي، وصلت «دورين» خلف ماكينة «الكاشير» وخلعت القفازات عنها. الفردة اليمنى ثم اليسرى. فجأة اندفعت زينة عيد الميلاد من «كارين». لم تصف تفاصيل هذه الظاهرة، لكنني أتخيلها مثل طاقة روحية مقدسة، مثل العجائب التي تقرأ عنها أنها تحدث في الكنيسة، ليست مزعجة بل فيها رهبة. لم تستطع «كارين» أن تمنع نفسها. وقفت خلف «الكاشير». وشعرت بأنها تخسر وتربح شيئًا مهمًّا في الوقت نفسه. كانت قوتها في أعلى مستوياتها في أطراف أصابعها التي تلمس معصم «دورين». توقف الجميع عن حزم المشتريات وتمرير البقالة، وأخذوا ينظرون نحوها. شعرت بنظراتهم توخزها مثل مجموعة من خلل الأسنان.

لم تحدق بها «دورين»؛ كانت مشغولة، انفتح فمها عن آخره مثل باب قلعة. رأت «كارين» بوضوح الحشو في ضرسها السفلي. خرجت حشرجة غريبة من فم المرأة، تشبه صوتًا يندفع عبر ثقبٍ صغير. توقف الناس عن النظر إلى

«كارين»، ونظروا إلى «دورين». من المريح أن تبعد عن مركز الأنظار على سبيل التغيير. جلست «دورين» ثم استلقت وفردت ذراعيها وساقيها مثل ملاك الثلج على الأرضية اللامعة. شعرها رمادي مع لمسة ذهبية، انحل من ربطته وانفرد خلفها في اتجاه مخزن عربات «الترولي». كان كفاها مفرودين مثل نجمة بحر تسبح بحرية. بدت مندمجة تمامًا ولطيفة، التصقت زينة عيد الميلاد بها لدرجة أن «كارين» لم تستطع أن تغضب منها.

ابتسمت «دورين» ابتسامة مضحكة حركت وجهها كله وملأت عينيها وخديها وقالت:

- أوه، هذا جميلٌ جدًّا. هل يمكنكِ فعلها مجددًا؟

قالت «كارين»:

- نعم، أظن ذلك.

ثم أطلقت المزيد من روح عيد الميلاد مجددًا بلا حدود أو تحفظ عبر كل الممرات والأقسام، حتى الطعام المجمد ذاب من فرط السعادة والبهجة. عندما بدأت الإدارة تلاحظ أمورًا غريبة تحدث على شاشات المراقبة، جاؤوا بسرعة للطابق الأرضي ورفدوا «كارين» وهي أمام صفوف الخضروات المعلبة. صرخوا فيها:

- ألا تعرفين أين أنتِ؟ هنا "كونزووتر تيسكو"، إنه ليس مكانًا للمعجزات!

أعطوها راتب شهرٍ إضافي لتغادر فورًا ولا تقول شيئًا عما حدث للصحف المحلية، وتَعِد بالتوقف عن فعل هذا في أي مكان. كانوا حذرين في أسلوب فصلها خوفًا من الدعاوي القضائية، والصحف الصفراء أن تقول إن «كارين» لم تكن سيئة ليطردوها، وإن روح عيد الميلاد أمرٌ جيد وأفضل مما يستحق «كونزووتر تيسكو»، أو أي مكان راقٍ مثل «ماركس أند سبنسر» أو «هاوس أوف فريزر». قال رئيسها:

- إن أعطيتِ هؤلاء الناس شيئًا جميلًا بالمجان، فسيطلبون المزيد دائمًا.

بعد ذلك، اصطحبوا «كارين» خارج المكان تحت أنظار رجال الأمن الثلاثة. أخرجوها وهي ملفوفة بثلاثة أمتار من ورق تغليف الهدايا خوفًا من أن يلمسهم أي جزءٍ منها. على الرغم من أنهم لم يحتملوها في العلن، كان الموظفون ينتظرونها في جراج السيارات بشوقٍ ولهفة. فردوا أيديهم راغبين في لمسة واحدة منها ليحصلوا على أدنى شعور بعيد الميلاد.

قالوا إن الفرصة قد لا تأتيهم مجددًا.

لم يستطيعوا مواجهة نظرات بعضهم، لم يستطيعوا حتى رفع رؤوسهم عندما لمستهم. لم ينطقوا اسمها. في اليوم التالي سينكرون كل شيء ويتظاهرون بالجهل. فقط في اللحظة التي غمرتهم فيها روح عيد الميلاد وشعروا بأنهم عادوا أطفالًا بعد زمن، ابتسموا وسمحوا لأنفسهم بالاستمتاع. أدركت «كارين» أنها لن تعود إلى هناك مجددًا.

كل هذا حدث في مارس الماضي. منذ ذلك الوقت بالكاد خرجت «كارين» من الباب. إنها تعمل موظفة تسويق عن بعد الآن. تمسك التليفون بمنشفة صغيرة لكيلا تتسرب روح عيد الميلاد منها عبر السماعة إلى كبار السن، الذين تُسوِّق لهم نوافذ عازلة وتأمينًا في البر الرئيس، أي في إنجلترا وباقي أوروبا. أحيانًا تساورها الشكوك، تتساءل إن كانت ستستطيع يومًا أن تحب شخصًا بطريقةٍ طبيعية. تعرف أن هذا ليس عدلًا، لكن ما الفائدة من معرفة الفرق بين العدل والظلم عندما لا يكون باليد حيلة؟

هذا مفهومٌ عام بين "الأطفال المنحوسين" وآبائهم. لقد سمعت جملة «ماذا سيحدث لهم؟» تتكرر اثنتي عشرة مرة على الأقل في الاجتماع. طيف المستقبل يخيِّم عليهم في الغرفة مثل ظلٍ ثقيل يخيفهم. إنه يغلف كل ما يقوله الآباء وكل ما لا يقولونه. نعم، هناك الكثير من الأمور المجهولة التي تنتظرهم.

ربما ستصبح «كارين» منسقة أغاني في الراديو، ليؤثر صوتها في الناس في حين تعجز أصابعها عن لمسهم. وربما ستتعلم أن تحب هذه الأصابع وتجد عملًا في دار رعاية أو مستشفى، تضع يديها على المرضى اليائسين وتبث السعادة والراحة في أتعس الأماكن. ربما الفتاة التي تتحول إلى قارب ستبدأ في الاعتماد على رجليها ولن تشعر بالحاجة إلى أن تطفو وحدها مع الإوز والبجع. وربما ستعمل في الصيف في نقل المصيفين بجسدها الذي يتحول إلى قارب في بحيرة «بيكي بول»، وستفهم أن مهمتها هي نقل الأغراب وهم يلتقطون الصور التذكارية. يجب أن تكون موجودة لكن دون أن يلاحظها أحد. ربما ذلك الفتى لن يرى المستقبل على الأسطح المائية بعد الآن. وربما الولد الآخر سينزل من على الشجرة ويعمل في الخدمة الاجتماعية، بينما يرتدي ملابس مثل الرجال العاديين.

ربما سيقاوم «الأطفال المنحوسون" طبيعتهم أو يتقبلونها. في النهاية سيفعلون ما يريدون. ربما لن يصبحوا «بالغين منحوسين". كل والد في الغرفة يتمنى هذا، وأنا أيضًا. أتمسك بمعرفتي الطبية والاجتماعية والنفسية، التي تؤكد أن الأطفال عجينة طرية لم تتكون بعد. وأن طبيعتهم لم تثبت بعد سواء كانوا في الشهر السادس أو السنة السادسة. وأن بعض الأطفال يكبرون ليصبحوا مختلفين تمامًا عن طبيعتهم القديمة، لدرجة أنه من الصعب

معرفتهم في صورهم ومواقفهم القديمة. الأمر كذلك حتى بالنسبة للأطفال الذين لم يروا يومًا تعيسًا في حياتهم. كل هذا ممكن، كل والد في الغرفة يتمنى نهاية سعيدة مميزة، لكن حسب قصصهم، من المستحيل معرفة كيف ستكون النهاية.

بدت «كارين» وكأنها على وشك البكاء، لكنها لن تسمح لنفسها. عندما انتهت من حكي قصتها، صفق الجميع.

قال «دايفي»:

- بالتأكيد أنت فخورٌ بها.

رد والدها بالإيجاب. أفهم سبب فخره. «كارين" من "الأطفال المنحوسين". هذا واضح من الطريقة التي تسحب بها شعرها أمام وجهها ونظرها الدائم إلى الأرض، لكنها لا تؤذي الناس، بل تباركهم بخير كثير لا يمكنها التحكم به. نظرت إلى الأعضاء؛ التوأم الخفي لا يؤذيان الناس، ولا الولد الذي يرى المستقبل على الأسطح السائلة. الفتاة القارب غريبة لكنها ليست مؤذية، و»إيلا» لا يمكنها إيذاء أحد حتى لو أرادت. هؤلاء الأطفال يتعرضون للأذى ولا يتسببون به. إنهم تعساء.

"صوفي" مختلفة، «صوفي» لديها القدرة على أن تكون مخلوقًا رهيبًا. إنها لا تنتمي إلى هؤلاء الأطفال، بل إلى الوحوش الشريرة، والشياطين، ومصاصي الدماء، والعفاريت، الذين لا يمكنهم البقاء طوال الوقت في العالم السفلي. مكاني ليس مع آباء "الأطفال المنحوسين". لقد أتيت بعبءٍ مخزٍ إليهم.

استأذنت في المغادرة وأخذت سترتي من على ظهر الكرسي، وخرجت قبل أن يقدموا القهوة مجددًا. طوال الطريق إلى المنزل، ظللت أفكر كيف اقتربت من شعور الانتماء. لكن الاقتراب ثم الابتعاد أسوأ من الوحدة منذ البداية. تذكرت ذلك الشعور من الطفولة والجامعة وكل يوم في المستشفى، أنا دائمًا وحدي. بالطبع هناك «صوفي»، لكنها ليست الصحبة التي تمنيتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آغسطس
"جوناثان"

جرحت نفسي بشدة الليلة الماضية، لدرجة أن الجرح تطلب خياطة.

فعلت ذلك لنفسي لأجرِّب كيف ستشعرين أنتِ. ضغطت النصل على فخذي وراقبت خطًا من الدم يسيل، ثم تكونت فقاعات، وأخيرًا اندفع دم أحمر كثيف على ساقي وإلى أرض الحمام. ترك الدم بركة داكنة على الأرض اللامعة، كأنها بقعة نبيذ أحمر تُرك طويلًا في الكأس. كان عليَّ وضع جرائد أو مناشف على الأرض قبل أن أبدأ. كان عليَّ الاستعداد بمزيل بقع.

ظننت أن جرح نفسي سيؤلم أكثر مما فعل، أنه سيلسع مثل الحرق. ظننت أن يدي سترفض طاعتي، لكنها لم تفعل. يدي كانت تشعر بالفضول مثل باقي جسدي. عيناي وأنفي وعضلاتي وجلدي وقضيبي، كلها انقبضت بينما ينغرز النصل في لحمي. شعرت بأن كل جزءٍ في جسدي مستقلٌ بذاته، ينقبض ويرتخي وينقبض مجددًا مثل المرأة الحامل. أشعر بجسدي ينقسم. بمجرد أن بدأت، لم أستطع التوقف.

الجرح تجربة جديدة.

كسرت عظامي وخيطت جروحًا، لكن لم أتعرض أبدًا لإصابةٍ عن عمد. أنتِ أيضًا تجربة جديدة بالنسبة إليَّ، وكذلك أمكِ، وتقريبًا كل ما حدث منذ أجبت التليفون وسمعت صوتها الذي يشبه المغناطيس. تتحدث وكأنها تغني. لا، لنكن صريحين، لقد كانت تتكلم فقط. لكن الكتب ترجح أنها تغني. لا يهم إن كانت تتكلم أو تغني، المهم أنني لم أستطع التحكم بنفسي معها. والدتكِ كانت تجربة جديدة لي، مثل الحادثة. ليست من الأشياء التي تتكرر بسهولة.

جرح نفسي كان مختلفًا، كنت متعمدًا. شعرت بأنني ملزمٌ بفعل ذلك بإتقان مثل جراحٍ في التليفزيون. أحضرت عدة خياطة الجرح ومشرطًا من العمل. لا أحد يلاحظ فقدان هذه الأشياء. آخذ أشياء من المستشفى طوال الوقت؛ مسكنات، مقياس حرارة، ضمادات، أقلام الدعاية الجميلة المطبوع عليها شعارات أدوية معينة. كل الأطباء يسرقون أشياء. معظمهم لا يستخدمون المسروقات على أنفسهم، لكنني فعلت. كنت أخطط لجرح نفسي منذ أكثر من أسبوع. حفظت كل التفاصيل حتى أصبحت مثل موسيقى تعمل في عقلي عندما أكون صامتًا.

تراكمت أحزاني فوق بعضها بفوضى، أما هذا فيشبه الرقص، خطوة تلو أخرى حتى لا تبقى خطوات. أستطيع متابعة هذه الخطوات حتى الآن. من المهم ألا

أنسى، ربما أضطر لتكرارها.

اخترت الساق لأن بها لحمًا أكثر، ولأنه يمكن تغطيتها بالبنطال. اخترت الساق اليسرى وليس اليمنى لأنني أيمن، هذا يجعل من الأسهل توجيه النصل. استخدمت موسًا لحلق أربع بوصات مربعة من ساقي، فظهر جلدي الشاحب من تحته. يشبه الحقل بعد الحصاد. وضعت مطهرًا على المشرط، وسحبته برفقٍ من طرفٍ لآخر داخل محيط الأربع بوصات المربعة دون أن أضغط. تَشكَّل خط باهت رفيع مثل الرمش، فاستخدمته كخط إرشادي لأسحب عليه المشرط مجددًا بضغطٍ أقوى. تجنبت الشريان والعظم، فهذه الإصابات لا يمكن التعامل معها وحدي في حمام البيت. تمسكت بكرسي الحمام بقوة وكأنه يد امرأة تقدم لي الدعم. ليست أمي ولا أمك، بل أم مثالية شعرها ملفوف فوق رأسها بخفة وتفوح منها رائحة كيك طازج.

تعرقت قليلًا لأن الجزء الأصعب سيبدأ.

نعم، الأصعب لم يحدث بعد. سكبت المطهر على الجرح، فصرخت. لم أنظر إلى المشهد مباشرةً. كان مهيبًا؛ مثل العالم وهو ينتهي بالنار، أو قلب "يسوع" وهو ينزف، أو امرأة عذراء عارية لا يمكن النظر إليها مباشرةً. شعرت بدوار حتى ظننت أنني سأفقد وعيي. شعرت بالنشوة.

استجمعت قوتي وعدت لوعيي.

كنت جالسًا بالفعل. قمت بخياطة جرحي بنفسي، غرزة تلو الأخرى. احتجت ست أو سبع غرز. لا أتذكر التفاصيل، تخيلت أنني أخيط جرح رجلٍ آخر. هكذا تدبرت أمري بدون مخدر. سكبت المزيد من المطهر على ساقي. سال على ساقي وانزلق عنها. كنت سأشربه لو اعتقدت أنه سيريحني.

هذا كان أصعب جزء.

عندما انتهيت، وجدت الغرز على شكل «xxx"، فتذكرت أن هذا الرمز يشير لكلمة «kisses" التي تعني "قبلات" ونكتبها في نهاية الخطاب من باب المودة. هناك بعض الإضافات لإخفاء هذا المظهر؛ مثل المطهر، والشاش، والضمادات البيضاء التي تلتف حول ساقي مثل ياقة سترة ضيقة، وقرصين من مضاد الالتهاب «إبوبروفين» لتسكين الألم الذي سيسري في ساقي بمجرد أن يزول تأثير الصدمة، وبنطال منامة نظيف يستقر على جسدي الساخن بخفة شديدة كالهواء. مسحت الدم بمناشف قديمة ثم وضعت المناشف في الغسالة، وتأكدت من ضبطها على الغسل الساخن لكي تزول البقع، ثم شربت ويسكي ليهدأ الألم. شربت كأسين أو ثلاثة. عند هذه المرحلة، بدأت المسكنات تعطي مفعولًا. ذهبت إلى السرير بساقٍ منتفخة بسبب الضمادات.

رافقني الأرق وعجزت عن النوم من التفكير بكِ.

أفكر في فمكِ مجددًا.

ظننت أنني تخطيت هذه المرحلة، لكن لا. أفكر في لسانكِ وشفتيكِ ولثتكِ. إنها ناعمة لكنها جاهزة لنمو الأسنان، أتحقق من ظهور أسنانكِ كل يوم، أسحب إصبعي عبر فمكِ من جانبٍ لآخر في استعدادٍ وخوف من ظهورها. تمصين إصبعي. تسحبه عضلات فمكِ للداخل ثم تدفعه للخارج، فأشعر بالدم يندفع عبره. فمكِ قوي، وكأنه ماكينة كبيرة. هذه هي فطرتكِ حتى بدون والدتكِ. لا أحد علمكِ هذا. لكن بعض الأشياء لا تحتاج التعلم.

كلما أغمضت عينيَّ وفتحتهما، رأيت فمكِ يبتسم لي. أحيانًا يكون لديكِ وجه وأحيانًا يكون مجرد فم يطوف فوق السلم أو طاولة المطبخ، مثل القط الخفي في «أليس في بلاد العجائب». يتكون فمكِ من درجات كثيرة من اللون الأحمر والوردي والوردي المحمر، لونه كألوان محل جزارة. الفم هو الأداة التي تُخرِج ما بداخل الشخص، لهذا أنا خائف ولا أستطيع النظر إليكِ ولا حتى بلفتة جانبية. لهذا لم أنم حتى تحت تأثير المسكنات.

من الأسهل أن أغلق فمكِ.

ربما أستخدم إبرة لأخيط شفتيكِ معًا، أو أستخدم صمغًا قويًّا من النوع الذي يلصق الأثاث. هذا سيبقيكِ صامتة وآمنة. لكنني متأكد أنه من الضروري أن أجرحكِ. يكفي أن أقطع لسانكِ. فأنا لا أريد تشويهكِ. لو أبقيتِ فمكِ مغلقًا ولم تحاولي الكلام، فلن يعرف أحد حقيقتكِ. هل أخدع نفسي؟ بالطبع سيعرفون، وعندها سيكون الأوان قد فات.

لن تفهمي هذا الآن، لكن لسانكِ عبارة عن جِذر، مثل جِذر البطاطس الذي يجري تحت الأرض. فلسانكِ متصلٌ بحلقكِ ورئتيكِ وقلبكِ الذي يضخ الدم لجسمكِ خمس وستين مرة في الدقيقة. لو فسد لسانكِ فسيفسد كيانكِ؛ قلبكِ ورئتاكِ وحلقكِ وعقلكِ وعيناكِ. اللسان الفاسد يجب قطعه بالسكين، لا يمكن أن تترك شرًّا ينمو داخل إنسان وتتوقع أن يُشفى. هذا الدرس تعلمته بنفسي. كنت أغلق على نفسي الأبواب، وأقيد نفسي بارتداء ربطات العنق، وأشبك ذراعيَّ باستمرار لأحبس كياني الفاسد بداخلي، حتى ملأني الحزن والتعاسة. قضيت ثلاثين سنة من عمري أفعل هذا. ليتني استخدمت الصمغ على نفسي أفضل.

لا أريدكِ أن تحبسي نفسكِ دائمًا، أريدكِ أن تبدئي بداية جديدة، أريد لكِ الخير. أستطيع منحكِ ذلك بجرح سكين. أعدكِ أن أفعل ذلك بإتقان مرة واحدة وإلى الأبد.

لقد جرحت نفسي بالأمس، ضغطت بقوة لدرجة أنني احتجت إلى غرز.

قلت لنفسي: «الآن سأعرف كيف ستشعر. الآن سيمكنني النظر إليها بتعاطف حين تنزف».

يا لي من جبان! يا لي من خائف! لا علاقة لهذا بالتعاطف، بل الغفران. بمعنى أن أوهم نفسي بأن جرحي الصغير مقابل جرحكِ الكبير، لكن لا مجال للمقارنة.

لديَّ بقعة دم على ساقي، بينما سيبقى لديكِ قطعة لحمٍ دامية عالقة بفمكِ.

لديَّ ندبة وردية ناعمة ستختفي مع الزمن، بينما سيظل فمكِ عاجزًا عن الكلام حتى بعد عشرين أو ثلاثين سنة.

ستبقى لديَّ ذكرى لنصل يخترق لحمي بسرعة، بينما سيتكون لديكِ فراغ داخلي بسبب أعوامٍ من الصمت. ستصرخين وتصرخين وتعلق صرخاتكِ داخل فمكِ.

يا لي من جبان! يا لي من خائف!

هل ستسامحينني حين تكبرين وتفهمين معنى الغفران؟ هل سيكون لديكِ كلمات تقولينها؟

أتمنى ألا تصل الأمور إلى هذا الحد يا صغيرتي. أراقب فمكِ كالساعة؛ فعنده تقف بداية العالم ونهايته. أتساءل إن كانت يدي سترفض طاعتي وقتها. ربما. أتخيل الموقف في عقلي. من الصعب أن أسمي ذلك عطفًا الآن. لقد تسللتِ بداخلي مثل جِذر شجرةٍ عنيد.

إنه ما يسميه الآخرون بالحب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14
الأمطار

الجو ثقيل منذ أيام. لا يهدأ أو يثور، بل يظل غائمًا. حتى ظهرت سحابة خلف «كايف هيل». سحابة واحدة ليست أكبر من قبضة طفل ولا أخطر منها. بياضها ساطع وسط السماء الفارغة، تبدو مثل خروف أبيض وسط بحرٍ أزرق. نظر الناس إليها، خرجوا من منازلهم والتقطوا صورًا بتليفوناتهم، وأرسلوها لأقاربهم في «بورتراش» و»إنيسكيلين». مضت شهور منذ رؤوا سحابة، لهذا هم شاكرون لظهور واحدة تلقي بظلها على «كايف هيل» الآن.

كبار السن هم الأسعد بهذا؛ لقد تحملوا الحر طويلًا وانتظروا تغيير الجو على أحرِّ من الجمر. إنهم مستعدون تمامًا لبدء محادثات عن الجو الجديد؛ عن الندى، والضباب، والرياح. لكن ينقصهم بعض المطر للاندماج. يقولون بلهفة "ربما تمطر"، بينما عيونهم متعلقة بالسحابة الصغيرة.

استغرقت السحابة عدة أيام لتكبر. ظهرت في تقرير الطقس يوم الجمعة، ثم ظهرت في الأخبار الرئيسة مساء السبت. سمح الناس لأنفسهم ببعض الأمل؛ بعضهم صلى من أجل المطر، وبعضهم الآخر انتظر بصبر المشيئة الإلهية، حتى لو عنى ذلك المزيد من الحر. لا أحد يتمنى المزيد من الحر. بنية سكان الشمال لن تتحمل أشعة الشمس أكثر.

والمدينة نائمة ليلًا، تكاثرت السحابة لتلد المزيد من السحاب الأكبر منها، يتعلق الأمر بالضغط الجوي والتيارات الباردة القادمة من المحيط الأطلنطي، لكن الكنائس المحلية مصرة على أن السبب هو الدعوات المستجابة. استيقظ الناس في الصباح ليجدوا السماء ملبدة بالغيوم التي تخيِّم على المدينة، وبدأ مذيعو الطقس بالتوقع بكلمات مثل «ربما، من المحتمل، نأمل». لا يريدون إحباط المشاهدين، لا يريدونهم أن يغيروا القناة. بدأ الناس يأخذون معطفًا خفيفًا كلما غادروا البيت. يقولون: «من باب الاحتياط»، وكأنهم بحاجةٍ إلى سببٍ منطقي لتبرير أمانيهم لسقوط المطر. حتى أن بعضهم يضع شمسية قابلة للطي في حقيبة يدهم.

عندما أمطرت السماء أخيرًا، فاضت كالمحيط، اندفعت الأمطار في كل مكان. بدا أن العالم سينتهي بفيضان، وتلاشت كل فكرة عن النار. اندهش سكان الشرق؛ كانوا قد نسوا معنى البلل. أخيرًا عادت الأمطار. ويا لها من عودة قوية!

هطل المطر صباح الإثنين، لا بأس بيوم الإثنين لبداية الفصل الجديد. بدأ المطر ومعظم السكان نيام، استيقظوا على صوت قطرات المطر وهي تطرق نوافذهم وتغرق مناورهم. استيقظوا مبتسمين. الطقس جميل اليوم، والهواء نقي.

سقطت أول قطرة على يد ساعي بريد وهو يضع خطابات في صندوق البريد على طريق «بيرسبريدج». فنظر للأعلى ليرى ما أصابه. سقطت القطرة الثانية على جبهته، بعد ذلك غرق تمامًا. لم يكن المطر باردًا بل فاترًا، مثل مطر جزيرة «مايوركا» أو «تنريفي»، لكنه تبلل تمامًا، غرق زيه الرسمي وملابسه الداخلية وحتى جواربه، ابتلت الخطابات في يده وذاب الحبر واهترأ الورق. فوجد نفسه يحمل شيئًا بنيًّا يشبه العجينة. تفاجأت المدينة كلها بهذه السيول وكأنه طقس تعميد مفاجئ. أشخاص يمشون كلابهم، أشخاص يركضون، عمال نظافة، عمال مناوبة ينتظرون الباص. كلهم تفاجؤوا بالمطر وغرقوا بالماء. ابتسموا بفرح؛ أخيرًا تبللوا بعد كل هذا الجفاف. إنهم يعدون المطر نعمة، ولا يعرفون إلى متى ستدوم.

بحلول الأحد، اكتفى معظم الناس من المطر. امتلأت المصارف والمجاري حتى فاضت في الشوارع بثقلٍ بسبب كثافتها. في أسوأ أجزاء المدينة، فاض مع المجاري جثث حيوانات، وقشور بطاطس، وفضلات بشرية. غرق طريق «ويست لينك» تحت الماء بثلاثة أقدام. أصبح مجرد ذكرى لما كان عليه. في جنوب المدينة، بالقرب من مطعم «كاترز وارب»، فاض نهر «لاجان»، وانزلقت السيارات المركونة على الطريق بينما يرتفع الماء حولها لتبدو أشبه بغواصات تحاول الصعود إلى السطح. انطلق طلاب نادي التجديف بالجامعة، وأخرجوا قواربهم البرتقالية وداروا بها في المدينة. ظهروا في أخبار السادسة وهم يبتسمون للكاميرا، ويرفعون مجاديفهم وكأنها لافتات. اليوم إجازة بالنسبة لهم، إجازة من الملل اليومي، لكنه ليس يومًا سعيدًا لمن يسكنون في بيوت على جانبي النهر، بل هو عذاب. لا يمكنهم إخراج الماء المتدفق إليهم بدلوٍ وممسحة.

في وسط المدينة، الأرصفة رمادية، مثل السماء وواجهات المحلات. وهناك بحيرة تتكون بسرعة في المنطقة التجارية. كل الأماكن تبدو رمادية وغارقة بالأمطار، الناس شاحبون ومبللون؛ معظمهم يبقى في البيت ولا يخرج إلا للضرورة القصوى، مثل الذهاب للعمل، أو شراء البقالة، أو مساعدة الأقارب كبار السن. مجرد السير لمسافةٍ صغيرة يبدو كالسباحة. تشعر بالماء يتسلل لرئتيك، رائحة المطر نقية للغاية لدرجة تؤلم بعدما اعتاد الناس على دخان الحرائق. بعض الناس خرجوا في المطر وفتحوا أيديهم وأفواههم بينما يبتسمون مثل الأفلام الرومانسية. الكثير منهم ليس مرتبطًا أصلًا، لكنهم

مرتاحون لأن جوهم عاد إليهم. لا فائدة للمظلات في هذا السيل الجارف، فكل ما تفعله هو الإشارة للأعلى والأسفل، لأن الماء أحاط بكل شيء. كل شيء أصبح ناعمًا وزلقًا.

إنها تمطر منذ أربعة أيام الآن، منذ الإثنين حتى الخميس دون راحة. ما زالت تمطر بغزارة. تتقافز القطرات على الرصيف بعنف وكأنها تخشى الرجوع للسماء مجددًا لتعيد دورتها. من المستحيل إشعال نارٍ الآن، فالمطر لا يطيق الحرارة، حتى إشعال السيجارة يحتاج إلى مهارة في تحريك المظلة ويديك معًا لصنع حاجز. الماء يقتل النار مرارًا وتكرارًا. وكأنهما يلعبان «حجر، ورقة، مقص» بينما تغرق بلفاست.

انتهت «النيران العالية». وضع المطر حدًّا للصيف، وكل الهراء الذي حدث فيه. الآن تستعد المدينة لموسم آخر. يمكنك أن تسمع الأخبار في باصات النقل العام. ستسمع جملًا مثلَ «الليالي تطول» و»الجو أصبح غريبًا». يفركون أيديهم معًا بينما يتحدثون على الرغم من أن الجو ليس باردًا للدرجة. ستعود المدارس خلال أسابيع قليلة وستتغير الأحوال. عيد الميلاد بعد أربعة أشهر. لقد انتهى الصيف تمامًا، وانتهت «النيران العالية». لو بحثت عنها في "ويكيبيديا"، ستجد المقال يستخدم الفعل الماضي. هناك تواريخ لأحداث وبدايات ونهايات لكل فصل في تاريخ المدينة.

لا توجد حلول أو إنجازات، لكن هذا لا يعد فشلًا. هذا هو العادي في بلفاست كل صيف منذ اتفاقية السلام بين أيرلندا وإنجلترا. الغضب الهائج نفسه يشتعل في نهاية يونيو، ويفور في الشوارع الصغيرة. يتواصل الصراخ والثورة حتى يوليو، ثم يهدأ الحماس في أغسطس. ينتهي الهياج تدريجيًّا مثل بندول يتباطأ. يبدأ عدد الناس الغاضبة يقل شيئًا فشيئًا مع انتهاء الصيف، حتى لا يبقى إلا قلة تقف على نواصي الشوارع. يتحدثون عن كرة القدم وبرامج الليلة الماضية في التليفزيون ليتخلصوا من الملل. لم يعودوا صاخبين كما كانوا. لم يعد عددهم كافيًا للقيام بشغب أو إشعال حريق أو المطالبة بحقوقهم المدنية. أخذ سنهم يقل يومًا بعد يوم حتى لم يبقَ إلا الأطفال. التظاهر هنا يُعد وسيلة لقضاء إجازة مملة، مجرد شيء يفعلونه حتى يبدأ موسم كرة القدم.

تساءل الباقون عن سبب بقائهم دون حماس للتخطيط لحرائق أو الاعتراض على سوء المعاملة. أين ذهب الثوار؟ يتمتمون: «لقد فضل بعضهم البقاء في المنزل، ومشاهدة المسلسلات، وتجهيز الأطفال للمدارس. نحن حمقى لاستمرارنا في هذا". تقل أعدادهم كل يوم، حتى لا يبقى أي شخص يقف في الشارع حاملًا لافتة ويتحدث. لا يمكن توقع متى هذا اليوم بدقة. سيأتي وقتما يأتي دون أن يلاحظه أحد، مثل السعال الأخير في نزلة برد. سيتأجل الغضب

للعام المقبل. حبس أهل شرق بلفاست غضبهم وعادوا لطبيعتهم. لقد سعدوا بعودة لياليهم العادية. سيبدأ عرض برنامج "ذا إكس فاكتور" (The X Factor) على قناة «ITV"، و"ستريكتلي" (Strictly) على قناة أخرى. لن يريدوا تفويتهما. يقولون: "يا له من صيف»، ثم يلملمون غضبهم وكأنهم يجمعون أمتعة الإجازة في حقائب. بعد ذلك ينتظرون يونيو القادم حين يبدأ الهياج مجددًا.

هكذا الحال في شرق المدينة دائمًا. أدت «النيران العالية» إلى ارتفاع درجة الحرارة هذا الصيف. لكننا في أغسطس الآن، ويفهم الجميع أنه حان وقت الهدوء لأننا في نهاية الموسم. حتى الشباب فقدوا اهتمامهم بالحرائق أو الصراخ في وجه الشرطة. لم تعد لديهم الرغبة.

يمرون بالأماكن التي اشتعلت فيها «النيران العالية»، ولا يشعرون بغضبٍ كافٍ لحرق أي شيء. أزال المطر ذكرى النيران من عقولهم. ينظرون إلى علامات الحرق على الأرض. هناك بقع سوداء متفحمة بدلًا من المحلات أو البيوت التي كانت قائمة مكانها، يغرزون عصا في الرماد، ويدوسون عليه بأحذية بيضاء نظيفة، تاركين فجوة صغيرة في القار. يسألون بعضهم: "هل فعلنا هذا الحريق؟ أم الآخر الذي في نهاية الشارع؟"، لا يمكنهم تذكر تفاصيل ما فعلوه في الصيف.

لم يقل السياسيون شيئًا. إنهم محترفون في الكلام، ويمكنهم التحدث لساعات دون أن تخرج منهم بكلمة مفيدة. يمرون ببعضهم في البرلمان فيهزون أكتافهم ويبتسمون بفهم. لا يصدقون أن الموقف انتهى أخيرًا وحده. عندما يتكلمون، يتكلمون بخفوت، خلف الأبواب المغلقة وبعيدًا عن الناس. أفواههم مليئة بالتفاهات. فليتركوا الموقف ساكنًا. لا فائدة من البحث عن تصريحات مناسبة، خاصةً أن الأزمة انتهت. قال بعضهم بمزاح: «نحن كمن فلت بجريمة قتل هذه المرة يا رفاق». من الخطير قول تعبيرٍ كهذا هنا، النواب الكبار يعرفون هذا. لقد ركزوا اهتمامهم بالكامل على المطر. طلبوا أكياس رمل، ومضخات ماء، ومؤونة طعام تحسبًا لحدوث فيضان. كما طالبوا بإخلاء بعض المواقع إذا لزم الأمر.

اتفق الجميع على ضرورة إيقاف المطر.

وكلهم أرادوا الاشتراك وإظهار أنفسهم.

ما أفضل أن يكون الجميع في صفٍ واحد من باب التغيير.

ظهر السياسيون على التليفزيون معًا، وتحدثوا عن الفيضانات بصوتٍ عالٍ بينما يرتدون ملابس غير رسمية، ويشمرون أكمامهم وكأنهم مستعدون

للتنفيذ. هذا ما يُسمى بجبهةٍ مشتركة. من النادر رؤية شيءٍ كهذا في بلفاست. بدوا واثقين تمامًا بأنه لا أحد لاحظ فشلهم مع الحرائق ومن باب التأكد، حرصوا جميعًا على الظهور والثرثرة بتبجح. السياسة خداع في هذه المدينة. مشكلة تشتت الانتباه عن مشكلة، وهكذا وهكذا، إنها سلسلة طويلة. الأوضاع هادئة على كل الجبهات، الغرب والشرق ووسط المدينة. والأثرياء يستفيدون في كل الحالات.

انتهى موسم السياحة، لم يكن ناجحًا؛ أولًا الحرائق والآن المطر، لكن يبدو أن هذا الجو «الرائع» لم يكن كافيًا بما فيه الكفاية لتشتيت الانتباه عن مشاكل بلفاست الواضحة. حتى أشجع الشجعان بقوا بعيدًا. ومن عاد بقي في ضواحي الشمال، «إنيسكيلين» و«دونجال» و«بوشميلز» و"ممر العمالقة". يبدو أن هذه المناطق لم تفقد سحرها بعد. حتى هيئة السياحة التي يُفترض بها فحص كل شبر في المدينة للترويج لها، قالت إن هذا الصيف خاسر. يعدون الخسائر ويقدرونها بأكثر من عشرة ملايين، لكن أقل من مائة مليون. يا لها من فوضى وخسارة لهذا الجو الجميل! قد لا يأتينا صيفٌ كهذا قبل عشر سنوات.

لم تُذع فيديوهات أخرى لـ«مشعل الحرائق». مضى شهرٌ تقريبًا على آخر فيديو، ولم يعد رائجًا على وسائل التواصل الاجتماعي. جمع فريق الـ«بي بي سي» معداتهم وعادوا للبر الرئيس. لم يعد في بلفاست ما يستحق إذاعته في لندن، لا شيء يُقارن بأخبار الإرهاب العنيف؛ اختطاف طائرات، متطرفون ملتحون، تفجيرات انتحارية. عادت الأخبار المحلية عن الجو وحوادث السيارات، وأحيانًا المخدرات، وهناك اعتداء عنصري كل أسبوع تقريبًا. لا شيء بخطورة الأيام الخوالي. لا شيء مخيف لدرجة أن يُبقي كبار السن في بيوتهم.

بعد ثقتهم في انتهاء صيف «النيران العالية»، حلَّت الشرطة الوحدة الخاصة. عاد محققو الحرائق الشجعان إلى وحداتهم في «فلوريدا» و«لانزاروت» فورًا. فرحوا لأنهم سيحصلون على إجازة أسبوعين تحت الشمس قبل عودة الأطفال إلى المدرسة، وفرحوا أكثر لأنهم أخيرًا سينفضون أثر الدخان عن ملابسهم. عادت قوات الإطفاء الإضافية إلى إسكتلندا. عادوا حاملين "شكرنا وامتناننا ووعودنا بتقديم أي مساعدة من بلفاست إليهم. هذا إن احتاجونا يومًا ما أصلًا".

نشرت صحيفة «نيوزليتر» صورة شاحنات الإطفاء الإسكتلندية الستة وهي تصعد على عبارة «لورنا كايرنراين»، لونها أحمر فاقع مقارنة بالقارب الرمادي والسماء الغائمة، توحي ببهجةٍ شديدة.

جاء الكثير من البنائين إلى كل مكان في المدينة. مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد؛ هذا هو أفضل وقت للبناء في شرق بلفاست. من الصعب التصديق بوجود ركود اقتصادي في حين ترى البنائين متجمعين أمام منافذ بيع شركة «بي أند كيو» لمواد البناء. بدأ الكل يستخدم أموال التأمين، والجميع في عجلةٍ من أمرهم. بدأ البناؤون بتجهيز الإسمنت، ووضع الأساسات، وتغطية الأسقف قبل حلول الشتاء. إنهم يعملون بدون إتقان، وجهاز مراقبة الجودة يتجاهل الأمر. فمن مصلحة الجميع أن ينتهي بناء المدينة بأسرع وقت.

بُنيت الأسوار والمحلات والبيوت. كل البنائين يقولون للناس: «بالطبع ستحصلون على بيوتكم قبل عيد الميلاد". إنه بمنزلة شعار يصدقه الجميع. ارتفعت بيوت بحدائق، وقامت مدارس ومقاهٍ وقاعات للأنشطة العامة من وسط رمادها. بالتأكيد سيبيت الجميع في بيوتهم قبل عيد الميلاد. وكأن "النيران العالية" لم تحدث أبدًا، ستعود بلفاست كالجديدة تمامًا. لن تعرف المدينة نفسها بعد بناء كل هذه المباني الجميلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

الفوضى

في نهاية شارع «كاسلراي»، جلس «سامي أجنيو» في بيته شاعرًا ببعض الراحة؛ انتهى صيف «النيران العالية»، ولن تُفسِد الموسم التالي. لن تحصد روحًا واحدة، لهذا يشعر بالراحة. أما بالنسبة لابنه الذي فشل في مسعاه، فما زال أمامه فرصة لعيش مواسم صيف بريئة كثيرة، ربما يمكن تغييره. فهو لم يقتل أحدًا مباشرةً، أو على الأقل لم يذكروا شيئًا كهذا في الأخبار. لا يستطيع «سامي» قول هذا الكلام على نفسه.

سمح لعقله بتخيل مستقبل ابنه، كان كريمًا معه وتخيله في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين؛ رجل مختلف في وظيفة مكتبية واسم رنان معروف في البلدة، شخص يمكن الاعتماد عليه والوثوق به، إلى آخره من هذه الصفات الحميدة. سيشغل منصبًا كبيرًا في مجال الكمبيوتر، لا يفهم «سامي» في هذا المجال، لكنه بالتأكيد سيشغل وظيفة كبيرة وسيحصل على مكتب خاص. ربما سيحصل على زوجة وأطفال وبيت جميل بحديقة في «هوليوود» أو «بانجور». لن يكون له سجل جنائي. ربما مخالفة سرعة على الأكثر، هذا ليس مستحيلًا. هناك دائمًا أشخاص يحكون حكاية إصلاحهم على التليفزيون وقت الإفطار. أشخاص فعلوا ما هو أسوأ بكثير. صحيح؟

أحيانًا يسمعان الولد يتحرك في الطابق العلوي، ويظهر التساؤل في عيني «باميلا»: «ماذا سيحدث لابننا مارك؟"

يقول «سامي» لزوجته ما يقوله لنفسه: «انتظري وسترين يا حبيبتي، سيصبح عظيمًا. إنها مجرد مرحلة مؤقتة». يقول هذا وهو يقبض يديه بقوة وكأنه يتشبث بالأمل لكيلا يفلت منه. إنه يصدق نفسه بالفعل. تركت أظفاره علامات في كفيه دليلًا على قوة ضغطه وشدة تمنيه. تصرفات «مارك» العنيفة مجرد مرحلة مؤقتة، مثل الاندماج في ألعاب الإنترنت، أو ذلك الصيف حين كان يتسكع مع بعض الأولاد، يسرقون من المحلات ويتجولون خارج القاعة العامة.

عندما يتجنب «سامي» «مارك»، عندها يستطيع أن يتخيل ابنه بمستقبلٍ محترم. حتى أنه يتخيلهم يقضون عيد الميلاد معًا كعائلة في مسلسل كوميدي، سيأتي «كريستوفر» و»لورين»، وستكون «باميلا» قد خسرت بعض الوزن وعادت سعيدة، سيضحكون كثيرًا ويلعبون ألعابًا مسلية على طاولة الطعام، سيشاهدون أفلام عيد الميلاد معًا مثل «Home Alone" (وحيد في المنزل) و"Mary Poppins" (ماري بوبينز)، وأيضًا «Die Hard" (الموت

الصعب) من أجل الأولاد. سيأكلون آيس كريم من العلبة مباشرةً، سيشترون وجبات خفيفة من «ماركس أند سبنسر» ويسخنونها في الميكروويف، سيأخذون صورًا لهم كعائلة طبيعية.

يا له من هراء وخيال زائد! يكفيه أن يقضي خمس ثوانٍ بصحبة «مارك»، أو حتى يلمحه وهو يسير في الطابق العلوي لكي يتأكد أن الفتى طباعه ثابتة لم تتغير أبدًا منذ طفولته. قالت معلمته ذات مرة إنه «لديه مشكلات". لكن هذا الوصف ليس دقيقًا، فـ"مارك" هو المشكلات بذاتها.

أبعد «سامي» ابنه عن تفكيره الآن لأنه بحاجةٍ لإراحة أعصابه. إنه يبذل جهده ليتجنب الفتى في البيت، هذا ليس صعبًا لأن الفتى يتحرك دائمًا في الأوقات التي تهدأ فيها حركة الجميع. عندما يسمع «سامي» خطوات قادمة من السقف، يعرف أن ولده مستيقظ ويخطط لشيءٍ ما. يشعر به مثل ثقل يتسلل عبر السقف، لكن لم تعد خططًا تحتل الأخبار الآن، لا شيء أكثر من فقرة في جريدة مثلًا. انتهت «النيران العالية»، أصبح الهواء داخل البيت أخف وأسهل للتنفس. عندما ينام «سامي»، يغلق أذنيه الاثنتين بثقة. فهو لم يعد خائفًا من اقتحام الشرطة فجأة بالأسلحة. يجلس في غرفة المعيشة ومعه كوب القهوة، ويشاهد المطر يسيل على النوافذ. يشعر وكأنه مريض سرطان يتعافى. لا يستطيع منع نفسه من مشاهدة المطر. إنه استجابة لدعوات ناس لم يفكر أن يدعوها معهم. بالطبع ما زال هناك ما ينغص هذه الراحة، لكن «سامي» اختار أن يتجاهل هذا الشعور مؤقتًا. من الجيد أن يريح أعصابه قليلًا، فهي مشدودة هذه الأيام. وهناك صداعٌ يلازم رأسه، وضيقٌ يلازم صدره.

يقضي نهاره في راحة ويقضي لياليه ثملًا قليلًا، ثلاثة أكواب بيرة بعد العشاء، وكأس ويسكي قبل النوم، يحب أن يشعر بأن لسانه ثقيل وكلامه بطيء. يتحدث مع "باميلا" عن البرامج التي يشاهدانها، وعن الطعام الصيني الذي يطلبانه، وعن فكرة شراء مطبخ جديد هذا العام أو العام القادم. يتحدثان في المواضيع البسيطة، لا يتعمقان أبدًا. المهم هو إبقاء الحديث مفتوحًا بينهما. لا يهم ما يقولان، بل المهم أن يتكلما أصلًا؛ الكلام مثل العضلات. لو توقفت عن تحريكها، ستضمر، لا يمكنهما المخاطرة بهذا. "سامي" ليس له سوى "باميلا"، و"باميلا" ليس لها سوى "سامي"، لا يستطيع أحدهما العيش بمفرده.

مضى زمنٌ طويل منذ تعاملا بهذا اللطف معًا. إنهما حريصان على عدم إزعاج بعضهما. يشربان الكثير من الشاي معًا، يقولان جملًا مثل: «هل تشعرين بالدفء يا عزيزتي؟ هل أشغل لك الدفاية لساعة أو ما شابه؟»، قد تظن أنهما مرا للتو بحالة وفاة ومتأثران بها. هذا لا يعني أنهما وقعا في الحب مجددًا، ليس إلى هذه الدرجة، لكنهما بدآ يتذكران كيف يعيشان معًا كل يوم في البيت نفسه. قال «سامي» لنفسه إن الإنسان يحتاج إلى كارثة حتى يقدر

ما لديه، لم يفكر مرة في إخبار «باميلا» كم كانا على وشك خسارة كل شيء. إنه يحافظ على الأوضاع هادئة ومستقرة وطبيعية، ويعتمد على التليفزيون لملء فترات الصمت الموترة. يرفع الصوت عندما يبدأ «مارك» بالحركة في الطابق العلوي. يفعل ذلك لحماية «باميلا»، يعلم أن هذا مجرد تظاهر، يعلم ذلك جيدًا. من الأفضل أن يتجاهلا الحقيقة لتفادي المشكلات. ليس لديه الجرأة للصعود للطابق العلوي مجددًا. ويتمنى سرًّا ألا ينزل «مارك» أبدًا إلى الطابق السفلي.

اقترب سبتمبر وما زالت تمطر. ذهب «سامي» إلى وسط المدينة ليشتري شبشبًا جديدًا. عادة تقوم الزوجات باختيار ملابس أزواجهن، لكن "باميلا" لم تكن أبدًا من هذا النوع من الزوجات. هذا يسرُّه. فهو ليس معتادًا على أن يختار له أحد ملابسه. نعلا شبشبه مخرومان، وتظهر أصابعه كلما مشى، لكن «باميلا» لم تلحظ. اليوم سيشتري شبشبه، كما اشترى بناطيله الچينز، وستراته ومناماته طوال الثلاثين عامًا الماضية.

إنه يوم السبت، ومن المستحيل إيجاد مكان لركن السيارة، لذلك ركب الباص. سار إلى أول طريق «كاسلراي» وركب. ما زال لم يستخرج اشتراكًا للباص، لذلك كلفته التذكرة جنيهين إسترليني ليركب مسافة أربع محطات إلى وسط المدينة. تمتم للسائق:

- لكان أرخص لو ذهبت بالطائرة.

وليضايقه السائق، انطلق بالباص قبل أن يجلس، فسقط على أول مقعد مثل شخص سكران. يجلس خلفه شابان، لاحظ وجهيهما الشاحبين ورائحة عرقهما الواضحة. إنهما يرتديان قبعتين صوفيتين، مثل القبعات التي كان يرتديها البناؤون في السبعينيات، أو عمال بناء السفن. ظل الولدان يسبان طوال الوقت بكلمات قاسية وفظة، وصوتهما حاد. كلامهما مزيج من الكركرة والبصاق، أو مثل دجاجتين غاضبتين تتشاجران. اقتحم كلامهما أذن «سامي»، فلم يستطع منع نفسه من سماعه.

بخلاف ثلاثتهم ورجل عجوز يسير بمشاية، كان الباص فارغًا. لو أدار "سامي" رأسه، سيرى وجهي الشابين منعكسين على النافذة. إنهما يشاهدان فيديو على التليفون المحمول. مَدَّا التليفون المحمول أمامهما ليشاهداه معًا. تليفون «سامي» المحمول يقوم بالأساسيات فقط؛ المكالمات والرسائل. يكلفه عشرة جنيهات إسترليني في الشهر، ومعظم الوقت بطاريته فارغة. هذا الشاب يملك «الآيفون» نفسه الذي اشتراه «سامي» لـ«كريستوفر» في عيد الميلاد الماضي. سعره كسر ظهره. اشتكى لـ«باميلا» قائلًا: «يمكن شراء

سيارة بهذا المبلغ»، لكنه اشتراه على كل حال لأنه لا يستطيع إفساد علاقته بـ»كريستوفر» أيضًا. فهو الابن الصالح المتبقي.

مر الباص بمطعم بيتزا، ولثانية انعكست صورة الثلاثة على واجهة المطعم الزجاجية؛ «سامي» بسترة خفيفة والشابان بالملابس الرياضية. يميل الشابان برأسيهما بالقرب من بعضهما ليريا شاشة التليفون المحمول بوضوح. يرتديان ساعتين ضخمتين، كل ساعة بها شريط ذهبي ينعكس على الزجاج. ويضعان سماعتين في آذانهما. يبدو أنهما يقضيان معظم حياتهما متصلين بالإنترنت. إنه بمنزلة جهاز الإنعاش لهما. تساءل «سامي» من أين يأتي الصغار بالمال لشراء كل هذا، من بيع المخدرات على الأرجح.

سأل الشاب صديقه:

- هل شاهدت هذا؟

لكن صديقه لم يشاهده.

قال الشاب الأول:

- إنه ذلك الفتى الذي يقوم بفيديوهات "مشعل النيران". لقد رفع فيديو جديد ليلة أمس.

انتبه «سامي» فورًا. شعر بتيارٍ كهربائي يسير على عنقه وكتفيه، بل مثل الزجاج المهشم. أحس بتوترٍ في معدته وبصداعٍ في رأسه، وكأنه على وشك التقيُّؤ ولا يعرف أين يفعلها، ليس معه كيس حتى. يود لو يستدير ويقذف بالتليفون من يد الشابين. لكنه لم يفعل، لم يستطع، بل نظر أمامه مباشرةً وركز على الزجاج الأمامي للباص، والمسَّاحات التي تتحرك وكأنها تلوح له، ورأس السائق الأصلع. جلس متخشبًا ومستقيمًا مثل عمود الكهرباء، عاجزًا عن ترك مكانه. يجب ألا يستدير، لا داعي لجذب الانتباه لنفسه. يجب أن يظهر شخصًا عاديًّا.

إنه ليس خائفًا من الشابين. يمكنه طرح الاثنين أرضًا، حتى بركبته المصابة وكرشه. لا، إنه ليس خائفًا من أحد، بل خائفًا من الغضب المحبوس بين ضلوعه، ويحاول التسلق والخروج عبر حلقه. إنه يعلم أنه لن يستطيع التوقف لو بدأ. ضغط على أسنانه وقبض كفيه بقوة يريد تخريب كل شيء؛ هذين الشابان وتليفوناتهما، و»مارك»، ونفسه، وكل المدينة اللعينة. انسحب المنطق من عقله ولم يعد يشعر إلا بالغضب، بذل جهده لكبحه. لقد علَّم نفسه كيف يفعل هذا بالتنفس العميق، والتحكم بعضلات معينة، معظمها في رأسه. جلس مستقيمًا وأرهف السمع. كله آذان صاغية الآن. سأل الشاب الثاني:

- ما الذي يقوله الآن؟ لقد انتهت "النيران العالية" بالفعل بسبب المطر.

- ليس بالنسبة لهذا الرجل. يقول إنها البداية فقط، انظر بنفسك.

لمح «سامي» في النافذة الجانبية الشاب الثاني. يبدو في الخامسة عشر على الأكثر. ما زال صوته رفيعًا. قال:

- دعني أرى.

أخذ تليفون صديقه ورفعه أمام وجهه ووضع السماعات في أذنيه ليسمع وحده. هكذا لم يستطع «سامي» سماع ما يقال. عليه الآن أن يتخيل لافتات التهديد، التي يمسك بها ابنه ويحركها واحدة تلو الأخرى أمام الكاميرا، وكأنه «بوب ديلن» يعرض كلمات الأغاني على الشاشة. عليه أن يتخيل كل هذا، لكنه ليس صعبًا، فهو يحلم بهذه الفيديوهات.

شاهد الفتى الفيديو كله. استغرق أقل من دقيقة، لكنها بدت كشهر بالنسبة لـ»سامي»، مع أن الباص ما زال واقفًا في الإشارة نفسها. نزع الشاب السماعات من أذنيه وأعاد التليفون لصديقه وهو يقول:

- رهيب!

رد الشاب الأول:

- أعلم. هذا الشاب مختل، صحيح؟

- مجنون تمامًا.

- من الجرأة أن يقوم بإحياء الأمر مجددًا. من المنطقي أن يكون قد استسلم الآن.

- لا، يقول والدي إن المجانين أمثاله لا يتغيرون أبدًا. لقد ارتاد أبي المدرسة نفسها مع واحد مجنون يهوى التعذيب، كان ذلك في فترة «المتاعب». يقول والدي إنه كان يبدو غريبًا دائمًا. لم يكن يخاف من شيء، ولا يتعاطف مع أي شخص. كان فقط مختلًا. والشاب «مشعل النيران» كذلك.

- هل تظن هذا؟

- يقول والدي إنه لا يهتم بالسياسة، بل يريد فقط نشر الفوضى.

- مثل "الجوكر".

- نعم يا "دارين"، إنه مثل «الجوكر» بالضبط.

- مدهش.

- مدهش جدًّا، لكن لا أود أبدًا الدخول في خلاف مع ذلك الوغد. لا يمكنك أن تعرف مدى ما يصل إليه شخصٌ مجنون مثله.

صمت الشابان قليلًا بينما يبتعد الباص عن الإشارة، ثم يذهب لآخر طريق «كاسلراي» وهو يتمايل بين صفوف السيارات المركونة. قال الشاب الأول محطمًا حاجز الصمت:

- أنا مستعد.

سأله الشاب الثاني:

- مستعد لماذا؟

- لأي شيء يسعى إليه هذا الرجل.

- المزيد من الحرائق؟

- أيًّا كان؛ حرائق، اعتداءات بالضرب، مهاجمة الشرطة. كان ممتعًا الاندماج في شيءٍ ما من باب التغيير، أليس كذلك؟

- نعم، كان أمرًا مثيرًا.

- إنه أفضل صيف عشناه.

- لا داعي لنتركه ينتهي.

- لا داعي على الإطلاق.

- بعض المطر لن يمنعنا من الدفاع عن حرياتنا المدنية.

- صحيح، مجنون أو لا، هذا الرجل ليس جبانًا، لا يستلقي أرضًا ويدع الآخرين يدهسونه. أنا معه، سأفعل ما يريد.

رددا معًا:

- الفوضى والاضطراب! لا استسلام!

"بووم، بووم، بووم"، وكأنها كلمات أغنية سخيفة. تخيل «سامي» الأمر وكأنه دعوة للقتال من «مشعل النيران». تخيل كل كلمة مطبوعة على لافتة، تخيل الموسيقى المصاحبة للفيديو. ليست من الروائع لكن «مارك» يعرف ما يفعله جيدًا. اختار أغنية قديمة باللغة الأيرلندية ليثير مشاعر الناس.

لا استسلام بالتأكيد.

اشتد شعوره بالغثيان، فكبح نفسه بصعوبة وغطى فمه بيده. قال لنفسه «إنها ليست غلطتي، فعلت كل ما بوسعي لأصلحه»، ثم تذكر أن أخطاء الآباء

يحملها الأبناء، وتذكر دروس قداس الأحد. إنه متأكد بأنه السبب الرئيس فيما يحدث. ربما كان سينشر هذه الفيديوهات بنفسه أيضًا. جزء منه يتمنى لو أنه الفاعل. وجزء صغير شرير فيه يشعر بالفخر بـ»مارك»، بل والغيرة أيضًا. شعر بصداعٍ في رأسه وبقبضةٍ تعتصر قلبه. ربما سيصاب بذبحةٍ صدرية أو هو مجرد قلق. لو أنه محظوظ، فقد يسقط الباص من على جسر «ألبرت» ويريحه من عذابه.

سأل الشاب الذي خلفه:

- ماذا تعني "الفوضى"؟

لم يكن الشاب الآخر متأكدًا، لكنه يظن أنها تشمل استخدام السلاح. قال الشاب الأول:

- إنها مميتة.

قال الفتى الآخر إنه سمع من صديق أخيه أن «مشعل النيران» سيعد قنبلة المرة القادمة.

سأله صديقه:

- هل تظل تُعتبر "فوضى" إذا شملت القنابل بالإضافة إلى الأسلحة؟

أكد له الشاب الآخر أنها ستظل «فوضى» ما دامت تحتوي على أي نوع من الانفجارات. رضا الاثنان بهذا التفسير، وعاد كلٌ منهما إلى تليفونه يبحث عن نتائج المباريات ويراسل أصدقاءه.

نزلا من الباص قبل الكوبري مباشرةً، بينما واصل «سامي» طريقه إلى المحطة. أراد النزول عند المحلات، ولم يستطع، ثم حاول النزول عند شارع «روزماري»، لكن عضلاته رفضت التحرك. لم يثق في ساقيه لتحملاه. عندما نزل من الباص أخيرًا، شعر أنه كبر عشر سنوات في هذه الرحلة. تشبث بالباب جيدًا لكيلا يقع.

سار "سامي" في البلدة لساعة. لم يشترِ شبشبًا، لم يشترِ أي شيء. انتقل من مقعدٍ إلى آخر، جلس ليشاهد المتسوقين يوم السبت، وهم يحملون أكياس المشتريات وأطفالهم ويتجولون بين المحلات. يدخلون ويخرجون، يشترون هدايا أعياد ميلاد، وكتبًا، وأحذية مدرسية للأطفال، وطعامًا لذيذًا من «ماركس أند سبنسر»، وسترة جميلة من «إتش أند إم»، ومزيل مكياج من «بوتس»، و»كابتشينو» من «ستاربكس». يمارسون آلاف النشاطات العادية التي لا ينتبه إليها «سامي» عادةً، الآن يلاحظ. تساءل من أين يأتون جميعًا. كل هؤلاء الأشخاص الذين لا يعرفهم، أين سيكونون بعد ثلاث ساعات يا تُرى؟

من يهتم لأمرهم؟ من يفتقدهم؟ إنهم يبدون عاديين جدًّا في نظره، ليس بهم ما يميزهم. الناس كثيرون ومتشابهون مثل النمل. لا بد أن هكذا ينظر إلينا الرب بقوته الجبارة.

قضى الظهيرة في التخيل. لم يكن صعبًا، فعقله مليء بالصور، تقارير إخبارية من السبعينيات والثمانينيات اندفعت عبر رأسه بسرعة. ليس من السهل نسيان هذه الصور. نوافذ محطمة، أكياس محلات ممزقة مثل قصاصات ملونة، علب طعام محفوظ وبقالة ملقاة في الشوارع. ثم تهدأ الأمور وتظهر آثارها التي لا داعي أن يراها أحد؛ ذراع، رأس، ساق بلا حذاء، دمية طفل متسخة، دماء، سيارات وصناديق قمامة مقلوبة، أضواء وسرينات سيارات النجدة، موتى في الطرقات، صمت مخيف يليه صراخ. تخيل «سامي» كل شيء، كيف كان الأمر وكيف يمكن أن يتكرر. جلس خمس عشرة دقيقة خارج محل «بيلد أ. بير» يشاهد الأطفال يصطفون لصرف مصروفهم. هناك عائلات تدفع عربات أطفالهم أو يحملونهم في حمالة على صدورهم. وهناك جدود وجدات وسياح ومراهقون يثرثرون بصخب مثل طيور غاضبة، وأيضًا موظفات محل في فترة الاستراحة. لا أحد مستعد لمواجهة انفجار. لا أحد مرتاب أو خائف.

هؤلاء الناس مثل الأطفال؛ لديهم ثقة مطلقة في الحياة. من المفترض أنهم يعرفون الحقيقة. كيف نسوا بهذه السرعة؟ غضب «سامي» منهم. إنهم أغبياء. يتحركون في اتجاهٍ واحد مثل الخراف ولا ينظرون خلفهم. يود أن يصرخ فيهم بسبب جهلهم، ويريد أن ينتقدهم ويعظهم مثل قس يقف وسط الشارع، ثم يشعر بالشفقة. يحس أنه على وشك البكاء، لكن لا يمكنه البكاء في العلن. لذلك ينتفض جسده وكأن البكاء يهزه من الداخل. يتمنى لو يجعل من نفسه حاجزًا بينهم وبين أفعال ابنه. يمكنه أن يفعل ذلك الآن بتليفونه. كل ما عليه فعله هو الاتصال بالنجدة، بالشرطة، بالإسعاف، بالإطفاء، بهم جميعًا، وخفر السواحل أيضًا. يكفي أن يقول: «ابني هو الفاعل». سيكون مثل النبي "إبراهيم" وهو يضحي بابنه، أو كالرب وهو يقدم المسيح. لا، هذا لا يقترب من الصحة أصلًا. التضحية تتم مع الأبناء الصالحين فقط، أما الفاسدون فلا قيمة لهم. لم يستطع إجبار نفسه على الاتصال.

شعر بألمٍ في صدره وصعوبة في التنفس. قد تكون أزمة قلبية، تمنى ذلك لأنها ستكون وسيلة سهلة للهروب من القرار، لكنها لم تكن أزمة قلبية. انتظم تنفسه بعد عشرين دقيقة. يستطيع أن يسير طويلًا ما دام لا يفكر في كل خطوة. ركب سيارة أجرة ومر بالمنطقة الشرقية، ثم الطريق الدائري حتى وصل إلى البيت، وإلى «مارك».

الشرطة، الإسعاف، الإطفاء. يعلم «سامي» ما يجب فعله، لكنه لا يعرف إن كان يستطيع فعله. قال لنفسه: «ليس اليوم. الأمر ليس طارئًا». قرر أن يتجاهل الموضوع، لكنه لم يستطع النوم. في الصباح التالي، شعر بمرض شديد كأنه ميت. أخذته «باميلا» إلى الطبيب بالسيارة. لم تسأله ما المشكلة، لأنها تعلم جيدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

الفيضان

أصبح المطر غزيرًا الآن. المجاري أغرقت المدينة، والناس يشعرون بالقلق من ارتفاع منسوب الماء. لم تمطر بهذه الغزارة منذ عقود. كنت في العمل حين أرسلت لي «كريستين» رسالة تخبرني أن الماء أغرق الطابق السفلي. تدفق من تحت الباب ووصل إلى ارتفاع نصف قدم في غرفة المعيشة. قطع الأثاث الخفيفة بدأت تطفو على الماء بالفعل.

لا أستطيع ترك المستشفى فورًا؛ فـ»مارتي» يضعني تحت الاختبار. إنه يراقبني جيدًا ويجب أن أتصرف باحتراف ومهنية بقدر الإمكان. ما زال لديَّ مريضان قبل استراحة الغداء. بعدها يمكنني الهرب لساعة أو أكثر إذا كان الموقف في البيت طارئًا. أستطيع أن أطلب من إحدى الطبيبات أن تحل مكاني. لديهن أطفال صغار لكن أزواجهن يساعدوهن، بالإضافة إلى أنهن يتفهمن موقفي مع «صوفي». أحيانًا يحضرن لي كيك وفطائر منزلية الصنع، أو قطعة من اللازانيا في علبة بلاستيكية خفيفة من النوع الذي يأتي مع الأكل الجاهز. يقلن لي: «فقط ارمِ العلبة في القمامة بعدما تنتهي من الأكل»، ثم يوضحن لي الوقت اللازم لتَسخين الطعام في الميكروويف. ما كن ليفعلن هذا أبدًا لو كنت امرأة. وبالتأكيد ما كن ليفعلنه لو كنت متزوجًا. أنا لست معترضًا، بل سعيدًا لأنهن يساعدنني في مناوباتي إذا احتجت المغادرة.

ظل تليفوني يومض، شعرت باهتزازه المتواصل في جيبي طوال مدة الكشف الأول. تفقدته خلسة بينما يخلع المريض ثيابه، حرصت على ألا أبدو مريبًا. من الأفضل ألا تستخدم تليفونك حين تكون مع مريضٍ نصف عارٍ. تريد «كريستين» أن تعرف ماذا تفعل. أرسلت لي ثلاث رسائلَ حتى الآن. الرسالة الثالثة كانت مجرد سلسلة من عشر علامات استفهام. شعرت بالدوار عندما نظرت إلى صف العلامات. تبًا، بالتأكيد لا أعرف ما العمل، لم أكتب لها هذا بالطبع. لا أعرف ماذا يجب أن أكتب. في هذه المواقف، لا أشعر أنني شخصٌ راشد أو حتى رجل خبير. أنا فاشل في أعطال السيارة والأجهزة الكهربائية.

كتبت لها: «اصمدي، سآتي إليكِ بسرعة». أرسلت "كريستين" صور وجوه حزينة. هذا وجه لديه دموع تتحرك، وهذا رجل يلوح بذراعيه ومرسوم تحته خطين. مهلًا، هذه صورة رجل صغير يغرق. الآن عليَّ التفكير لترجمة الصور! هذا ليس مضحكًا يا «كريستين»، ليس مضحكًا أبدًا. بدأت أشعر بالذعر. اشتد فزعي حين سألتني إن كان عليها الاتصال بأحد، سباك أو مصلح أو حتى والدها، فهو يجيد التعامل مع هذه الطوارئ.

كتبت لها: «لا». لا يجب أن يدخل أحد إلى البيت وأنا غير موجود، حتى في أثناء الطوارئ لا أستطيع المخاطرة بوجود غرباء حول «صوفي». كتبت لها: «ابقِ في الطابق العلوي وحافظي على «صوفي» دافئة. لا تفزعي. سأصل إلى البيت خلال ساعة».

وصلت البيت في أربعٍ وخمسين دقيقة. لست فخورًا بنفسي، فقد كنت شاردًا تمامًا مع آخر مريضين. لقد وصفت لهما مسكنات ومضادات اكتئاب قبل أن ينتهيا من وصف أعراضهما. لقد انتهيت من الكشف في أقل من خمس دقائق. هذه سرعةٌ قياسية، حتى بالنسبة لي. فأنا لا أثرثر مع المرضى، هذه قاعدتي الخاصة. لم أستطع التفكير في شيء غير العودة إلى «صوفي». هناك علقت صورة في رأسي؛ ابنتي ترتدي طوق نجاة وتطفو على الماء في غرفتها بينما تصرخ بهلع. هذا ليس منطقيًّا. لم يصل الماء إلى أول درجة في السلم حتى، لكن لا أستطيع إبعاد صورة وجهها المرعوب عن رأسي. حاولت التركيز على مرضاي، لكن كل ما استطعت التفكير فيه هو «صوفي».

في طريقي إلى البيت، ظل المطر يهطل بغزارة على النافذة الأمامية. عجزت المسَّاحات عن إزالته، فالقطرات سميكة وثقيلة كأنها مكونة من الدهن وليس الماء، وتترك آثارًا على الزجاج وهي تتحرك. أما في الخارج، فالمطر يتقافز على الرصيف بقوةٍ واندفاع كأنه خارجٌ من مضخة. لقد غرقت تمامًا عندما ركضت من باب المستشفى إلى السيارة، وغرقت مجددًا عندما ركضت من السيارة إلى باب البيت. رتبت الأمر مع «سوزان». ستغطي مكاني لكيلا أضطر للعودة بعد استراحة الغداء. ذكرت نفسي بأن أشتري لها زجاجة نبيذ مع بطاقة شكر عليها صور حيوانات. سأكتب عليه اسمي واسم «صوفي»، سأوقع اسم «صوفي» بطريقة طفولية، «سوزان» تحب هذه التفاهات.

ركنت سيارتي أمام البيت. وجدت نهرًا يجري في حديقتي، ويجرف الشتلات الصغيرة من مكانها، وينشرها على العشب. أما الطريق فهو نهرٌ أكبر. لا أرى شيئًا من المطر، وكأنني في غرفة جدرانها تتحرك باستمرار. وضعت يديَّ فوق رأسي كالمظلة لأحجب المطر عن عينيَّ، لكنها كانت مظلة فاشلة. ركضت من السيارة إلى البيت دون أن أهتم حتى بإغلاق أبواب السيارة بالقفل.

يمكنني أن أشم الماء من قبل أن أدخل. إنه ليس كماء الحنفية أو ماء النهر، بل به رائحة عفونة، مثل البرك الراكدة أو الغسيل المبلول عندما يُترك في الغسالة. لونه مثل الشاي الخفيف عندما ينسكب على السجادة وعلى أرضية المطبخ ويلطخ كل ما يلمسه. وقفت لوهلة على الباب أحتمي بسقف المدخل وأراقب الفوضى؛ طاولة القهوة تطفو على الماء، والستائر مبللة، والكهرباء

مقطوعة. على الأقل لن نقلق من حدوث ماس كهربائي. وقفت مترددًا على عتبة بيتي؛ الوضع مرعب. أستطيع أن أستدير وأهرب بسهولة من كل شيء، ثم أعود لاحقًا عندما تتعامل شركة التأمين مع هذه الفوضى. نفسي القديمة كانت ستفعل ذلك على الأرجح. فأنا لم أكن جيدًا أبدًا في التعامل مع الأزمات. أما الآن، فلديَّ «صوفي»، إنها مثل المرساة التي تثبتني. لا أستطيع إبعادها عن تفكيري، لا أستطيع تركها.

صعدت السلم درجتين درجتين وأنا مبلل تمامًا. حذائي لا يناسب السير في الماء أبدًا. بنطالي مبتل إلى ركبتيَّ، وأصبحت أسبح وسط المنزل. وجدت «كريستين» في الغرفة الإضافية تقرأ رواية. وقفت على الأرض أقطر ماءً وما علق بي من رواسب على السجادة. انتظرتها لتلاحظني. ما زلت لا أعرف كيف أقترب منها، أحيانًا أظهر فجأة بجانبها فتفزع أو تُسقِط ما بيدها. لحسن الحظ لم تُسقِط «صوفي» شيئًا. عندما رفعت نظرها أخيرًا، ابتسمت وأشارت لي بعلامة «بخير"، لكنها تقصد بها سؤالي إن كنت أنا «بخير". أشارت بيدها ورأسها أن "صوفي" بخير وتنام بعمق في سريرها في الغرفة المجاورة. لا يوجد ما نكتب به هنا. نسيت «كريستين» المفكرة على طاولة المطبخ بسبب فزعها. أصبحت الطاولة مثل جزيرة بنية محاطة بالماء القذر الآن، لذلك استخدمنا التليفونات لكتابة ما نريد قوله ومررناها لبعضنا من فوق السرير الموجود بيننا.

كتبت لها:

"آسف. لم أظن أن هذا سيحدث"

ردت «كريستين»:

"ليست غلطتك، أنت لست إلهًا»

وأضافت وجهًا مبتسمًا يغمز.

مجرد التفكير في الابتسام يجعلها تبتسم. إنها إنسانة مرحة بطبعها. إنها ليست جميلة، لكن عندما تبتسم، تكون مقبولة جدًّا. لاحقًا عندما ننتهي من هذه الفوضى، يجب أن أجد وسيلة لأخبرها بذلك دون أن أبدو غريبًا. فـ»كريستين» لا تجيد التعامل مع المجاملات. ما زالت تحمر خجلًا كلما أخبرتها كم هي بارعة مع «صوفي» أو كم أقدر مساعدتها العظيمة لي.

عدت أكتب لها:

"كيف حال صوفي؟"

“في أفضل حال. إنها سعيدة جدًّا وتعشق الماء لدرجة غريبة. عليك أن تأخذها للسباحة أحيانًا”

هذا ليس ما أريد سماعه، أنا أنوي إبقاءها على الأرض، أفضل أن تكون مرعوبة من الماء. بالتأكيد لا أريدها أن تنجذب للماء كما كانت أمها، لكن «صوفي» لا تخاف الماء. بل تكون في أسعد لحظاتها وهي تستحم. يكون نصف جسمها في الماء وتتحرك بسعادة مثل سمكة سلمون صغيرة. جسدها يحتفظ بالماء مثلما يحتفظ السحاب بالمطر. حتى بعد الاستحمام بساعات، يظل شعرها مبتلًّا وباردًا وكأنه سيظل رطبًا إلى الأبد. يمكنها أن تشاهد حنفية مفتوحة بالشغف نفسه الذي يشاهد به الأطفال أفلام الكرتون. ها هي حورية صغيرة طافية على هذا الفيضان بسعادة. قلت لنفسي هذا لا يعني شيئًا، كل الأطفال يحبون الماء. يتعلق الأمر ببقائهم في الرحم فترة طويلة.

كتبت لـ»كريستين»:

“شكرًا على كل شيء اليوم. أقدر لكِ هذا حقًّا. يمكنكِ العودة إلى البيت إن أحببتِ”

“ماذا ستفعل في الطابق السفلي؟”

“هل أجرب استخدام دلوٍ وممسحة؟”

أرسلت وجهًا يضحك ثم كتبت:

“حقًا، ماذا ستفعل؟”

“سأطلب سبَّاكًا»

“حسنًا، ما دمت تظن أنه بإمكانك تولي الأمر بدوني، فسأعود للبيت قبل حلول الظلام»

“اذهبي، سأكون بخير”

دارت حول السرير وربتت على يدي ثلاث مرات. لو كانت تتكلم لقالت: «أنا أثق بك»، أو «يمكنك فعلها يا صديقي». لكنها فقط تستطيع تمرير هذه المشاعر بالتربيت بيدها. هذا ينفع مثل الكلام بالضبط. كلما تلمس يدي، أشعر أنني أقوى، أنني رجل، وأب. ربما عليَّ أن أطلب من «كريستين» البقاء. تكون حياتي أسهل وهي موجودة. “السلة ذات الأذنين يحملها اثنان”، أظنه مثلًا شعبيًّا أو أدبيًّا، لكن لا يمكن أن أطلب منها البقاء. قد تسيء الفهم. قد تخاف وتتركنا للأبد.

وجدت مصباحًا في الحمام وأنرت لها السلم لتنزل. رفعت حقيبتها فوق رأسها وهي تخوض الماء، فبدت مثل مستكشفي الغابات. هذا ليس ضروريًّا؛ فالماء يغطي القدم فقط. لكن منظرها جعلني أبتسم. إنها ليست فتاة هشة، ولا تقيد نفسها. حتى ما يحدث هنا يُعد مغامرة بالنسبة لها، لتكسر ملل الصمت الذي تعيش فيه. أنا أحسد اندماجها في كل شيء، أحسد مرحها. لم أكن أبدًا مثلها.

بعدما غادرت «كريستين»، أطعمت «صوفي» وغيرت ملابسها. إنها سعيدة بشكلٍ زائد هذه الليلة. التصقت بعنقي ونامت. أتمنى ألا يكون الماء هو سبب راحتها وهدوئها، لم تكن بهذا الاسترخاء منذ أسابيع. ليس منذ أن تعلمت الدحرجة. جلسنا على طرف سريري براحة واسترخاء لدقائق بينما بدأ الجو يظلم، لم أتذكر السباك إلا عندما دقت الساعة السادسة. تصفحت دليل التليفونات واخترت واحدًا من نهاية القائمة يبدأ بحرف الياء. اسمه السيد «يونج»، لقد تصرفت بذكاء. تجنبت الحروف الأولى لأنه سيكون هناك طلبٌ زائد على السباكين الليلة. سيتصل الناس بأول اسم يرونه، لكن ليس أنا، فأنا أذكى من أن أفعل ذلك.

اتضح أن السيد «يونج» أكبر سنًا مما توقعت. وصل بشاحنة بيضاء، يرتدي حذاء صيادين ومعه شاب اسمه «ميكي» يتدرب على يديه. قال سيد «يونج»:

- لقد اختار أسوأ أسبوع للتدريب، لكن على الأقل سيقبض مقابل تعبه.

هز «ميكي» كتفيه. أظنه سمع هذه الجملة كثيرًا وسيظل يسمعها لنهاية الأسبوع.

قلت:

- ابدأ العمل، لكن سأقدر لك لو عملت بصمت قدر المستطاع، فلديَّ طفلة نائمة في الطابق العلوي. إنها ليست على طبيعتها اليوم بسبب هذا الفيضان. لقد نامت بصعوبة.

رد سيد «يونج»:

- فهمت، لديَّ ثلاثة. آخرهم كان يستيقظ كثيرًا طوال الليل حتى دخل الحضانة. لن تسمع لنا صوتًا. ولا أدنى صوت.

هذا ليس صحيحًا أبدًا؛ فالاثنان صنعا ضجةً كبيرة بينما يتحركان في الطابق السفلي ويضخان الماء خارجًا عبر نافذة المطبخ ويستخدمان مفاتيح الربط لفك وتركيب الأنابيب. لا أمانع، فليهدما الجدران ويشغلا جهاز الإنذار ويصرخان ويزمجران مثل الوحوش، المهم ألا يتكلمان أمام «صوفي». إنها نائمة في سريرها بالأعلى بعيدًا عن هذه الضجة. السباكان في الأسفل يتخلصان من الفوضى، كل شيء تحت السيطرة، الوضع أفضل بكثير مما كان

عليه منذ بضع ساعات. استلقيت على سريري لنصف ساعة. ما الذي يمكن فعله في البيت بدون كهرباء؟ فكرت في القراءة. أخذت رواية من الكومة التي على منضدة السرير وشعرت بالنعاس. فتحت عينيَّ لأجد سيد «يونج» واقفًا على الباب. قبعته في يد، ومفتاح الربط في اليد الأخرى. وكأنه صورة كاريكاتورية لسباك. قال:

- كل الأمور تمام يا سيد «موراي»، الوضع فوضوي قليلًا لكن الماء زال. وضعنا أكياس رمل حول الأبواب لكيلا يتسرب الماء مجددًا. لو اتصلت بكهربائي فسيعيد إليك الكهرباء.

أجبرت نفسي على الجلوس وفركت عينيَّ لأبعد النعاس. أتساءل كم ظل واقفًا على باب غرفتي وأنا نائم. قلت له:

- شكرًا. كم أجرك؟

- سأرسل الفاتورة لك آخر الأسبوع يا بني. لا تقلق. أنا ذاهبٌ لعملٍ آخر الآن. نصف بلفاست غارقٌ بالفعل.

- أشكرك مجددًا سيد "يونج".

هممت بالنهوض لأوصل السباكين إلى الباب. هذا ما تفعله مع العمال، لكن الرجل قال بإصرار:

- نادني "تريفور" في المرة القادمة، فقط «تريفور». لا تقلق بشأن توصيلي للباب. لقد جمعت معداتي، و«ميكي» في الشاحنة بالفعل. اذهب واطمئن على صغيرتك. لقد استيقظت منذ وقتٍ طويل، وهي تثرثر لنفسها في سريرها. أتمنى ألا تغضب مني. لقد كانت مستيقظة، وعندما سمعتها تضحك، لم أستطع منع نفسي من إلقاء نظرة عليها. إنها شقية. يبدو أنها ستكون ثرثارة عندما تبدأ تتكلم بشكلٍ صحيح. ستتعبك كثيرًا.

نهضت واقفًا مرةً واحدة باندفاعٍ وقلت:

- إنها لم تبدأ الكلام بعد. ما زال الوقت مبكرًا على هذا.

- لكن يبدو أنها بدأت تحاول بالفعل، لن تستغرق وقتًا طويلًا، ثق فيَّ. لديَّ خبرة من أولادي الثلاثة. أفضل شعور في العالم هو عندما يناديك ابنك لأول مرة «بابا»، لا شيء يضاهي هذا الشعور.

غادر سيد «يونج» وجلست وحدي طويلًا مجمدًا على السرير. سمعت «صوفي» بدأت تبكي في الغرفة الأخرى، لا أريد الذهاب إليها؛ أنا مشمئز من نفسي لقول ذلك، لكنني لأول مرة منذ أسابيع أشعر بالخوف من ابنتي. حاولت التحرك، لكن عضلاتي ترفض. حاولت أن أطمئن نفسي. كلام السباك

لا معنى له، لا يعرف السباك أن «صوفي» لا يجب السماح لها بالكلام. معظم الآباء يريدون أن يبدأ أولادهم بالكلام والمشي، ويتجاهلون مراحل التطور الطبيعية. ربما قال ذلك من باب اللطف وحسب، ربما هذا أول ما خطر بباله. الاحتمال البديل مرعب. ماذا لو أن السباك محق وستبدأ بالكلام قريبًا؟ عندها سأضطر لفعل ما فكرت به. يجب أن أتصرف بسرعة.

عندما ذهبت إلى غرفة «صوفي» لأحملها، كنت أرتدي سماعات أذن ضخمة عازلة للصوت كانت لديَّ وأنا طالب. حملتها وغيرت حفاضتها على ضوء الشمعة، ألقت الشمعة ظلالًا ملتهبة على بطنها، فبدت متوحشة تحت الوهج الساخن، وكأنها طفلة من الجحيم. إنها سعيدة جدًّا الليلة. أخذت تمسح على رأسي بلعب لتستكشف السماعات الحمراء الضخمة التي أضعها على أذنيَّ. ابتسمت وضحكت. ربما تصنع أصواتًا أخرى لكنني لا أسمعها لأنني أضع سماعات. حملتها إلى غرفتي ووضعتها بحذرٍ على السرير، ضمت ذراعيها وساقيها وأخذت تتدحرج على ظهرها وبطنها وتستمتع بالمرتبة الطرية. إنها ناصعة البياض وسط الظلام. وزنها أقل من كيس بطاطس. من الصعب التصديق أنها يمكنها تدمير أي شيء. مع ذلك الخوف يتملكني الآن وكأنه شيء عالق في أسناني ولا أستطيع إخراجه.

أمسكت فك «صوفي» بيدي اليسرى برفقٍ شديد. إنه بحجم ثمرة «جريب فروت». أستطيع قرصه بسهولة بين سبابتي وإبهامي، ثم حركت إبهامي الأيمن بخفة على عنقها، ابتسمت لي. إنها لعبة بالنسبة لها، مثلها مثل الدغدغة أو النفخ على بطنها. إنها تثق فيَّ. ربما تعرف في داخلها أنني والدها. حركت إصبعي على عنقها ببطءٍ شديد وكأنني أمرر خيط داخل إبرة، هنا حيث يجب أن أضع النصل. هكذا سأنقذ «صوفي»، وسأنقذ نفسي. إنها مهمتي أنا، وليس غيري.. أنا والدها. أو كما أحب أن يخبرني والدي الغائب منذ زمن، أنا المسؤول عن أخطائي.

سألت نفسي: «هل يمكنني إيذاءها؟ حتى لو كان لمصلحتها؟»

هناك آباء يؤذون أطفالهم كل يوم، أعرف ذلك لأنني طبيب. يوخزون أولادهم بالإبر ويعطونهم أدوية خاطئة، يضربونهم على ظهورهم بعنف حتى يخرج كل البلغم بقوة تخنقهم، يربطونهم ويعلقونهم ويوخزونهم ويعطونهم أدوية خاطئة بحجة الشفاء من المرض. يقولون: "ثق فينا. هذا لمصلحتك»، ثم يبكون في الحمامات أو في ممرات المستشفى حيث لا يراهم أولادهم. يجبرون أنفسهم على القسوة. إنهم مضطرون لذلك.

هؤلاء الناس ليسوا مثلي. إنهم شجعان وليسوا أنانيين؛ يعاني أطفالهم من السرطان أو السكري أو داء الرئة، هذا ليس ذنبهم. إنهم يستحقون الدعم من

أمثالهم، وأيضًا من آباء الأطفال الأصحاء. أما أنا فلا أستحق الدعم. طفلتي ليست ضحية، لأنها هي المشكلة. ما تعاني منه «صوفي» يشبه المرض الوراثي. أنا السبب في هذا، بسبب ضعفي. يا لنا من ثنائي! يا لها من فوضى!

لا أظنني أستطيع إيذاءها. أو من منظورٍ آخر، لا أظنني أستطيع مساعدتها. ليس بالمشارط، ليس بالدم. حتى مع الغرباء أواجه صعوبة في شق جلدهم، أما مع «صوفي» فيداي تضطربان تمامًا. لهذا اتصلت بمستشفى «رويال» وطلبت دكتور «كانوري». شعرت بغضبٍ شديد حين رفضت السكرتيرة أن تصلني به. قالت:

- ليس بدون موعد، حتى لو كنت طبيبًا.

لهذا وضعت «صوفي» في السيارة وقدت وسط الفيضانات حتى وصلت «بورتاكابين»، حيث يلتقي آباء "الأطفال المنحوسين" وينتظرون دكتور «كانوري»، وبقيت في جراج السيارات. لا أعرف لماذا ظللت أبكي على المقود، وأملأ زجاج السيارة ببخار أنفاسي. فجأة وجدتني السيدة «بيني» بعد ساعتين من الانتظار.

اعترفت لها:

- أحتاج مَن يساعدني. لا أستطيع فعلها بنفسي.

تفهمت السيدة «بيني» ما أمرُّ به، لقد مرت به بنفسها منذ وقتٍ قريب. في النهاية أي أب يحتاج إلى مساعدة مع "طفله المنحوس". بالتأكيد تخيلتني جالسًا على طاولة المطبخ في بيتها أشرب الشاي، وأبكي إن احتجت للبكاء، ثم أعود إلى بيتي ومعي طاجن لحم بالبطاطس لأتعشى به غدًا. هكذا تظن أنها ستساعدني، لأن هكذا ساعدها شخصٌ آخر. لكنني قصدت شيئًا مختلفًا تمامًا حين قلت إنه لا يمكنني الاستمرار وحدي. تخيلت نفسي أقف جانبًا بينما يقطع دكتور «كانوري» لسان ابنتي. هذه هي المساعدة التي أريدها، لا أريد أن أؤذيها بنفسي. قد أتحمل الأمر أفضل إن كنت مجرد مشاهد، مثلما فعل «يهوذا».

سألتني السيدة «بيني»:

- هل هذه هي طفلتك؟

أطلت برأسها ونظرت عبر الزجاج المغطى بالبخار لترى «صوفي» التي وضعتها في كرسي الأطفال في السيارة. تحدثنا عبر فتحة صغيرة جدًّا في النافذة، حتى هذه تعدُّ مخاطرة مع وجود «صوفي». خرجت من السيارة وأغلقت الباب برفق، إنها تمطر. لكن السيدة «بيني» معها مظلة. خطوت تحت مظلتها ولاحظت أن «إيلا» تختبئ خلف والدتها.

قلت لها:

- نعم، هذه «صوفي». لكنها نائمة.

ردت:

- إنها جميلة.

لا أعرف كيف عرفت ذلك من خلال الزجاج الضبابي. على الأرجح تقولها كمجاملة لتشعرني بتحسن.

- أين دكتور "كانوري"؟ لقد أتيت لرؤيته.

- إنه ليس هنا الليلة. بالكاد يأتي. بيني وبينك، أظنه يفضل الأطفال في جنوب بلفاست. فآباؤهم قادرون على تحمل تكلفة الاستشارات الخاصة.

- أوه.

استدرت إلى السيارة وكأنني على وشك المغادرة.

أمسكت السيدة «بيني» بذراعي وأعادتني تحت المظلة. تساءلت إن كانت ترغب في تقبيلي. لو كان هذا فيلمًا وهناك سيدة تقف في المطر وتعرض على رجلٍ المساعدة، فهي بالتأكيد تنوي تقبيله. لكنها امرأة متزوجة، وهذا ليس فيلمًا، و»إيلا» تقف خلف والدتها ترتدي معطف مطر وتبتسم.

قالت السيدة «بيني»:

- جماعتنا موجودة للمساعدة يا "جوناثان". أعلم أنه من الصعب أن تكون والدًا لـ»طفل منحوس"، لكننا هنا من أجلك. هذا إن أحببت. يجب أن تريد مساعدتنا لكي نقدمها لك.

قلت لها:

- أنا أحتاج للمساعدة فعلًا.

مالت السيدة «بيني» نحوي ورفعت ذراعيها وكأنها ستعانقني، فتراجعت وقلت بحزم:

- لا يمكنكِ مساعدتي. لا أحد منكم يستطيع. أطفالكم ليسوا منحوسين. إنهم فقط أصعب من المعتاد، أو مختلفون قليلًا، أو موهوبون حقًّا.

نظرت إلى «صوفي» بينما أقول الكلمة الأخيرة، ثم أضفت:

- أما "صوفي" ففعلًا منحوسة. إنها ستؤذي الناس على الأرجح، ستؤذيهم بشدة. لن يمكنها منع نفسها. لا يمكنكِ مساعدتي معها. ستكون مخاطرة

كبيرة.

قالت السيدة «بيني»:

- أستطيع أن آخذك إلى تلك الغرفة الآن، وأطلب من كل والد أن يحكي لك عن فظاعة أطفالهم، ولن أبذل مجهودًا في إقناعهم. يكفي نوبات الغضب والهياج. فليس من السهل أن تكون «طفلًا منحوسًا». تلك الفتاة التي تتحول إلى قارب قامت بـ... لا يحب والداها ذكر الأمر...، لكن عندما كانت في الخامسة، غضبت بشدة لأنها ليست طبيعية وحاولت إغراق أخيها الصغير في حمام السباحة الذي ينفخونه لها في البيت. والولد الذي يرى المستقبل على الأسطح السائلة، كان شريرًا جدًّا. كان يذهب إلى الأشخاص العجائز ويخبرهم أنهم سيموتون قريبًا. يقول إنه رأى ذلك على سطح بركة أو ما شابه. طبعًا كل هذا من اختراعه. كان ذلك الوغد الصغير ينتقم من الناس...

قاطعتُ كلامها قائلًا:

- نعم، أفهمكِ. لكن هؤلاء الأطفال ليسوا غريبين أو أشرارًا. إنهم أطفال طيبون وجدوا أنفسهم في مواقف غريبة، لذلك يحاولون أن يفهموا طبيعتهم. أما «صوفي» فقد تكون خطيرة فعلًا.

قالت بصوتٍ عالٍ وحاد:

- أوه. هل تظن أنه لا يوجد «أطفال منحوسون» خطرون؟ هل تظن أن هذا النادي للآباء الذين لهم أولاد غرباء قليلًا فقط؟ أتمنى لو كان الحال هكذا. المرة التي حضرتها كانت في ليلةٍ هادئة فقط. لقد فاتك والدا المراهق الذي يُشعل الأشياء كلما شعر بإثارة، لسوء حظك كانا مشغولين بابنهما الآخر. إنه في قسم الحروق في المستشفى حاليًا. وكذلك ابنة جيرانهم ومدرسة الجيولوجيا الخاصة بالولد. وهناك «لويس" مصاصة الدماء النهارية. لا يمكن تركها وحدها في الليل، لذلك لم يحضر والداها الاجتماع. أما «سيمون» فلم نعد نتحدث عنه أصلًا، ليس منذ أن تم حبسه لأنه عطس حممًا حارقًا على باص المدرسة. كل ركابه من الأطفال الصغار تشوهت وجوههم الجميلة للأبد. لا يمكن فعل الكثير لمعالجة الحروق الناتجة عن الحمض، على الرغم من التقدم الهائل في الجراحات التجميلية. لا يا «جوناثان»، يبدو فعلًا أن وضعنا سهلٌ جدًّا وأنك الوحيد الذي تعاني.

- لم أكن أعرف! لقد ظننت أن «صوفي» هي الوحيدة التي يمكنها إيذاء الناس.

قالت السيدة «بيني» بعدما هدأ صوتها وبدت ضعيفة للغاية:

- كل الأطفال يؤذون الناس يا "جوناثان"، بالأخص آبائهم. لا يمكنك حماية "صوفي" للأبد. لا أحد منا يستطيع ذلك مع أولاده.

- أعلم ذلك لكن عليَّ المحاولة.

- اسمع، تعلم أين تجدنا إن أردت مساعدتنا، لا يمكننا إرغامك. أنت مرحبٌ بك دائمًا هنا.

بدت متعبة جدًّا وكأنها خاضت هذه المحادثة كثيرًا في هذا الجراج. أتساءل إن كان هناك آباء آخرون يخافون من الخروج مع الناس، لأن أطفالهم خطرون مثل «صوفي». وقد يكون حالهم أسوأ من حالي.

استدارت بعيدًا عني وأخذت معها المظلة، بينما تخطو نحو الظلام. هطل المطر على رأسي وأغرق ملابسي وتسرب من الياقة. لم أشعر بمثل هذه الوحدة طوال حياتي الوحيدة أصلًا. أردت أن أقول شيئًا لها، لكن لم أستطع إلا أن أقول «مع السلامة» بصوتٍ مخنوق. لم تسمعني بسبب المطر، وربما سمعتني لكنها لم ترد. ما أردت قوله هو «ادعي لنا»، لكن لا أعرف إن كنت أؤمن حقًا بالصلاة والدعاء حين لا يكون هناك أي حل.

لم تتبع «إيلا» والدتها مباشرةً، بل وقفت قليلًا على الأرض الغارقة تبتسم لي. وجهها يبدو منيرًا بالبدر تحت غطاء الرأس الخاص بمعطفها. إنها مبهرة، من المستحيل ألا أحدق فيها. مدت يدها، فتجمع المطر في كفها. مددت لها يدي وصافحتها. يدها أدفأ كثيرًا من يدي، وأصغر.

قالت «إيلا»:

- ستتحسن الأمور.

ثم غادرت فورًا.

أصبحت يدي التي لمستها دافئة جدًّا. شعرت بالحياة تتدفق عبر ذراعي، ثم صدري، ثم فمي ورئتي. وكأنني شربت ويسكي ساخنًا. شعرت بالدفء في قلبي وعقلي. قلت لنفسي وكررتها: "ستتحسن الأمور"، تساءلت إن كان الدعاء يُستجاب هكذا. عدت لبيتي ووضعت "صوفي" في سريرها، ثم استلقيت في سريري. في الصباح، ذهبت إلى عملي وجلست على مكتبي وأنا أعلم أنه عليَّ التصرف بخصوص «صوفي» قريبًا.

يجب أن أتخذ قرارًا. شعرت بمزيجٍ من الراحة والاضطراب عندما عرفت أن «صوفي» ليست الوحيدة، من المريح أن أعرف بوجود أطفال آخرين قادرين على الأذى، لكنه نوع بشع من الراحة، فهو يجعل حالة ابنتي حقيقية وليست خيالًا أو هلاوس. هناك آباء آخرون في بلفاست يتعاملون مع أطفالهم «غير

المحظوظين» بحزم وصرامة وحيادية في سبيل حماية الآخرين. يجب أن أسيطر على وضعي. يجب أن أكون باردًا وجامدًا وحياديًّا مثلهم. لا يمكنني التأجيل أكثر.

أول مرضاي لهذا اليوم هو «ساموِيل أجنيو»، لم أتوقع هذا ولم أستعد للأسئلة التي جاء ليسألها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17
اعتراف

طرق الباب.

قال «جوناثان»:

- ادخل.

لم ينفتح الباب بل جاءت طرقة أخرى. «طق.. طق.. طق».

كرر «جوناثان» بصوتٍ أعلى:

- ادخل.

توقف عن الكتابة ووضع قلمه على المفكرة. ظل الباب مغلقًا وجاءت طرقة ثالثة، ثم رابعة وخامسة بعدها مباشرةً.

إنه على الأرجح مريض عجوز مصاب بضعف السمع وسماعته لا تعمل جيدًا. إنهم أسوأ من يطرق الباب. الواحد منهم يقف على الباب ويظل يطرق، ثم يتذمر لأنه لم يسمع كلمة «ادخل». ابتسم «جوناثان» على دعابته. تذكر أنه في كل مرة يحدث فيها هذا يفكر في إخبار موظفات الاستقبال أن يكتبن لافتة على الباب تقول «تفضل بالدخول»، أو «الطبيب في الداخل»، أو «توقف عن طرق بابي وافتحه بنفسك!». سيطلب أن تكون اللافتة بحروفٍ كبيرة لكيلا يتحجج أحد بضعف البصر. إنه واثقٌ من أن اللافتة لن تصنع فرقًا رغم ذلك. سيظل كبار السن يطرقون الباب بلا كلل، لكنها على الأقل ستشغل موظفات الاستقبال عنه قليلًا، فهن دائمًا يتربصن به لرؤية صور «صوفي». في البداية كان مستمتعًا بالاهتمام، لكنهن يسألنه الكثير من الأسئلة التي يعجز عن الإجابة عنها.

“أليست صغيرة الحجم على سنها؟”

“ألم ينتظم نومها بعد؟”

“عليك أن تعطيها مكملات غذائية بما أنها لا ترضع لبنًا طبيعيًّا»

يحاول أن يتجنب موظفات الاستقبال بقدر المستطاع، لكنهن كثر. وكأنك تحاول تجنب الهواء. يطالبون برؤية «صوفي» باستمرار وكأنه حقٌ لهن.

“لم لا تحضرها معك يا دكتور موراي؟”

“يا إلهي، ستتزوج البنت قبل أن نراها”

“هل تخشى أن نأكلها مثلًا؟”

أريد أن أقول لهن: «نعم، أخشى أن تأكلن ابنتي حية أيتها الطفيليات الغبية. هذا لو لم تقضِ «صوفي» عليكن أولًا».

لا يعرفن خطورة ما يطلبنه، لا يمكنهن استيعاب العواقب.

طرق الباب بقوةٍ مجددًا لدرجة أن معطفه المعلق وقع. لم يعد يمكنه تجاهل الطرق، ذهب إلى الباب وأمسك المقبض، بينما يفكر بأن حجة اللافتة ستعطيه شيئًا يقوله لموظفات الاستقبال أخيرًا. وبذلك سيناقشن اليوم الألوان وأسلوب الخط ونوع الورق وينسين «صوفي» تمامًا. ارتاح تمامًا لهذا الخاطر. سيصر على أن تكون اللافتة مغلفة بطبقة رقيقة من البلاستيك. تحب موظفات الاستقبال الأوراق المغلفة بالبلاستيك الشفاف.

فتح «جوناثان» بابه مستعدًا لاستقبال رجل عجوز. لدى المسنون رائحة خاصة، وطريقة مميزة في دخول الأماكن الهادئة. استعد لاستخدام النبرة التي يستعملها مع كبار السن. إنها أعلى من نبرته العادية، وتكون شديدة كالمطرقة. فتح الباب وهو يتراجع ليفسح الطريق ويشير بيده ويقول: - تفضل بالدخول.

مجددًا شعر أنه شخصية في مسلسل تاريخي من إنتاج الـ«بي بي سي»، على الأرجح قس عجوز من روايات «أوستن» أو «ديكنز». لم يتحرك المريض، لا بد أنه أكبر سنًّا مما تخيل «جوناثان». ربما هو أصم أو أعمى أو مخبول. إذا اجتمعت عدة أمراض في جسدٍ واحد، سيصبح شبح إنسان. المفاجأة هي أن الرجل الواقف في الممر سنه أصغر كثيرًا مما توقع «جوناثان». إنه يعرف هذا الرجل. اسمه «ويليام» أو «ساموبل». اسمه جاف، من الأسماء المعتادة في المنطقة الشرقية. «ساموبل»، «سامي أجنيو». شعر «جوناثان» بالتوتر عندما رآه، لا يشبه الشعور بالغثيان، بل الخوف.

تخلى عن النبرة الخاصة بكبار السن وقال:

- إنه أنت. من الأفضل أن تتفضل بالدخول.

كان «سامي أجنيو» واقفًا في الممر رافعًا يده استعدادًا لضرب الباب مجددًا، أعاد يده لجيبه بسرعة. مضى أقل من شهر منذ آخر مرة رآه «جوناثان»، لكنه بدا مختلفًا تمامًا. لقد كبر «سامي» عشر سنوات خلال أسابيع. هناك تجاعيد حول عينيه وفمه، تجاعيد حادة عميقة مثل ثنيات الأكياس الورقية. “البلوفر” الذي يرتديه مكرمش، وحذاؤه قذر. ذقنه لم تُحلق منذ ثلاثة أيام. شعيراتها مزيج من الأبيض والرمادي لتتماشى مع شعره الأشيب المنكوش.

ظهره محني ورقبته غارقة بين كتفيه، يبدو مثل رجلٍ منكمش على نفسه لأنه يشعر بالبرد. دخل مكتب «جوناثان» وانهار على أقرب كرسي.

قال:

- تبدو مثلي يا دكتور.

هذه ليست مجاملة أبدًا. فـ»سامي» حالته مروعة. رفع «جوناثان» يده إلى ياقته تلقائيًّا وشد ربطة عنقه ثم مرر يده في شعره. يعرف أنه ليس في أفضل حالاته اليوم، فهو لم ينم طوال الأسبوع، لكن لم يظن أن المرضى سيلاحظون. نادرًا ما يسألون عن حاله، وعندما يفعلون يكون من باب التهذيب كمقدمة للكلام قبل أن يبدؤوا بوصف حالتهم. يقولون: «كيف حالك يا دكتور "موراي"؟»، فيقول: «لا بأس. ما سبب مجيئك اليوم؟»؛ عندها يبدؤون بالشكوى من الألم والقرحة والتهاب القدمين واحتقان الحلق. إنهم لا يهتمون بصحة الطبيب، وعلى الأرجح لن يلاحظوا لو سقطت ذراعاه من مكانهما. كل ما يهمهم هو أن يكتب روشتة يصف فيها مضادات حيوية وكورتيزون. نادرًا ما ينظر المرضى في عينيه مباشرةً، لكن ها هو «سامي» ينظر إليه بعينيه الواسعتين، ويعلق على حالته البائسة.

قال «جوناثان»:

- أنا بخير يا سيد "أجنيو". أرى أنك لست بخير تمامًا؟

- لا يا دكتور، أنا في حالةٍ سيئة.

- مثل المرة السابقة؟

- بل أسوأ الآن. أسوأ بكثير، طوال الوقت. حالتي بشعة حين أستيقظ صباحًا وحين أنام ليلًا، وضعي يزداد سوءًا.

- هل تشعر بالتوتر؟

- التوتر، القلق، الخوف. قل ما تشاء يا دكتور "موراي"، نصف وقتي أشعر أنه لا فائدة من حياتي أصلًا.

- هل تقول إنك مكتئب يا "سامي"؟

- لا أجلس في أنحاء البيت أبكي إن كان هذا ما تقصده.

- هناك أعراض أخرى. الأشخاص المصابون باكتئاب ليس شرطًا أن يبكوا أبدًا. هل تشعر أنك متعب أكثر من العادة؟ متوتر؟ مصاب بالأرق أو انسداد الشهية؟ فقدت رغبتك؟

- رغبتي؟

- أعني رغبتك الجنسية يا "سامي". ألم تعد مهتمًا بممارسة الحب كما كنت؟

- نعم يا دكتور، لكن هذا بسبب زيادة وزن زوجتي. وإجابتي على أسئلتك الأخرى الخاصة بالأكل والنوم هي نعم أيضًا. لم أعد على طبيعتي. أنا مضطربٌ تمامًا.

- هل تراودك أفكار انتحارية؟

- يا إلهي، بالطبع لا يا دكتور. اسأل غيري عن هذا.

- آسف، لم أقصد الإهانة. أنا مضطرٌ للسؤال، فهذا يساعدني على فهم مدى الاكتئاب الذي تعانيه.

- إنه ليس بهذا السوء. لم أفكر أبدًا في الانتحار.

- هل تشعر أحيانًا بإحباطٍ شديد يا "سامي"؟ أو تتساءل كيف ستتحمل باقي يومك؟

- نعم، أحيانًا أشعر باليأس وكأن الجدران تضيق عليَّ.

- هل هناك ما يثير ذلك الشعور بداخلك بصفة خاصة؟

- عادةً عندما أفكر في ابني الأكبر، والورطة التي أدخل نفسه فيها، والأشياء التي تورطت أنا فيها في صغري. أعلم أنها غلطتي أن ابني «مايك» أصبح هكذا. هذا همٌ ثقيل. عندما أسمح لنفسي بالتفكير فيه طويلًا، أشعر أنه من الأفضل لو لم أكن موجودًا.

- أفضل لمن يا «سامي»؟

- لزوجتي وأولادي ولي ولنصف المنطقة الشرقية. معظم أهالي شرق بلفاست سيكونون في حالٍ أفضل بدون "سامي أجنيو".

شعر «جوناثان» أن هذه الجملة تصلح أن تكون حوارًا في فيلم. تخيل «توم هانكس» أو غيره من الممثلين ذوي الملامح الحزينة وهم ينظرون إلى الكاميرا، ويتساءلون إن كان العالم سيصبح أفضل بدونهم أم لا. هناك فيلم يُعرض دائمًا في عيد الميلاد، إنه أبيض وأسود ويدور بالكامل حول هذه الفكرة. حاول «جوناثان» أن يتذكر اسمه لكن لم يستطع. تساءل للمرة المائة لماذا يستخدم هؤلاء المرضى جملًا رخيصة ومبتذلة تعلموها من التليفزيون. وكأنهم فقدوا لغتهم الخاصة، أو ملوا منها. لن يستطيع احتمال مجموعة أخرى من المرضى الذين يتحدثون مثل الأفلام الأمريكية أو المسلسلات البريطانية.

قال «جوناثان»:

- بالطبع عائلتك ستفتقدك. سيتغير عالمهم بدونك.

ندم فورًا بمجرد أن قال هذا. فحالته بالسوء نفسه لحالة «سامي». إنه مثل الكلام المكتوب على كروت المعايدة التي تحب السيدات لصقها على باب الثلاجة.

مع ذلك تأثر الرجل الأكبر سنًا بكلامه، بدا وكأنه على وشك البكاء كالمرة السابقة. نظر «جوناثان» إلى مكتبه بسرعة ليتأكد من وجود علبة مناديل. بالفعل هناك واحدة مغلقة بجانب حامل القلم. إنها بمنزلة آلية دفاع أخيرة. فهو لا يجيد التعامل مع المرضى الذين يبكون، خاصةً الرجال. تنحنح واستدعى نبرته الهادئة التي يستخدمها مع المرضى الهستيريين قليلًا. عندما يستخدم هذه النبرة، يصبح كلامه مثل الإرشادات. هكذا سيسير الأمر.. هذا ما ستفعله.. كل شيء سيكون على ما يرام.

قال «جوناثان» مستخدمًا اسمه الأول ليضيف بعض الود على الحديث: - اسمعني يا "سامي"، خذ نفسًا عميقًا وأخبرني عن الأمر. بعد ذلك سنضع خطة معًا لكي تشعر بتحسن.

- الأمر يزداد سوءًا يا دكتور. لا أظنني أستطيع تجاهل ما يحدث أكثر من هذا.

- ما دام الأمر يزداد سوءًا، علينا التصرف بسرعة وبدون تأجيل. لدينا بعض الاختيارات.

- أي نوعٍ من الاختيارات؟

- أعلم أنك لا تفضل تناول مضادات الاكتئاب يا "سامي"، الكثير من الناس مثلك. لكنه سيكون حلًّا مؤقتًا لتستعيد عافيتك وتنام وتبعد التوتر. هذا أحد الاختيارات، أو يمكنني أن أرتب لك موعدًا مع استشاري مختص، ويمكننا استخدام الحلين. هذا ما أنصح به شخصيًّا بصراحة. لن يضرك التحدث مع شخصٍ ما عن مشكلاتك. حتى لو كنت تتناول الأدوية بالفعل.

- لا أريد اللجوء لطبيبٍ نفسي.

- ليس طبيبًا نفسيًّا يا «سامي»، بل استشاريًّا. سيساعدك على تحليل مشكلاتك وحلها.

- لا أريد التحدث مع شخصٍ غريب.

- هل أصف لك أدوية إذًا؟

- لا، لا أريد أدوية. أتيت هنا للتحدث معك فقط.

- أنا لست طبيبًا مختصًا بل طبيبًا عامًا. من الأفضل أن تتحدث مع طبيب متخصص في المجال الذي تحتاجه. يمكنني ترتيب هذا لك.

- لا يا دكتور "موراي"، أريد التحدث معك فقط.

سأله «جوناثان»:

- لماذا أنا؟

لا يعرف لماذا سأله أصلًا. إنه لا يريد سماع الإجابة حتى، فهي ستكون مريرة، لكن فمه تكلم قبل أن يوقفه عقله.

قال «سامي»:

- لأننا في قاربٍ واحد. عرفت ذلك منذ رأيتك أول مرة. أنت مرعوبٌ ومحبطٌ مثلي.

قال «جوناثان»:

- لا تكن سخيفًا.

لا فائدة من الجدال مع الرجل الكبير. أخذت يداه تعبث بالأغراض التي على المكتب من التوتر؛ التقط القلم ثم تركه، أمسك المفكرة وأخذ يقلبها. إنه يتعرق. شعر بالعرق يتجمع أسفل ظهره ويلتصق بجبهته. شعر بالخوف وكأنه خروف يقودونه للذبح. إنه مضطربٌ مثل «سامي أجنيو». ومكتئبٌ مثله أيضًا.

إنه يفكر في الاختفاء طوال الوقت. «الاختفاء»، هذه هي الكلمة التي يستخدمها، لكنه يعني: «سيكون العالم أفضل بدوني». الغرور فقط هو ما يجعله يترفع عن قول هذه الجملة المبتذلة. دفع كرسيه بعيدًا عن المكتب، فأصبح هناك فراغ صغير بين قدميه وبين المكتب. وضع ساقًا فوق الأخرى وأسند مرفقيه على فخذيه ثم أسند رأسه على يديه. أصبح مثل ولدٍ صغير يحاول أن يتكوَّم حول نفسه. لمح علبة المناديل المغلقة، فارتاح لأنها موجودة، من باب الاحتياط. قال: - أنت محق. أنا لست بخيرٍ أيضًا.

نهض «سامي» من على الكرسي وعبر الغرفة بخطوتين ثم أغلق الباب بالقفل عليه وعلى «جوناثان»، وكأنه يفصل بينهما وبين كل مَن في الخارج. لا يجب أن يغلق «جوناثان» الباب بالقفل عندما يكون مع مرضى. هذا لسلامته وسلامتهم. يمكنه أن يتخيل الاحتمالات، لكن الباب مقفل الآن ولا يوجد ما يفعله دون أن يُحدِث مشكلة. سحب «سامي» كرسيه ليصبح في مواجهة «جوناثان» مباشرةً وكأنهما جالسان في مقهى لكن بدون طاولة في الوسط، ثم جلس بثقلٍ وقال: - تكلم. أنا أسمعك.

قال «جوناثان»:

- أنت أولًا.

شعر أن عليه الإصرار على هذا. فهو الطبيب هنا. على الأقل ما زال يجلس خلف المكتب.

بدأ «سامي» يحكي قصته. قرر منذ البداية ألا يخفي أي تفاصيل، مهما كانت بشعة أو لا ترتبط بالموضوع كثيرًا؛ مثلًا عندما يفكر في مذيعة الطقس بينما يمارس الحب مع زوجته. مزيج الراحة والحزن الذي شعر به عندما وضع ابنه وبنته على العبارة، التي ستأخذهما للبر الرئيس، عالمًا أنهما لن يعودا مجددًا. المرة التي رآه «مارك» في الجراج وهو يفرغ غضبه بلكم إطار قديم متظاهرًا أنه ذلك الشاب الذي حصل على الترقية بدلًا منه. عندما سأله الولد: «ماذا تفعل في الإطار يا أبي؟»، رد: «أمنع نفسي من إيذاء شخصٍ ما يا بني»، لقد ظن أن الصبي أصغر من أن يتذكر النظرة الوحشية التي علت وجهه في أثناء غضبه. لكن ربما تذكر الصبي حقًّا. ربما شيءٌ ما في هذه اللحظة قد غيره، أو ربما لا يمكن تحديد وقت التغيير بالضبط، أي تحديد وقت وتاريخ التحول مثل تاريخ التعميد مثلًا. ربما لا توجد طريقة لمعرفة الوقت المحدد لتحول شيءٍ ما من طيب لشرير.

بدأ «سامي» يسرد حكايته:

- هناك رغبةٌ بداخلي لإيذاء الناس.

سمع «جوناثان» هذا الكلام من قبل مع اختلافاتٍ بسيطة. هناك عشرات الرجال في شرق بلفاست لا يعرفون كيف يتعاملون مع غضبهم؛ تحمر وجوههم بسببه ويشربون حتى الثمالة. من آنٍ لآخر، تصيبهم نوبات هستيرية، أحيانًا يقترح عليهم التحدث مع طبيبٍ نفسي أو مجموعة. في أغلب الحالات يعلم أن الغضب الكامن في أعماقهم لا يمكن نزعه بالكلمات. ينصحهم بممارسة الجري، أو رفع الأثقال، أو الانضمام لنادي ملاكمة. لا يمكن طرد الغضب، لكن يمكنك تفريغ قوتك في شيءٍ آخر حتى لا تغذي غضبك.

بعد ذلك، أخبره «سامي» عن ابنه «مارك»، «مشعل النيران». لم يسمع «جوناثان» هذه القصة من قبل. معظم الرجال الذين يسمعهم يشعرون بالذنب والندم. ويريدون أدوية للاكتئاب أو مسكنات ليمكنهم النوم ليلًا. ما زالت تراودهم أحلام عن الأفعال الشريرة، التي ارتكبوها في السبعينيات والثمانينيات. يعلمون أنهم ليسوا ضحايا، لكن لا يمكن التفاهم مع الكوابيس ونوبات الفزع. إنهم يريدون فرصةً للاعتراف والتخلص من الذنب. هذا هو مفهوم الراحة في شرق بلفاست.

يرفضون التحدث مع القساوسة، ولا يثقون بالشرطة، ولن يفكروا لحظة في نقل هذا العبء لنسائهم؛ لهذا يتحدثون مع الأطباء. فهناك قَسم السِرية الذي ينص على أن كل ما يقوله المريض يبقى بينهما داخل الغرفة. دائمًا يسألون قبل الاعتراف: «لا يمكنك إفشاء كلامي لأحد، أليس كذلك؟»، بعد ذلك يستريحون من الثقل الجاثم على صدورهم، لكن ذلك يدوم ساعة أو اثنتين فقط. فبمجرد أن يروا انعكاسهم على واجهة محل، يتذكرون أنهم - رغم الاعتراف - يظلون الرجال المذنبين نفسهم.

يعرف «جوناثان» هؤلاء الرجال. إنه يرى واحدًا في الأسبوع على الأقل، يستمع لقصصهم البشعة. جميعها تتبع نمطًا محددًا؛ أسلحة، قنابل، ضرب، خوف. إجازات داخل وخارج البلاد يقضونها في الأعمال الشريرة. يشعر بالاختناق كلما دخل عليه أحدهم. وعندما يغادر، يشعر برغبةٍ في غسل يديه بصابون معقِم وكأنه لمس شيئًا قذرًا.

قصة «سامي أجنيو» مختلفة؛ لقد تخطى الأسلحة والقنابل والضرب بالعصي. إنه لم يأتِ للتحدث عن الماضي البعيد، بل ليتخلص من هَم ابنه. يحاول أن يقلب الموضوع من كل الاتجاهات حتى يخرج بنهاية سعيدة. ربما لو أحسن «مارك» التصرف وانتهت الحرائق وانتهت مشاكله، سيتحسن حاله. يريد «جوناثان» أن يقاطعه قائلًا: «أفق يا رجل، ابنك مختل عقليًا ويجب أن يُحبس. قصتك لن تنتهي بسعادة»، لكنه منع نفسه وتركه يواصل. من المهم ألا يقاطع المريض. هذا ما يتعلمه الأطباء في المهارات السريرية. لن تنتهي قصة «سامي أجنيو» كالحكايات، بل ستختفي من الوجود تمامًا. قال عندما انتهى: - لا أعرف ماذا أفعل الآن.

ثم تراجع في كرسيه وشبك يديه خلف عنقه، فأصبحت ذراعاه على شكل جناحين. سحب نفسًا عميقًا وأطلقه ببطء. بدا مجهدًا جدًّا.

لا يعرف «جوناثان» ماذا يجب أن يفعل «سامي» أيضًا، لكنه يعرف أن عليه هو أن يفعل شيئًا. يجب أن يرفع السماعة ويتصل بالنجدة لأن هذه حالة طارئة. بصفته طبيبًا، يعد مسؤولًا عن حماية الناس من الأذى، والألم، والمرض، والمجانين القادرين على صنع قنابل. إنه رجلٌ مسؤول. من المفترض أن يجد حلولًا منطقية بسهولة لكل موضوع، لكن هذا لم يحدث منذ وصول «صوفي». لم يعد يرى سوى مشاكله. لم يعد يهتم بقدر ما يجب، وأحيانًا يهتم أكثر مما يجب. لكن من المريح أن يسمع شخصًا يعاني أكثر منه. إنه الآن يرغب بالاحتفاظ بقصة «سامي أجنيو» في عقله لكي يتذكرها كلما نظر إلى «صوفي» وقال إنه لا يوجد ما هو أسوأ. قال: - عليك الذهاب إلى الشرطة على الأرجح.

لكنه لم يصر على هذه النقطة، بل قالها ببساطة كأنها نصيحة عابرة. وكأنه يقول: «أحضر معك سترة في المرة القادمة تحسبًا لبرودة الجو». كانت نبرته خالية من الصرامة والعصبية؛ فوضعه لا يسمح له بفرض قواعد قاسية عليه. ليس بعد أن فكر فعليًّا في حبس ابنته في دولاب، وما زال يخطط لحلٍ جذري عن طريق قطع لسانها. تنطبق القواعد على الرجال العاديين وليس عَلى آباء «الأطفال المنحوسين».

قال «سامي أجنيو»:

- أنت على حق. عليَّ الذهاب إلى الشرطة على الأرجح.

- عاجلًا أفضل من آجلًا.

- أعطني أسبوعًا يا دكتور، لكنني أرتب الأمور.

- غدًا يا "سامي". قبل أن يتأذى أحد.

قال «سامي» وكأنهما يفاصلان في سعر سيارة مستعملة:

- يومان.

- يومان على الأكثر. إن لم تفعلها، سأتصل بالشرطة.

- يجب أن أفعلها أنا. تفهمني بالطبع، فأنا والده.

"جوناثان" يفهمه، الأمر شخصي بالنسبة للآباء. لقد وافق على عدم الذهاب للشرطة. وجعل «سامي أجنيو» يقسم على الاتصال به بمجرد إبلاغ الشرطة. لا ينوي أبدًا الاتصال بنفسه حتى لو لم يفعل المريض. عندما يحاول أن يتخيل «مارك» يزرع قنابل ويقتل الناس في الشارع، لا يبدو الأمر واقعيًّا، بل يشبه مشاهد من فيلم أكشن قديم أو مسلسل تليفزيوني. جثث، دماء، شظايا زجاج، دخان متصاعد مثل سحابٍ جاف. لم تُثِر الصورة في خياله أي شعور بالخطورة أو المسؤولية. تبلد شعوره بالتعاطف بسبب قلقه الدائم على «صوفي». لا يمكنه رؤية خطورة أي موقف غير موقفه. إنه ليس مناسبًا ليكون طبيبًا الآن، لكن يبدو أنه لم يلاحظ أحد ذلك.

أضاءت لمبة حمراء في تليفون مكتبه وبدأ يرن. إنها إحدى موظفات الاستقبال. هذا يعني أن هناك مرضى كثيرين في غرفة الانتظار، ويتساءلون إلى متى سينتظرون. لقد أمضى عشرين دقيقة بالفعل مع «سامي»، ويبدو أنه لن ينتهي قبل استراحة الغداء.

اسم موظفة الاستقبال «كيارا» أو «كلير» أو «كاثي»، إنه يبدأ بحرف الكاف بالتأكيد. أو ربما اللام. المهم أنه رد عليها وقال: - لديَّ صداعٌ نصفي.

زفرت وقالت:

- مرة أخرى يا دكتور "موراي"؟ إنها ثالث مرة في أسبوعين. ربما عليك زيارة طبيب.

ربما تحاول أن تكون مضحكة أو مبتذلة. لا يمكنه أبدًا معرفة متى تهينه موظفة استقبال، لكنه يجب أن يكون صارمًا جدًّا مع هذه، فهي وقحةٌ جدًّا مع الأطباء، ولا ترتدي الزي الرسمي بطريقةٍ صحيحة. استخدم نبرته الجادة التي يستخدمها مع موظفي التسويق وسائقي سيارات الأجرة، وقال: - أخبري المرضى أنني مريض، وأعطيهم مواعيد غدًا يا "كاثي".

لم تصحح له الاسم، لذلك افترض «جوناثان» أن اسمها «كاثي» فعلًا، أو أنها توترت من نبرته الصارمة فخافت إخباره بأن اسمها «كلير» أو «كيارا». أغلق الخط قبل أن يتيح لها فرصة الكلام. استدار إلى «سامي» واعتذر للمقاطعة.

قال الرجل الأكبر سنًا:

- إنه دورك يا دكتور.

ثم شبك ذراعيه وأومأ له ليحثه على الحكي مثلما تفعل مع طفلٍ متردد.

أخبره «جوناثان» بقصته بكل التفاصيل، ما عدا الجزء الخاص بإغواء والدة «صوفي» له. لم يشعر بالراحة في التحدث عن العلاقات الحميمية بصيغة المتكلم. قال: - خطوة أدت لأخرى وفجأة أصبحت حاملًا.

لم يصدق مدى سهولة سرد هذا الواقع المعقد.

الكلام سهل. حكى له حياته الفوضوية بدايةً من والديه المتغيبين دائمًا وحتى غرق شقته، لكنه لم يذكر نيته في قطع لسان الطفلة. هذا لم يحدث بعد، لا داعي لحكي شيءٍ قد لا يحدث أصلًا. هكذا قال لنفسه ليبرر حذفه بعض النقاط. لم يرد أن يظنه «سامي أجنيو» وحشًا. إخبار شخصٍ ما عن طفلك المختل يختلف تمامًا عن الاعتراف بنواياك الوحشية. لقد شعر بالحرج الشديد من الاعتراف بهذا الشيء الذي نوى فعله حقًّا.

عمَّ صمتٌ ثقيل عندما انتهى، وخيم جو من الكآبة على الغرفة. تراجع الرجلان في كرسيهما ونظرا لبعضهما.

قال «سامي أجنيو»:

- يا لها من قصة عجيبة!

قال «جوناثان»:

- إنها حقيقية.

- أصدقك.

قال «جوناثان”:

- ليس عليك مجاراتي، أعلم أنها تبدو سخيفة. لا أحدٍ يصدق الأمور الخارقة للطبيعة الآن. معظم الناس لا يؤمنون بوجود الرب أصلًا.

- هناك الكثير من الناس في شرق بلفاست يصدقون هذه «الأمور الخارقة للطبيعة»، مثل الأشباح، والرب، والأطفال ذوي القدرات الخاصة التي لا يفهمها أحد. لم أكن أعرف أن اسمهم «أطفال منحوسون”، لكن أؤكد لك أنك إن ذهبت إلى الشوارع التي حول جسر «ألبرت» أو «أورانج فيلد» وسألت كبار السن إذا سمعوا حكايات عن أطفال ذي قدرات خاصة، فسيخبرونك بالكثير. كلهم يعرفون.

- أنت تمزح.

أكد “سامي”:

- أقسم لك أنني صادق، كان هناك طالب يكبرني بسنة يمكنه جعل الناس ينامون بمجرد النظر إليهم بحدة؛ يحدق فيهم ويضيق عينيه على وجه الدقة. وكانت أمي تخبرني عن صديقةٍ لها أنجبت طفلًا يتحدث الألمانية بطلاقة قبل أن تمر ساعتان على ولادته. وعندما بدأ يمشي أصبح بإمكانه تحدث بعض الفرنسية والإسبانية أيضًا، على الرغم من أنه لا أحد على طريق «كريجا» يمكنه أن يعرف إذا كان نطقه صحيحًا أم لا. وهناك فتاة شريرة جدًّا تكبر أختي بسنة، عندما تفرك يديها معًا، تصدر صوتًا غريبًا يشبه صوت الجرادة. وإذا لم تغطِ أذنيك بسرعة لن يمكنك التقاط أنفاسك وستشعر باختناق. أقسم أنها قتلت فتى مصاب بالربو ذات مرة؛ أخذت تفرك يديها أمامه بقوة حتى أصابته نوبة ربوٍ شديدة وتوفي في سيارة الإسعاف. لم يستطع أحد إثبات شيء، لكن كلنا كنا نعرفها ونعرف ما يمكنها فعله بيديها العظميتين. لا يا دكتور «موراي»، أنت لم تصدمني أبدًا بحديثك عن “الأطفال المنحوسين”، لكنني أعترف أنني لم أسمع عن الحوريات في شرق بلفاست.

سأله «جوناثان»:

- ولماذا لم أسمع عن كل هذا من قبل ولادة “صوفي”؟

- لأنك يا دكتور أكثر ترفعًا من أن تعرف ماذا يجري على الجانب الآخر.

شعر «جوناثان» أن عليه الاعتذار لجهله. لو صدق كلام «سامي أجنيو»، فهذا يعني أن “الأطفال المنحوسين” ليسوا ظاهرة جديدة في شرق بلفاست. إنه

يتفهم تمامًا خوف الطبقة الراقية من الفضيحة. لو ظهر في هذه الطبقة «طفل منحوس»، سيخفونه عن الناس مثل مراهقة حامل، سيحرمونه من كل شيء ويتبرؤون منه. سيصبح بمنزلة سرهم القذر الذي يجب إخفاؤه بعيدًا. لكن ما لم يفهمه «جوناثان» هو كيف لأسرة من الطبقة المتوسطة أن تخفي سرًّا كهذا عن جيرانها. بالتأكيد سيخرج السر وينتشر من شارعٍ لآخر كالنار في الهشيم.

سأله:

- لماذا لم تذكر الصحف شيئًا عن هذا؟

كان يقصد بسؤاله: «وماذا أيضًا لا أعرفه؟»

ردَّ «سامي»:

- إن كان أهالي شرق بلفاست يجيدون شيئًا واحدًا فهو كتمان السر عن الأغراب. عندما تعيش في هذه البيوت المتزاحمة، لا يمكنك حتى أن تتقلب في سريرك دون أن يعرف جارك. الجميع يعرفون كل شيء، لكنهم متحدون ويجيدون حفظ الأسرار وعدم التدخل في أمور غيرهم. لو أن أهالي الشرق لا يريدونك أن تعرف ماذا يجري، فلن تعرف أبدًا. العمل الجاد وحفظ الأسرار هما ما يحفظ تماسك تلك المنطقة.

قال «جوناثان»:

- أظن أنه من المريح مشاركة مشكلاتك مع جيرانك.

تخيل «جوناثان» نفسه وهو يقدم «صوفي» للمرأتين المسنتين المزعجتين في المنزل المقابل، تخيل نفسه وهو يحمل «صوفي» مثل حمل يضحي به. لم يتخيلهما سعيدتين بها أبدًا. لم يتخيل أنه يمكنهما فعل أي شيء غير زيادة الأمر سوءًا.

قال «سامي أجنيو»:

- يقولون إن الحِمل يقل إذا تشاركته.

- قد يكون هذا صحيحًا في حالة الطفل الذي يتحدث الألمانية أو الطفلة المولودة بجناحين، لكنه ليس كذلك حين يتعلق الأمر بخطرٍ حقيقي. لا أظنني أستطيع إخبار أي أحد بشأن «صوفي». هذا لن يساعدني. إنها مختلفة عن كل الأطفال الآخرين، تستطيع إيذاء الناس بحق.

- أو قد تكون بخيرٍ تمامًا يا دكتور. الاحتمال خمسون بالمائة في الحالتين. قد تكون مثلك أو مثل أمها.

فكر «جوناثان» في نسبة الخمسين بالمائة، وفي كل الآباء الذين قابلهم في وحدة العناية المركزة وحضَّانات الأطفال. إنهم الناس الذين يتجهزون لسماع الأخبار السيئة. «هناك نسبة خمسون بالمائة للتعافي، أو النجاة، أو تجاوز المرحلة الصعبة في الساعات القليلة المقبلة». لقد قال هذه الجملة كثيرًا. كما قال «ثلاثين في المائة» و»عشرة في المائة» بضع مرات. وهناك أيضًا «لا فرصة أبدًا»، وهذه الجملة بالذات عليك تعلمها مرارًا وتكرارًا. لا يجب أن تتردد وأنت تقولها، ولا يجب أن تبكي، يجب أن تكون صلبًا. في هذه الحالة، تعد نسبة «الخمسين بالمائة» إيجابية جدًّا مقارنةً بـ»لا فرصة أبدًا». يعرف «جوناثان» آباء مستعدين لقطع أذرعهم في سبيل نسبة شفاءٍ كهذه. إنه يعد محظوظًا. عليه رؤية نصف الكوب الممتلئ. يجب أن يتمنى الأفضل.

قال:

- أنت محق، خمسون بالمائة منها ينتمي لي. قد تكون بشرية تمامًا... أو لا.

- لا يمكن معرفة ذلك حاليًا، لذلك لا فائدة من القلق بشأن شيءٍ قد لا يحدث أبدًا.

- أنا فقط أتمنى لو أستطيع فعل شيء لترجيح الكفة لصالحي.

- ربما يمكنك بالفعل يا بني. ألم تسمع عن نظرية الطبيعة والتطبع؟ أنا مؤمن تمامًا بإمكانية تربية الطفل والتأثير عليه حتى يسير في الطريق الذي تريده.

قاوم «جوناثان» رغبته في أن يقول: «وكيف جرى ذلك مع ابنك «مارك»؟ أم أنك أردت دومًا أن يكون ابنك مخبولًا مخربًا؟ أو أن هذا طموح جديد تطلعت إليه مؤخرًا؟»، بدلًا من ذلك، قال: - أنا أؤمن بأن الطبيعة تغلب التطبع يا "سامي"، لن تتغير طبيعة الشخص أبدًا مهما حاولت التأثير عليه.

- هل تقصد أن "مارك" كان سيصبح هكذا مهما حاولنا معه؟

- أظن هذا يا "سامي"، ليس لديَّ دليل علمي على هذا، لكنني رأيت الوضع نفسه كثيرًا. أشخاص طيبون يربون أطفالًا أشرارًا. ليس باليد حيلة إذا كان ابنك شريرًا. لا ألمِّح أن ابنك شرير.

- لمِّح كما تحب يا صديقي. يجب أن يكون لديك جانب مظلم لكي تتخيل الأفعال البشعة التي خطط لها هذا الصيف.

- العكس صحيح أيضًا يا «سامي». لقد رأيت أطفالًا طيبين على الرغم من تعرضهم لسوء المعاملة وهم أطفال، خذني مثلًا؛ والداي لم يحباني أبدًا، بل أوضحا تمامًا أنهما لا يريدانني. ومع ذلك ها أنا ذا، إنسان طبيعي. طبيب وأب ومحترم.

كل كلمة عبارة عن كذبة. يعلم «جوناثان» تمامًا أنه ليس إنسانًا طبيعيًّا. إنه طبيب مسكين وأب بائس، ورجل مثير للشفقة. لطالما ظن نفسه نصف إنسان، منتج رديء من البشر نتيجة سوء التربية والتجاهل. لكن لا يمكنه الاعتراف بهذا أمام «سامي أجنيو»، فهذا ليس ما يريد الرجل الكبير سماعه. يريد أن يؤمن «أجنيو» بأنه ليس مسؤولًا عن الشر الكامن داخل ابنه، لا الشدة أو التدليل لهما علاقة بحال الصبي. يريده «جوناثان» أن يظن بأنه ليس مذنبًا بشأن «مارك»، أو على الأقل يريد أن يقل شعوره بالذنب. قال: - هذا الأمر مثبت علميًّا. أستطيع أن أريك مقالة في الصحيفة الطبية البريطانية إن كنت لا تصدقني. لقد أجروا تجارب على القرود والدلافين ليثبتوا أن الحال لا يختلف بين الحيوان والإنسان، الناس لا يتغيرون مهما حاولت التأثير فيهم. لو ولِدت شريرًا، فستظل هكذا دائمًا. ولو ولدت لطيفًا، فستظل مهذبًا مهما فعلت بك الحياة.

سأله «سامي»:

- حقًّا؟ هل أنت متأكد؟

- إنه ليس كلامي. هذا منشور في الصحيفة الطبية البريطانية. إنها دراسة جديدة تم الانتهاء منها في العام الماضي. مهما حاولت التأثير على شخصٍ ما، ستغلبك طبيعته دائمًا.

- الطبيعة تغلب التطبع.

- بالضبط يا "سامي".

- إذًا، أنا لست مذنبًا بشأن "مارك"؟

- لا أظنك كذلك.

- لكن ما زلت أشعر أنني الملام.

- أتفهم موقفك تمامًا، لكن عليك أن تحاول تجاهل الأمر، وإلا فالشعور بالذنب سينهش عقلك. عندها لن تكون ذا فائدة للصبي.

- سأحاول، لكن لا أضمن لك شيئًا. ماذا عنك؟ لو أن نظرية "الطبيعة تغلب التطبع" صحيحة، فستكون في مشكلةٍ كبيرة مع ابنتك الصغيرة. قد تربي في بيتك قنبلة موقوتة.

- أعلم يا "سامي".

- ماذا ستفعل معها يا دكتور؟

- لا فكرة لديَّ.

بالطبع هذه كذبة أخرى. كل كذبة أصبحت أسهل من الأخرى، لكن هذه هي الأكبر والأجرأ من بين كل أكاذيبه. يعرف «جوناثان» تمامًا ماذا سيفعل بشأن «صوفي». إنه ليس مستعدًا للمخاطرة معها. لقد أخذ من مكتبه كل الأدوات التي يحتاجها وأحضرها للبيت؛ مشارط، شاش، مخدر، إبر معقمة، خيوط للجروح. خبَّأ كل شيء في الدرج الذي يضع فيه ملابسه الداخلية، لأنه المكان الذي لن تفتحه «كريستين» أبدًا. إنه يخطط لتنفيذ قراره في الإجازة الأسبوعية. سوف يقتلع لسانها.

لن يخبر «سامي» بهذا. فهو لا يريد الاعتراف به لنفسه حتى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18
العشاء الأخير

حل المساء على بلفاست، وغابت الشمس في الأفق.

تمتلئ ضفتا نهر "بالي هاك مور» بالمقاهي والمطاعم ومحلات الأكل الصيني الجاهز والأسماك والبيتزا. في أحد طرفي الشارع، توجد مطاعم فاخرة وباهظة. أما في الطرف الآخر، فتوجد المطاعم البسيطة التي تعرض صورًا لشرائح بيتزا ضخمة ترقص، وشطائر برجر تبتسم على واجهاتها. يحب الناس هذه الصور وكأنها صور قديسين مجهولين. يأتي الناس إلى هنا ليأكلوا وليراهم الآخرون يأكلون. يسمون الأكل هناك «بالي سناك مور». يذهبون في الإجازة الأسبوعية، ويركنون سياراتهم دون اهتمام للسكان الراغبين في ركن سياراتهم أيضًا. يأتون من «داندونالد» و»نيوتاوناردز» لتناول الإفطار مع عائلات زوجاتهم. أحيانًا يتناولون إفطارًا متأخرًا أو قهوة أو كوكتيلًا باهظ الثمن في كؤوس زجاجية فاخرة. كما يأتون لتناول العشاء ولقضاء سهرات، وأيضًا للشرب مع أصدقائهم من نادي "الرجبي".

يميلون للمبالغة في التأنق؛ ترتدي النساء فساتين ملفتة تليق بحفلات الزفاف بدلًا من أمسية بسيطة، يرتدين أحذية عالية الكعب، يميلون للون البرتقالي سواء في الملابس أو في التيار السياسي، فاللون البرتقالي في أيرلندا يشير للتيار الاتحادي وجماعة «أورانج» التابعة له. يرتدي الرجال سترات رياضية وقمصانًا بلا ربطات عنق، يفتحون الأزرار العلوية ليظهر جزء من جلد عنقهم الأحمر تحت الذقن مباشرةً. يأملون أن تلاحظ النساء هذا الجزء الصغير العاري فيرغبن في رؤية المزيد، لكن هذا لا يغري النساء، إلا إذا كن ثملات. عادةً يشربن النبيذ في ليالي الأسبوع، والأنواع الأخرى في آخر الأسبوع. صوتهن حاد مثل صفير العصافير في الصباح الباكر. عندما يجتمعن في المكان، إما أن تضغط على أسنانك من الغيظ وإما تخرج إلى ركن المدخنين لتهرب منهن. حتى لو كنت لا تدخن، ما زال الخروج في الهواء البارد الممطر أفضل من البقاء في الداخل معهن. على الأقل ستسمع حديثك مع الآخرين.

لا أحد يقف في الخارج اليوم. حتى المدخنون ليسوا هنا. الأمطار غزيرة، والناس يركضون من السيارات إلى المقاهي أو العكس، ويجذبون خلفهم أزواجهم أو أطفالهم. ينحشرون تحت المظلات ويتحركون تحت المطر، فيشبهون السلاحف مجنية الظهر، لكن عادةً تخرج ذراعًا أو قدمًا من تحت المظلة أو يتحرك طفلًا، فيدخل المطر ويتسرب إلى المساحة الآمنة تحت المظلة. فيتركون بللًا على الأرض أو المقاعد. تترك مؤخراتهم آثار بلل على

المقاعد، وبعد فترة، يخف البلل تاركًا علامة تشبه رقم 8. أما المظلات المبللة فتقف مائلة بجانب الباب مثل أشجارٍ ساقطة. كل النوافذ مغطاة ببخار الأنفاس المحبوسة التي تتكثف على الزجاج. النادلات مضغوطات في العمل أكثر من المعتاد.

لم يهتم «سامي» بالأمطار هذه الظهيرة. بالكاد لاحظ المطر المنهمر على النافذة الأمامية. المرور صعبٌ جدًّا، السيارات تتقدم خطوة وتتراجع خطوة. قاد حتى منتصف طريق «بالي هاك» قبل أن يجد مكانًا للركن أمام محل فواكه، على بعد ثلاث دقائق سيرًا من مطعمه الصيني المفضل. ثلاث دقائق من السير وسط المياه القذرة.

لم يرتدِ «سامي» معطفًا اليوم. توقف عن التفكير في الأمور العملية ومظهره أمام الناس؛ ارتدى بنطالًا رياضيًّا، و"بلوفر" مع صندل وجوارب رياضية يظهر بياضها من بين الصندل. ستنهار «باميلا» لو رأته بالصندل. لن تقف بجانبه في الشارع، لكن «باميلا» ليست هنا الآن. يعرف «سامي» أن عليه مواجهة هذا اليوم وحده. أخذ يغلق أقفال السيارة بينما يتسرب المطر عبر ياقة قميصه فيلتصق النسيج بظهره. لا يشعر بالراحة من هذا البلل. تسرب المطر إلى الصندل وتشربته الجوارب. حتى "البلوفر" غرق بالماء وبدأ يزعجه. حل الخريف ببرودته إلى بلفاست، وزاده المطر برودة، لكن «سامي» لا يشتكي.

تقبل «سامي» أن كل ما يحدث له من إزعاج مهما كان بسيطًا يعد عقابًا له، حتى الزغطة، والجروح التي تصيبه من أطراف الورق الحاد، والإصابة بالإمساك. صار مؤمنًا أنه لا يستحق أي خير أو راحة بسبب أخطائه الماضية والحالية، وعليه أن يتقبل أي مشكلة تصادفه، سواء كانت السجن، أو رصاصة في ركبته، أو مجرد ياقة مبتلة. يجب أن يتحمل أي إزعاجٍ يصادفه لأنه أقل مما يستحق. لن يسمح لنفسه بالشكوى، لن يزفر حتى. شدَّ أكمامه المبتلة على يديه المرتجفتين من البرد وبدأ يسير بملابسه الغارقة.

قد تكون هذه آخر وجبة مناسبة سيتناولها. بل قد تكون آخر مرة يقف فيها تحت المطر لوقتٍ طويل. فهو لا يعرف إن كانوا سيسمحون له بالخروج. يفعلون ذلك في الأفلام. يسمحون للسجناء بالتمشية في ساحات مشمسة بينما يرتدون زيًّا برتقاليًّا. أحيانًا يسمحون لهم بلعب كرة السلة، لكن كل هذه الأفلام تحدث في أمريكا. الوضع يختلف هنا على الأرجح. نادرًا ما تسطع الشمس هنا، ولا يوجد اهتمام بكرة السلة، ولا يمكن أن يرتدي المساجين زيًّا برتقاليًّا، لأنه اللون الخاص بالأحزاب الاتحادية. عندها ستندد الأحزاب القومية بأن هذا انتهاك لحقوق الإنسان، وسيطالبون بوجود زي أخضر يمثل تيارها. لا

يعرف «سامي» كيف سيسير الوضع في السجن. لقد سمع إشاعات بالطبع، لكنه من زمنٍ طويل توقف عن تصديق الأمور التي لم يرها بنفسه.

رن جرس باب المطعم الصيني وهو يدخل. دخل المطر معه وترك بركة ماء على الأرضية. ظهر سيد «تشانج» من خلف «الكاونتر» وكأنه كان جالسًا تحته في انتظار الزبائن. إنه دائمًا يجلس هناك في انتظار الزبائن، ما عدا في ليالي السبت لأن الزبائن لا تتوقف عن الدخول.

سأله بلهجة شرق بلفاست سليمة مع بعض الأخطاء البسيطة جدًّا:

- صديقي "سامي"، كيف حالك؟

- أنا بخير يا سيد "تشانج"، وأنت؟

- في أفضل حال.

قرر «سامي» أن يتناول وجبة أخيرة. إنه ليس جائعًا حقًّا، لم يشعر بالجوع منذ أسابيع. يكتفي ببعض التوست والبسكويت وأكواب الشاي التي لا ينهيها ويتركها على الطاولة. لا يشعر بالجوع إلا في وسط الليل حين تثقل عليه همومه وتمنعه من النوم، عندها يتسلل إلى المطبخ ويأكل مقرمشات و"كورن فليكس"، طعمها مثل ورق الكرتون، لكنه لن يسمح لنفسه بالاستمتاع بطعامه حتى وهو يتضوَّر جوعًا. أما اليوم فمختلف، اليوم سيتعشى الوجبة التي سيتذكرها وهو يأكل طعام السجن. سيتمسك بذكراها في مواجهة بؤس الأيام والشهور والسنين، أو حتى العقود القادمة. فهو لا يعرف كم ستطول مدته.

سأله سيد «تشانج»:

- هل تريد وجبتك المعتادة يا "سامي"؟

- نعم، ربما. في الواقع، لست متأكدًا. دعني أرى قائمة الطعام أولًا.

مال على «الكاونتر» وركز بعينيه ليرى القائمة الملونة والمغلفة بطبقة رقيقة من البلاستيك الشفاف وملصقة بجانب ماكينة الدفع. هناك نودلز "شاو مين» بالخضار واللحم، ودجاج «سويت أند ساور»، ودجاج «كونج باو» بالخضار والصوص الحار، وشرائح لحم «ساتاي» مشوي، وجمبري بصلصة الفلفل الحار والعسل. تُرى ما أكثر وجبة سيفتقدها عندما لا يجد أمامه سوى طعام السجن، أو الطعام الذي قد ترسله له عائلته؟ قال:

- أريد طبق "شاو مين" باللحم، ودجاج "سويت أند ساور" على طريقة مدينة "كانتون"، ولفائف "سبرينج رولز"، ولفائف شاورما البط التي قدمتها لنا الأسبوع الماضي، وأيضًا لحمًا مع مشروم.

- هل تريد كرات أرزٍ مسلوقة أم مقلية؟

- مقلية بالطبع يا سيد "تشانج". ولا تخبر زوجتي، فهي تجبرني على اتباع حمية شديدة هذه الأيام.

غمز له سيد «تشانج» بخبثٍ مرح. لم يرَ «سامي» السيدة «تشانج» أبدًا، لكن سيرتها تأتي في الكلام من آنٍ لآخر.

- ما رأيك في بعض الجمبري المقرمش أيضًا يا صديقي؟ إنه سرٌ آخر لن أخبره لزوجتك.

- لا مانع أبدًا.

- علبة صودا؟

- بل زجاجة، من فضلك.

- هل ستحتفل مع أصدقائك يا "سامي"؟

قال «سامي»:

- لا.

ثم نظر إلى الطلبات الكثيرة التي أملاها لسيد «تشانج» وقرر أنه من الأفضل أن يكذب.

- نعم، دعوت أصدقائي لمشاهدة مباراة. فزوجتي تزور أختها اليوم.

- إن غابت القطط، تلعب الجرذان.

- "الفئران" وليست "الجرذان".

ابتعد سيد «تشانج» عن «الكاونتر» وصاح بالطلبات لأخيه الأصغر، الذي يعمل دائمًا في المطبخ ولا يُسمح له بالخروج منه. جلس "سامي" على مقعدٍ بجانب النافذة وبدأ يتصفح مجلة سيارات قديمة. أخذ يقلب الصفحات التي أصبحت أطرافها بالية ومليئة بالزيت من كثرة التقليب فيها. هذه سيارة حمراء، وهذه زرقاء، أما هذه فسقفها متحرك، وهذه تنطلق من صفر إلى تسعين في لحظات. هذه هي الأشياء التي تهم الناس. الأشياء التي تثير هوس الأشخاص التافهين. السيارات، المال، النبيذ، النساء.

يا للهراء. بدا كل هذا تافهًا في نظر «سامي» اليوم.

غدًا، لن يكون لديه سيارة أو مال أو بيرة أو امرأة تلمسه برغبةٍ أو حب. لن يبقى له شيء إلا ذكريات جافة، أو مكالمة تليفون من آنٍ لآخر إذا كان

محظوظًا. يجب أن يرى الأمور بوضوح ويصفي ذهنه. إنه لا يسعى للوصول إلى لحظة التنوير في حياته، بل فقط يفكر أنه إذا خسر كل شيء، فعندها يمكنه أن يعرف ما هي الأمور المهمة في حياته ويقدرها. بالتأكيد لن يفعل ذلك من أجل الحب، ولا الشعور بالذنب، ولا حتى الأمل، بل الإحساس بالواجب. أخذ يردد لنفسه بينما ينتظر الطعام: "يجب أن أفعل ذلك. يجب أن أحاول إصلاح الأمور. هذا هو المهم». سَمى ذلك «إصلاح الأمور». كان يمكنه أن يسميه «تكفيرًا عن الذنب»، لكن الجملة بدت دينية أكثر من اللازم بالنسبة لـ»سامي أجنيو».

قال سيد «تشانج»:

- تفضل يا "سامي".

ووضع أمامه على «الكاونتر» أكياسًا مليئة بعلب الطعام الجاهز.

- شكرًا. تبدو بأفضل حال يا سيد «تشانج».

أعطاه عشرين جنيهًا إسترلينيًّا بقشيشًا في حال لم يستطع المجيء مجددًا. تمنى ألا يكون قد أحرج الرجل أو بدا كأنه يتفضل عليه بطريقةٍ عنصرية. أخذ الطعام وهو يقول في سره: «يا إلهي. سيظن الرجل أنني على وشك الموت أو الجنون، لقد أعطيته بقشيشًا عشرين جنيهًا إسترلينيًّا، ونحن لسنا في عيد الميلاد حتى".

أخذ الأكياس دون أن ينظر إلى سيد «تشانج» مباشرةً. الأكياس زلقة بسبب بخار الطعام الساخن، العلبة البلاستيكية الشفافة التي تحتوي على الجمبري المقرمش أصبحت ضبابية بالفعل. وازن الأكياس بين يديه، حمل كل كيس في يد. أخذت الأكياس تتخبط في ساقيه بينما يسير، لذلك اضطر أن يبعد ذراعيه عن جسده وهو يسير، فبدا مثل رعاة البقر الأمريكان. ضحك سيد «تشانج» بخفة من باب المرح وليس السخرية. ظل «سامي» ينظر إلى الأرض، إلى صندله، إلى الجزء الصغير الظاهر من جلده بين الجورب والبنطال الرياضي. إنه على وشك البكاء، بدأت الدموع تتجمع في عينيه بالفعل. مال برأسه قليلًا نحو «الكاونتر» وتمتم بشيءٍ مبهم، قد يكون «مساء الخير» أو «شكرًا على شيء» أو «قد لا نتقابل مجددًا»، ثم خرج تحت المطر.

صاح سيد «تشانج» والباب ينغلق:

- استمتع بالطعام!

يعرف «سامي» أنه لن يستمتع بقطعة واحدة من هذا الطعام، لكنه سيأخذه إلى البيت على كل حال. وضعه على أرضية السيارة أمام كرسي الراكب، وضبط المكيف على درجة ساخنة جدًّا، فاندفع الهواء الساخن من الفتحات

السفلية بالقرب من الطعام. تعلم هذه الخدعة من «باميلا» التي تعلمتها من فتاة في الكلية. ربما تعلمتها من أخيها الأكبر أو قريبها. في الواقع، لا أحد يتعلم شيئًا بنفسه هنا، بل يرثه من غيره. أصبح يستخدم خدعة الهواء الساخن مع كل الأكل الجاهز، ماعدا البيتزا لأن حجمها كبير ولا يكفي لوضعها على الأرض أمام مقعد الراكب. إنها عادة لا يخالفها حتى في هذه الأزمة. بعد ميلٍ تقريبًا، بدأ الماء يتبخر من جواربه المبتلة، وأصبحت قدماه ساخنتين لدرجة غير مريحة. عندما وصل للطريق الدائري، كانت أصابع قدميه على وشك الشواء وتحاول الابتعاد عن الحرارة. لكنه تحمل، مع أن الحل البسيط، وهو أن يضبط المكيف. الشعور بالذنب مثل إبرة توخزه باستمرار ولا تتركه يرتاح. سيعيش هذا الوضع كثيرًا.

في نهاية الطريق، حاول المقود أن يعصيه ويغيِّر الاتجاه. عقله يقول "البيت"، لكن يديه تحركان المقود نحو الجنوب حيث «ليسبورن» ودبلن ثم المحيط الذي يمكن أن يبتلعه بالكامل. اشتدت يداه على المقود حتى ابيضت مفاصلهما من شدة الضغط. حرقته عيناه وجف حلقه. لا يريد أي جزء في جسده الذهاب إلى البيت. يعرف جسد «سامي» أنه مقبلٌ على أمرٍ مؤلم، مثل لكمةٍ عنيفة. وقد بدأ يشعر بها تصطدم بعموده الفقري وكتفيه. لو رفع يده إلى رقبته، سيشعر بها. سيشعر بقبضة محكمة ومضمومة، مثل عضلة أخذت تتصلب حتى تحولت إلى عظمة. كره فكرة دخوله لبيته، لكنه توجه إلى هناك على كل حال. ربح عقله المعركة، عقله الذي ينبض بالشعور بالذنب ويسعى جاهدًا لإصلاح الأمور. وكأن هناك مغناطيسًا يبعده عن الطريق الدائري ويصعد به التل ويشده إلى البيت حيث ستنهار حياته.

"مارك" ليس في البيت الليلة. الخميس هو اليوم الوحيد الذي يغادر فيه البيت في المساء، لا يعرف «سامي» إلى أين يذهب، وكذلك «باميلا». كل خميس ولمدة عامين، يهبط الفتى السلم في السادسة والربع ويغادر البيت بدون إلقاء التحية على والديه، وكأنهما زوجٌ من الحمام المحشي جالس على أريكة غرفة المعيشة.

اعتادت «باميلا» على أن تسأل «إلى أين يذهب «مارك»؟»، وكأن «سامي» يعلم، وكأنه استمتع واستفاد من حديثهما الغريب على السلم.

غالبًا يقول لها: «ربما لتمرينات لياقة، أو نادي كتاب، أو ملتقى ديني، أو صالة الألعاب الرياضية". بعدها يضحكان على فكرة ممارسة "مارك" لأنشطة عادية مع أشخاص طبيعيين في النوادي الاجتماعية أو الكنيسة.

اقترحت "باميلا" ذات مرة الـ»زومبا»، فكاد «سامي» يختنق عندما تخيل ابنهما العابس وهو يهز أردافه على الأنغام اللاتينية. سعل الشاي الذي كان

يشربه فسال على المجلات المكدسة على طاولة القهوة. ظلا يضحكان طوال مدة النشرة الجوية والإعلانات، أما الآن لم يعد «سامي» يمزح ولم تعد «باميلا» تسأل إلى أين يذهب ابنهما. بالكاد يرفعان أعينهما عن التليفزيون ليتأكدا من أنه أغلق الباب خلفه. يفكر «سامي» أنه ربما يذهب إلى خلية إرهابية أو بيت دعارة. وتساءل إن كانت «باميلا» تفكر مثله أو أسوأ.

يمكنهما أن يحاولا إيقافه بالطبع. يمكنهما أن يقفا أمام الباب ويسدا المخرج عليه ويواصلا سؤاله حتى يجيب، لكنهما لا يفعلان ذلك أبدًا. الحقيقة هي أن البيت يبدو أكثر راحة بدونه. أحيانًا يفتحان أحاديث ليالي الخميس. مواضيع خفيفة مثل الأخبار أو الجو أو أشياء مضحكة قرآها على الإنترنت أو ذكريات. يصبحان على حريتهما أكثر وهو بالخارج. «سامي» مسرور لأنه يستطيع الاعتماد دائمًا على ليالي الخميس. ما كانت خطته لتنفع لو أن الولد موجود في الغرفة العلوية يستمع.

"باميلا" ليست في البيت أيضًا. حرص "سامي" على هذا. أعطاها بطاقته الائتمانية، وسمح لها بالخروج مع صديقاتها للشرب والتسكع في أماكن مختلفة. وعندما سألته، قال ليزيل شكها: «لا يوجد سبب محدد يا حبيبتي. أنتِ تستحقين بعض الترفيه». لم تصدقه، فهو ليس من النوع الذي يفعل شيئًا «دون سببٍ محدد». بالكاد يتذكر أن يحضر لها بطاقة معايدة في عيد زواجهما، وأحيانًا يخلط بين عيد ميلادها وأعياد ميلاد الأولاد. يعلم أنها لم تصدقه. يرتعش فمها بطريقةٍ معينة حين ترتاب في أمرٍ ما. وهو شعر بهذه الرعشة على خده حين قبلته مودعة عند الباب. تساءل: «هل تظن أنني سأحضر امرأة أخرى إلى البيت؟ هل تظن أنني أحاول التخلص منها؟»، إجابات هذه الأسئلة هي ربما، وهذا ما أحزن «سامي». تمنى لو يعرف كيف يصلح علاقته مع «باميلا»، كيف يشد خطًّا ويبدأ من جديد.

انعطف «سامي» بالسيارة ليدخل في شارعه. لقد فعل هذا مائة ألف مرة، لكنه قد لا يفعله مجددًا. إنه طريق مسدود يمتلئ بمنازل صغيرة تحيط بمساحة من العشب المشذب بعناية. عندما كان أولاده الثلاثة صغارًا، تعلموا ركوب الدراجة على هذا العشب. كان يزيل العجلات الجانبية ويشاهدهم يتمايلون ويسقطون، لكنه كان مطمئنًا لأن العشب أطرى كثيرًا من طرق الأسفلت، التي سرعان ما سيقودون عليها بسرعة. فقط «مارك» لم يطلب مساعدته، بل ركله حين مد يده ليستند عليه. «مارك» هو الوحيد الذي انطلق من أول محاولة ولم يترنح أو ينظر خلفه، وهو ينطلق من العشب إلى الطريق الأسفلت والشوارع الأخرى.

توقف المطر قليلًا، فخرج الجيران ووقفوا على العشب ليستمتعوا بالجو. هذا «توم» الذي يسكن قبله بثلاثة منازل ومعه ابنه الأكبر «كايليب». يعرفهم

«سامي» لأنه يراهم دائمًا، وأحيانًا يستلم بريدهم حين يكونون خارج المنزل. الفتى طويل بالنسبة لعمره. إنه في السابعة أو الثامنة، شعره أشقر تمامًا بخلاف شعر والده الرمادي القصير. خمن «سامي» أن هذا الولد سيكون بالغ الوسامة حين يكبر. أما الآن فما زال طفلًا ويحرك ذراعيه بطريقةٍ غريبة، وكأنه يحملهما لأجل شخصٍ آخر أكبر منه. أحيانًا يتصرف بخجل وأحيانًا بألفةٍ زائدة تميِّز الأطفال المحبوبين.

لعب الأب والابن الكريكيت بينما يرتديان قميصي فريق «ليفربول» متطابقين. قميص الابن جديد، أما قميص الأب فيبدو قديمًا من أيام الدراسة. حتى أن شعار الراعي الرسمي قد زال من كثرة الغسيل. يمسك الولد مضرب كريكيت بينما يمسك الأب كرة تنس بدلًا من كرة كريكيت، أما العوائق فاستخدموا لها دلاء مقلوبة. إنهما يضحكان دون أن يعرفا كم هما محظوظان لكونهما طبيعيين وبسيطين! إنهما يمثلان كل ما لم يحصل عليه «سامي» مع «مارك».

نظر إليهما عبر الزجاج الأمامي. تخيل الفتى بعد عشرين عامًا من الآن، ربما متزوج أو لا. سيُحضر ابنه إلى بيت العائلة للزيارة، سيترك بيت أبيه ليبدأ حياته لكنه سيعود من آنٍ لآخر ليزوره. سيسعد والده برؤيته دائمًا. تخيل «سامي» كل هذا من نظرة الفتى إلى أبيه. فهو ينظر إليه بتركيز ويستمع له باهتمام، وكأن أبوه معلم عظيم. لم ينظر «مارك» إلى «سامي» هكذا أبدًا، ليس حتى عندما كان يعطيه ألعابًا باهظة.

أبطأ السيارة حتى كادت تتوقف. إنه في حيرةٍ من أمره. يكره جيرانه، ويكره سعادتهم الواضحة، وقمصانهم المتطابقة، ودلاءهم المقلوبة. المستقبل ينتمي لمثل هؤلاء، لأشخاص يحملونه ويسعون إليه. حامت قدمه على دواسة البنزين. يستطيع بسهولة أن يصعد على الرصيف ويدهسهم. يسرع ويصدمهم فيحطمهم. لن يبذل جهدًا في تدميرهم، فقط زلة قدم. بالتأكيد هكذا يبدو الأمر بالنسبة للرب كل يوم. إنه يمنع نفسه من تحطيمنا. فقط زلة قدم ولن يضحك ذلك الأب وابنه مجددًا، أو يتعاملا بودٍ وبساطة مرة أخرى. سيرتاح عندما لا يضطر لرؤية سعادتهما أمام عينيه كلما قاد سيارته.

رآه «توم» فرفع يده بتحية. لكن يد «سامي» أثقل من أن ترد عليه التحية، فهي لا تصلح إلا لَلَكْمِ والضرب. جرت دماؤه القديمة في عروقه ساخنة تنبض بالحقد والغضب. شعر بطعمها الغريب في فمه، وكأن نبيذ الليلة الماضية ظل عالقًا في فمه حتى الصباح. بدأت تجتاحه الرغبة في التحطيم والتخريب. «توقف»، هكذا قال لنفسه وليديه ولقدميه التي كادت تضغط على الدواسة، ولكل الأفكار التي دارت في عقله. «توقف»، قالها لأنه في هذه اللحظة فهم

شعور ابنه. ويا له من شعور حقير! أدار المقود بعيدًا عنهما وقاد على حافة العشب، ثم أوقف السيارة أمام منزله وقال وهو يلوح بيده:

- أهلًا يا "توم"! أهلًا يا "كايليب"!

ردا له التحية:

- أهلًا!

شعر «سامي» ببعض المودة نحوهما. فهو يعلم كم هما هشان.

حمل الطعام إلى المطبخ ووضعه في الثلاجة وهو ما زال ساخنًا. فهو يعلم أنه لن يأكل لقمةً منه الليلة. راوده شعورٌ بالغثيان. حاول أن يأكل قطعتين من الجمبري، لكنه تقيأه في القمامة. تشبثت رائحة الجمبري المقلي بأصابعه التي أمسكه بها. بعدما يرحل غدًا، ستجد «باميلا» طعامه في الثلاجة. ربما ستسخن جزءًا من طبق الـ»شاو مين» وتتساءل لماذا لم يأكل منه. وربما تعد إحضاره للطعام لفتة لطيفة منه. يحب «سامي» أن يشعر أنه يعتني بـ»باميلا»، حتى بعد رحيله. فتح زجاجة الصودا وتركها تهدأ ثم شرب رشفة كبيرة. انطلق السكر إلى رأسه مباشرةً. أخذ قرصين للصداع وابتلعهما برشفة أخرى. إنه يحتاج لعقلٍ صافٍ ومنتبه، هناك الكثير ليفعله قبل عودة «مارك».

صعد السلم ومر بغرفته. كان الباب مفتوحًا، فظهر السرير الذي لم يرتبه منذ استيقظ صباحًا، وسلة الغسيل المليئة بالملابس، والقطة المتكورة حول نفسها مثل تمثال «بوذا» فوق كومة من المنامات غير المتطابقة والمناشف المبتلة. لم يحتمل الغرفة التي بدت عادية جدًّا وطبيعية. فيها فرو قطط، ورائحة شامبو «باميلا»، وكتاب مفتوح وموضوع على منضدة السرير بالمقلوب، فبدا مثل خيمة صغيرة.

توقف عند الحمام الرئيس ليأخذ أكياس بلاستيك فارغة، وقفازات مطاطية من دولاب أدوات التنظيف. لقد شاهد ما يكفي من حلقات مسلسل التحقيقات "CSI" لكي يعلم بشأن البصمات والـ»DNA"، وأنه عليه ألا يترك أثرًا منه في مسرح الجريمة. ارتدى القفازات الصفراء المطاطية وهو يفكر في بيته كمسرح جريمة، ويتخيل كيف سيكون الوضع غدًا صباحًا عندما تحيط الشرطة المنزل بالشريط الأصفر، والجيران يراقبون المشهد من بعيد. هذا صعبٌ عليه. عقله متردد. البيت هادئ الليلة. توقف قبل سلم الطابق الأخير قليلًا ليسحب نفسًا عميقًا. فأصبح البيت ساكنًا تمامًا، بدون حركةٍ واحدة. في غياب «مارك»، لا يوجد توتر أو ضغط.

واصل «سامي» صعود السلم إلى غرفة «مارك» العلوية، الدرجتان الثالثة والسادسة مكسورتان. يعرف ذلك. أحيانًا يكون صوتهما المزعج هو الدلالة الوحيدة على أن ابنهما ما زال حيًّا. باب غرفة «مارك» مغلق بإحكام، تساءل «سامي» إن كان مقفلًا بقفلٍ يا ترى. لم يجهز خطة لهذا. ربما يستطيع فتحه بمشبك شعر أو بطاقة ائتمانية مثل الأفلام. هذا ليس ضروريًّا، لأن المقبض دار معه. انفتح الباب ووقف «سامي» وسط غرفة ابنه. حتى التنفس فيها صعب، وكأن الهواء غير كافٍ بها.

كل شيء أبيض اللون؛ الجدران، والسجاد، والدولاب الرخيص من ماركة «أيكيا»، والأدراج، والملاءات المفروشة بنظام على السرير ومشدودة إلى الأركان الأربعة، وكأن خادمة فندق محترفة هي من فرشتها. حتى مصباح المكتب أبيض، يحني رأسه على المكتب والكرسي الأبيضين. لم يتوقع «سامي» رؤية كل هذا البياض. نظر لذراعيه الملفوفتين بالقفازات وصندله المتسخ، فشعر بالتناقض مع المكان المغلف بالأبيض. شعر أنه مكشوف، وكأنه كائن ملون وسط مساحة من الثلج.

بدأ يفتح الأدراج، ليس صعبًا أن يجد الأشياء التي يبحث عنها. بجانب القمصان والسترات في الدولاب، توجد السترة ذات غطاء الرأس التي يرتديها في الفيديوهات. وهناك قناع بلاستيكي في آخر درج في المكتب، واللافتات موجودة تحت السرير وفوقها حقيبة فيها كاميرا فيديو مع الحامل الخاص بها. أما الأقلام السميكة فتقف داخل برطمان وكأنها جنود يرتدون خوذات وينتظرون الأوامر. يستقر «لاب توب» «مارك» في منتصف المكتب بالضبط، وحوافه متوازية مع أطراف المكتب. وهناك قلما حبر يحيطان به من الجانبين مثلما تحيط أدوات المائدة بالطبق. رمى «سامي» كل شيء داخل كيس بلاستيكي. لا يهم إذا تكسرت أو فسدت. فمصيرها النار على كل حال.

بدأ يبحث في الأدراج والدواليب. لا يعرف عما يبحث بالضبط؛ مذكرات، خطابات، أدوات صنع قنابل، أي شيء قد يدين «مارك» حين تصل الشرطة. لم يجد شيئًا مهمًّا، لكنه واصل رمي الأشياء في الكيس لكي يشعر بالإنجاز. لا يوجد أثر لأي شيء يشبه القنبلة. لكن القنابل الآن لا تشبه القنابل في زمن «سامي» على أي حال. قد تكون على شكل منبه، أو أنبوب، أو زجاجة، أو مسمار، أو بعض البنزين يشتعل ليصبح نارًا حقيقية. أصبحت القنابل متطورة مثل الكمبيوتر الآن. رمى منبه «مارك» في الكيس وبعده شاحن التليفون المحمول ثم شاحن الـ»لاب توب». الاحتياط واجب. شعر بأنه رجلٌ أعمى يتحسس الأشياء من حوله بحثًا عن مخرج.

بمجرد أن انتهى، أغلق الدولاب والأدراج وضبط ملاءة السرير. عادت الغرفة كما كانت. وقف لحظةً أخيرة في وسط الغرفة ليتأكد من أنه لم ينسَ شيئًا،

كما يفعل في الإجازات عندما يغادر غرفة الفندق. بعدما يغادر هذه الغرفة، لن يعود مجددًا. ستنتهي مرحلة وتبدأ أخرى. حاول أن يستدعى غضبه الدفين، لكنه لم يجده. استرخت قبضتاه ورفضتا الانقباض. برد دمه ولم يعد متوترًا. لم يشعر بشيء إلا الرغبة في البكاء. أغلق الباب خلفه وجر الكيس البلاستيكي أسفل السلم حتى وصل إلى الساحة الخلفية.

اتضح أن إشعال النار أصعب مما تخيل بسبب المطر الذي يهطل منذ شهر. كدس أغراض «مارك» كلها على الشواية، ثم سكب عليها وقود. اشتعلت الأوراق بسرعة، احترق النسيج، ذاب البلاستيك وتشوه بفعل الحرارة. لكن الـ»لاب توب» رفض أن يشتعل تمامًا. احترق قليلًا من الأطراف، وتصاعد منه دخان رمادي أحرق حلق «سامي». يشبه رائحة مثبت الشعر «الچل». رفع "سامي" ياقة "البلوفر" ليغطي فمه وتنفس عبر النسيج الصوفي. بعد ذلك عاد إلى المنزل وأحضر عبوة بنزين سكبها على الشواية.

فجأة اشتعلت الشواية بألسنة لهبٍ حمراء. أجبرته الحرارة على التراجع، اصطدمت قدمه بحافة حوض زرعٍ. اضطرب عندما لامس جلده الحافة الإسمنتية. جلس على عتبة الباب الخلفي يدعك كعبه حتى يهدأ الألم. أغرق الدم جوربه وسال على أصابعه، رفع يده إلى فمه لاشعوريًّا ولعق الدم قبل أن يجف، مذاقه مثل مذاق الملح والأوراق النقدية. لا يجب أن يضعه في فمه أبدًا.

في العاشرة إلا خمس دقائق، نهض ليتصل بالشرطة من تليفون الصالة. سيعود «مارك» في أي لحظة. إنه لا يتأخر بعد العاشرة أبدًا يوم الخميس. يجب أن يضبط «سامي» توقيت اتصاله بالضبط. لو اتصل باكرًا، ستعتقله الشرطة قبل أن تسمح له بفرصة التحدث مع الولد. ولو اتصل متأخرًا، سيحاول «مارك» إيقافه. حل الظلام في الخارج تقريبًا، وانطفأت النيران التي أشعلها. لم يبقَ منها إلا وهج برتقالي ينعكس على زجاج الصوبة الزجاجية. بينما يقف عند التليفون ليتصل، يمكنه أن يرى نافذة المطبخ وعبرها سور الحديقة، والسماء الملونة بالرمادي والذهبي بسبب لون الغيوم ووهج الرماد.

سيكون غدًا يومًا جميلًا، لكنه لن يهتم بأمر الجو بعد الآن.

أجابت موظفة الاستعلامات وسألته عن أي خدمة طوارئ يريد، فقال «الشرطة» ثم أعطاها عنوانه ورقمه قائلًا:

- أريد تسليم نفسي. أنا الرجل الذي نشر تلك الفيديوهات الخاصة بـ»مشعل النيران». أريد تسليم نفسي.

ظل يتساءل لماذا يبدو مختلفًا وهو يتحدث. لماذا يتكلم مثل الأفلام؟

أخبروه أن يظل مكانه.

حاول أن يمزح وقال:

- بالتأكيد. سأحضر الشاي وأنتظر مجيئكم.

لكنهم لم يضحكوا.

حاولوا أن يبقوه على التليفون، فسألوه: «هل معك أحد؟ هل معك أسلحة؟ هل يوجد كلب في البيت؟»

أسئلة كثيرة. حاولوا إبقاءه على التليفون بأي طريقة، فهذه بمنزلة قيود مؤقتة. لو ظل «سامي» على التليفون يجيب على أسئلة الموظفة، لن يحصل على فرصة للتحدث مع ابنه. ظل يجيب على أسئلتهم. ولِمَ لا؟ فهو من اتصل ليسلم نفسه. من المهم أن يبدو متعاونًا. كلامه كله كان «نعم»، و"لا"، و"أنا لست واثقًا"، و"من الجيد أن المطر قد توقف، صحيح؟"، حتى سمع باب البيت ينفتح وينغلق، فعلم أن «مارك» قد عاد. قال:

- عليَّ الذهاب.

وأغلق بسرعة قبل أن تسأله الموظفة المزيد من الأسئلة.

أوقف الفتى في الصالة ووقف بينه وبين السلم، وقف على أول درجة في السلم، ولأول مرة منذ سنوات نظر لابنه وهو أعلى منه. لاحظ الصلع الذي بدأ يظهر في رأس «مارك»، فمد يده إلى صلعته هو تلقائيًّا. لقد غزا الصلع معظم رأسه. أنزل ذراعه، كان يود لو يضعها على كتف «مارك»، لكنه لا يملك حتى الطاقة لمنح الحنان. قال:

- لقد حللت الأمر يا بني. أخبرتهم أنني الفاعل. سيصدقونني، فتاريخي التخريبي يشهد بذلك. لم أدخل السجن من قبل. لقد استفدت من سياسة الإصلاح التي قاموا بها منذ سنوات. تعرف ذلك، صحيح؟

لم يقل «مارك» شيئًا، بل ظل واقفًا ويداه في جيبه ينظر إلى «سامي»، وكأنه يتحدث بلغةٍ أخرى ولا يريد أن يتعب نفسه في محاولة فهمها.

- الشرطة في الطريق يا "مارك". ستصل في أي لحظة. عليك أن تجاري الموقف، دعهم يظنون أنك لست متورطًا في هذا. الحياة أمامك يا بني، لديك الكثير من الوقت لتتغير وتبدأ من جديد. أرجوك. إن لم يكن من أجلي، فمن أجل والدتك.

نقل «مارك» وزنه من ساقٍ لأخرى، وأخرج يديه من جيبه لينظر إلى ساعته ببساطة وكأنه ينتظر موعد برنامج على التليفزيون.

واصل «سامي»:

- لا تخف من أن يُقبَض عليك. لا يوجد أي دليلٍ ضدك. لقد أحرقت كل شيء على الشواية، ونظفت غرفتك لكيلا يبقى أيّ دليل. سأقول إنني الفاعل يا «مارك». لا أمانع ذلك. أنا والدك. هذا ما ينبغي عليَّ فعله.

نظر «مارك» في عيني «سامي» مباشرةً. وجهه جامد وبارد وخالٍ من الدفء. من الصعب معرفة إذا كان يسمعه أصلًا، ثم قال أخيرًا:

- يا إلهي يا أبي. لم نعد في السبعينيات، لم يعد الناس يحرقون الأدلة خلف منازلهم. ستلقي الشرطة نظرةً واحدة على المكان وتعرف أنني الفاعل وليس أنت. لست ذكيًّا كفاية لفعل ما فعلته أنا. هل ظننت حقًّا أنك ستقف مضحيًا بنفسك كالمسيح وتتلقى اللوم؟ أنت أكثر حماقة مما ظننت.

دقت ساعة الصالة لتبلغ بالتوقيت. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة. عشر دقات رنانة، يخِف صوتها عندما تنتقل من آخر المنزل لأوله خلال الهواء الثقيل.

قال «سامي»:

- آسف.

خرجت الكلمة من فمه قبل أن يوقفها. كررها بصوتٍ أعلى:

- آسف.

اجتاحه الحزن والندم الشديدان، لكنه ليس آسفًا على «مارك». لن يعتذر له. إنه يشعر بالأسف على نفسه الآن، وعلى السنوات التي قضاها حاملًا شعوره بالذنب مثل جثة متعفنة، ويحاول إصلاح الأمور، ويُحَمِّل نفسه المسؤولية، وينظر إلى الولد فيرى انعكاسه القبيح. لا علاقة لـ«مارك» به. أدرك هذا الآن. لا قاعدة تجبر الولد على أن يشبه أباه. لا توجد بذرة فاسدة، ليس شرطًا أن يكبر الأبناء كآبائهم. «مارك» هو من جعل من نفسه وحشًا.

ابتعد «سامي» عن الولد وصعد درجة أخرى من السلم ليصبح أعلى منه. ها هو الهياج الدفين يتصاعد، والدماء الحارة تفور، والغضب الخالص الصافي. رفع قبضتيه؛ اليمنى ثم اليسرى. سحب ذراعه للوراء ثم دفعها بكل قوته إلى وجه ابنه. سمع فرقعة العظام واصطدام اللسان الرطب بالخد، ثم صوت سرينة الشرطة قادمة من بعيد تشق سكون الليل. واصل الضرب والركل واللكم حتى لم يعد يشعر بالدماء الساخنة تصرخ في عقله. تقطعت أنفاسه

لأنه لم يعد شابًّا كالماضي. بعدها انتهى هياجه ولم يعد يتذكر كيف اجتاحه أصلًا. تحطمت مفاصل يده وسالت عليها دماء ابنه.

ما زال «مارك» واقفًا، لكنه يترنح بشدة أمام «سامي» يسارًا ويمينًا ثم يسارًا مجددًا، مثل ملاكم مرَّ باثنتي عشرة جولة، ويحاول بصعوبةٍ أن يقف على قدميه. رأى «سامي» من خلفه عبر الزجاج الضبابي لباب المنزل أنوار سيارات الشرطة تعلن عن وصولها. لقد انتهى وقته مع ابنه. تقطعت أنفاس «مارك»، وخرجت حشرجة من حنجرته. أصبح لونه كلون ورقةٍ قذرة. تراخت رأسه وضعفت قدماه، وبالكاد أمسكه «سامي" قبل أن يصطدم بالأرض. نزلا على الأرض واستندا على المدفأة. أمسك «سامي» ابنه بذراعيه وعانقه بقوة، مثلما تُصَوِّر لوحات العصور الوسطى المسيح بعد إنزاله من على الصليب. لديه الكثير ليقوله له؛ أسئلة ملحة، واعتذارات نادمة، وكل الأشياء الذي كان سيغيرها لو كان يستطيع إعادة الزمن. لكن لا وقت لهذا. رجال الشرطة على الباب يصرخون في ميكروفون ويوقظون الجيران ويحيطون المنزل بالبنادق والكلاب.

لا وقت كفاية، لا فرصة لإصلاح الأمور، لا يمكن للكلمات أن تفيد.

نظر «سامي» إلى «مارك» فلم يستطع رؤية رجلٍ شرير، بل مجرد ولد صغير تائه ومحطم، شيءٌ آخر رفع عليه يده وخربه. وجه «مارك» ملطخ بالدماء التي تسيل على ذقنه وتتجمع في بقعٍ على قميصه. بحث «سامي» في جيوبه عن منديل. وجد واحدًا وبلله بلسانه ثم مسح وجه الفتى. مرت يده برفق على شفة «مارك» النازفة. تذكر هذه الحركة التي كررها كثيرًا منذ سنين كلما جرح أحد أولاده نفسه. كان يضع ضمادات على ركبهم، ويغسل وجوههم، ويبلل خصلات الشعر النافرة ليمشطها. تجيد يداه العمل في هذه المواقف الحرجة؛ فذراعاه قويتان كفاية لتتحمل. في هذه اللحظة، شعر بأنه أقرب ما يكون لابنه منذ سنين طويلة. إنه يعرفه تمامًا. يحفظه بدايةً من جلده حتى قلبه الشيطاني، لكن هذا الشعور ليس حبًّا، بل شيئًا أكثر عمقًا. فهمه لـ«مارك» تعني أنه يفهم الشر الكامن في عقله هو. سيفعل أي شيء ليُبقي «مارك» هنا آمنًا ومطيعًا بين ذراعيه. بالقرب جدًّا منه، مثل طفلٍ رضيع.

ظل «سامي» يعانق ابنه حتى اقتحمت الشرطة البيت وسحبت «مارك» فاقد الوعي إلى الشارع. انخلع حذاؤه بينما يجرونه على العشب. ترك كعباه أثرًا بين الأزهار. شاهدهم «سامي» من على عتبة الباب برعب. لا يمكنه أن يستدير. لكن أيضًا لا يتحمل رؤية رجال غرباء يجرون ابنه بطريقةٍ خاطئة. إنهم حتى لا يهتمون لوجهه المصاب وهو يحتك بالأرض. إنه واثقٌ تمامًا من أنه سيظل يشعر بالألم على «مارك» لسنواتٍ قادمة. سيظل يحمل هذا الهم في دمه وعظامه. هذا معنى أن يكون أبًا، ولا يمكنه أن يتخلص من هذه الصفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

19

جرح

إنه يوم عملية «صوفي»، علمت على التاريخ في نتيجة المطبخ، وضعت علامة «x” صغيرة بجانب اليوم الذي اخترته، آخر جمعة من الشهر. لا أستطيع المخاطرة بكتابة كلمة «عملية»، فهي واضحة جدًّا، بالإضافة إلى أن «كريستين» قد تراها وتسأل. لن تكون لديَّ إجابة مقنعة أو عذر مقبول. من الصعب تفادى السؤال بتمتمة بسيطة أو تغيير الموضوع حين تكون كل محادثة مكتوبة وموثقة.

مررت بالنتيجة خمس أو ست مرات في اليوم طوال أسبوع. كلما لمحت عيناي علامة «x”، تذكرت شكل الأسلاك الشائكة. شعرت بالألم كلما رأيتها. أخيرًا أخذت قلمًا سميكًا وغيرتها من «x” لنجمة صغيرة، فهي أقل إثارة للخوف، ولا توحي بالتخلص من شيءٍ ثمين. ما زلت أعرف ما الذي تعنيه العلامة. ما زالت عيناي تنتبه لها كلما دخلت المطبخ لأملأ الغلاية أو أفرغ غسالة الأطباق، لكن لا أستطيع أن أرمي النتيجة أو أضعها في الدرج مؤقتًا. أحتاج تلك النجمة الصغيرة لتلمع وتظهر بوضوح من بين الملاحظات الأخرى الخاصة بفواتير الكهرباء وشراء البقالة، لكي أظل منتبهًا ليوم الجمعة. آخر جمعة في الصيف. نهاية مرحلة وبداية أخرى.

طلبت بضعة أيام إجازة. أخبرت «مارتي» أنني أريد الاستفادة بقدر المستطاع من إجازة البنوك المتزامنة مع نهاية هذا الأسبوع. وقلت له:

- أريد قضاء بعض الوقت مع ابنتي. إنها تكبر بسرعة، وأشعر أنني أفوت كل لحظاتها المهمة.

تفهم باقي الأطباء موقفي؛ فلديهم أطفال. يعرفون كيف يطير الوقت بسرعة. يبدأ الأطفال خطواتهم المتعثرة، ثم تنمو أسنانهم بعدها يدخلون المدرسة. وفجأة توصلهم إلى الجامعة دون أن تتذكر ما حدث بين هذا وذاك.

قالوا لي:

- أنت محق يا “جوناثان”، استمتع بكل لحظةٍ معها وهي صغيرة.

إنهم سعداء لأنني أصبحت أكثر ليونة في التعامل منذ جاءت «صوفي». صرت أضحك بسهولة. وآخذ وقتي مع المرضى. وأحيانًا أسأل الآخرين كيف كانت إجازتهم. عندما أقول كلمة «ابنتي»، أشعر ببعض الحرج في صوتي. مثلما يشعر رجل متدين وهو يقول كلمة «الرب».

موظفات الاستقبال في قمة النشاط هذا اليوم. حماسهن يفيض في المكان. في هذه الظهيرة بالذات، كان أمامهن القليل من الوقت قبل بداية إجازة طويلة ستبدأ مع الإجازة الأسبوعية. أخذت أصواتهن ترتفع بينما يقترب العقرب من الساعة الخامسة.

حاصرنني في غرفة الأطباء بأكواب القهوة وأظفارهن الصناعية، وسألنني:

- كيف حال الطفلة؟

- هل نمت لها أسنان؟

- هل لديكما خطة لقضاء الإجازة؟

أجبت:

- نعم، لدينا.

لكن لم أوضح لهن. من الأفضل أن تقول القليل حين تكذب. ابتسمت لموظفات الاستقبال، وحرصت على ألا أركز نظري على واحدة معينة. فهن شرسات جدًّا إذا أخطأن الفهم وشعرن بالتمييز. قلت:

- استمتعن بالإجازة يا سيدات. لا تتهورن.

ثم مررت من أمام مكتب الاستقبال وذهبت إلى الجراج وركبت سيارتي الآمنة. أغلقت الباب خلفي بالقفل. «كليك.. كلانك». لم يحل الظلام بعد. شعرت بالحاجة لوضع جدارٍ بيني وبين أي شيء قد يتدخل في خطتي؛ لصوص، سيارات، مرضى، مجانين، موظفات استقبال يطرقن على النافذة بتهذيبٍ على أمل الحصول على توصيلة إلى الجانب الآخر من المنطقة الشرقية. تبًّا لهم جميعًا. الليلة سأغلق بابي في وجه الجميع. الليلة لن يقف شيءٌ بيني وبين «صوفي».

وضعت في حقيبتي الطبية مخدرًا، ومعقمًا، وإبرًا، ومضادات حيوية في حال أصيبت الطفلة بالتهاب. أخذت أيضًا صورة «صوفي» من على مكتبي. فلو سارت الأمور على نحو خاطئ، لن آتي إلى المستشفى وأظلمها بوجودي مجددًا. ولا أريد أن تظل الصورة هنا بدوني، فمصيرها سيكون سلة القمامة مع الأقلام التي تركتها خلفي. لا أعرف بالضبط ماذا يعني شطب اسم طبيب من لائحة الأطباء، ولا أريد أن أسأل «مارتي» لكيلا أثير الريبة. لكنني أظنه مثل الحرمان من ممارسة المهنة. لديَّ بعض الأسئلة. ماذا لو صادفت حادثة؟ هل سيظل مسموحًا لي تقديم الإسعافات الأولية للمصابين؟ هل سيظل مسموحًا لي بأن أعطي «صوفي» «باراسيتامول» لخفض الحرارة أو دواء للسعال لو مرضت؟ ماذا لو جرحت ركبتها؟ هل يمكن أن أضع عليها ضمادة؟

أعلم أن شطب اسمي احتمالٌ كبير. وربما سأتعرض للسجن، أو حتى الإعدام دون محاكمة لو علم الجيش الثوري بأمري؛ فرجال الشرق لا يرحمون الكبار الذي يؤذون الصغار. ولا يمكنني إخبارهم بسبب فعلتي. معظم الناس العاديين لن يتفهموا سبب قطع رجل للسان طفلته، لكن معظم الناس ليس لديهم طفلة كـ»صوفي». وحتى أهالي «الأطفال المنحوسين» أو «الأطفال المنحوسون» الكبار بما يكفي ليقولوا رأيهم، إنهم يقدرون سِريتهم بما يكفي لكيلا يعلنوا عن أنفسهم ويدافعوا عني. أعلم أنني سأكون وحدي لو ساءت الأمور الليلة. وحتى لو سارت على ما يرام، فيجب أن أفكر في سلسلة محكمة من الأكاذيب لكيلا ينكشف أمري. فكرت في هذا بالفعل. على الأرجح سنضطر للانتقال حيث لا يعرفنا أحد، فيظن الناس أنها وِلدت بعيبٍ خلقي.

ألقيت نظرة طويلة أخيرة على واجهة المستشفى قبل أن أخرج من الجراج. عقلي بارد وهادئ مثل المياه المعدنية. عدت لطبيعتي القديمة، لا أهتم إن لم أرَ «مارتي» أو موظفات الاستقبال بابتساماتهن السعيدة مجددًا. لا أهتم إن رموا أصيص نباتي في القمامة، أو نقلوا مكتبي لطبيبٍ آخر حديث التخرج. لست مهتمًّا حتى بخسارة مرضاي. لكن الأمر يختلف بخصوص كوب «جارفيلد»، فأنا متعلقٌ بهذا الكوب فعلًا، لهذا سرقته من غرفة الأطباء. إنها جريمتي الأولى هذا المساء، يبدو أنني أتدرب على ما هو قادم. اختبرت ضميري بخصوص سرقة الكوب، ووجدت أنني لا أشعر بذرة من الندم، على الرغم من أنه ملك «مارتي» أصلًا. لكن الأمر مختلف مع “صوفي”. كلما تخيلت أنني سأجرحها بالمشرط ثم أخيطها بالإبر، ينتابني الهَم. ألقيت حقيبتي الطبية على المقعد الخلفي حيث لا أراها فأحزن أكثر مما أنا بالفعل.

في طريقي إلى المنزل، توقفت عند سوبر ماركت «تيسكو» في «كونزووتر». اشتريت بيتزا لذيذة وزجاجة نبيذ. «كريستين» ستكون هناك عندما أعود، ولا أريد أن أثير ريبتها. دائمًا أتناول بيتزا ليلة الجمعة، أو رقائق بطاطس أشتريها من الكشك الذي على طريق «نيوتاوناردز». إنه طعام خفيف لإجازة الأسبوع. هذا ما يأكله كل سكان شرق بلفاست تقريبًا ليلة الجمعة. أحب الانتظار في الطابور بجانب باقي المتسوقين، أحمل زجاجة النبيذ والبيتزا بفخر وأضع خبز الثوم تحت ذراعي مثل مظلةٍ ملفوفة، بينما أنتظر «الكاشير» الآلي أن يفرغ. والأفضل عندما أكون حاملًا حفاضات «صوفي» أو اللبن البودرة. عندها أكون أقرب ما يمكن إلى الحياة الطبيعية. وكأنني جاسوس استطاع الاندماج مع الناس العاديين دون أن يلاحظوني. لم أحصل على فرصةٍ للتحدث مع أيٍ من المتسوقين بعد، لكنني تدربت على هذا كثيرًا في عقلي. “المطر يهطل بغزارة”، “حمدًا للرب أنه يوم الجمعة»، «لقد أبقتني ابنتي مستيقظًا طوال المساء». حديثي عن «صوفي» يبدو سلسًا وتلقائيًّا. أشعر أنني أتحدث لغة الناس نفسها عندما أتكلم عنها.

لا أنوي أن أتناول لقمة من هذه البيتزا الليلة، لكن ها أنا ذا أقف في ممر البيتزا محتارًا بين طعم جبن الماعز أو الموتزاريلا. حملت واحدة في كل يد، وشعرت بالعلبة الكرتون وهي تضعف تحت ثقل عجينة البيتزا المجمدة سريعة التحضير. أحسست بدوارٍ خفيف. أي بيتزا أشتري؟ بدأت رقبتي تعرق، لم يحدث لي هذا من شهور. أنا على وشك الإصابة بنوبة ذعرٍ عنيفة. إنه قرار يساوي أربعة جنيهات وتسعة وسبعين قرشًا، لكنني أعرف أنه لو لم أختر بيتزا واحدة منهما فسأعلق في الحيرة نفسها بين نبيذ «ميرلوت» و»شيراز»، ثم سأحتار في اختيار أي جانب سأركن فيه سيارتي عند المنزل. وعندما تنتهي حيرة الأمور البسيطة، فسأواجه القرار الأكبر، وهو قطع لسان «صوفي» أم لا، وما الطول الذي سأقطعه.

قلت لنفسي أن أتنفس، وحاولت أن أركز على النبض الذي أشعر به في أذنيَّ. تنفس، تنفس. تركت أصابعي آثارًا على علبة البيتزا التي كنت أمسكها بشدة. سأضع العلبة المهترئة التي لن أشتريها في مؤخرة ثلاجة السوبر ماركت لكيلا يلاحظها أحد. أريد أن أقذف البيتزا اللعينة مثل الطبق الطائر حتى نهاية الممر عند قسم الفواكه، لكنني لن أفعل. بذلت مجهودًا لأمنع لساني من الارتجاف، واستدرت إلى موظفة «تيسكو» التي ترتب علب الصلصة الإيطالية في الثلاجة المجاورة، وسألتها:

- أي بيتزا ترجحين؟

- بيتزا "شوريزو" بالسجق.

صنعت شكل دائرة بفمها وهي تنطق حرف الواو الذي في المنتصف، فبدا شكله مثل العين. التوتر يحطم أعصابي ويعبث بعقلي. لقد تخيلت أن البيتزا بها عين وسط الموتزاريلا وتغمز إليَّ. انتهت نوبة الفزع، وتركتني خجلًا من نفسي؛ أيُّ نوع من الرجال البالغين لا يمكنه أن يقرر نوع البيتزا التي سيشتريها؟ المهم أنني هدأت قليلًا. اختيار النبيذ كان أسهل بكثير. عدت إلى البيت بدون مشكلات. لم أضطر حتى لاختيار الجانب الذي سأركن فيه لأن سيارة "كريستين" كانت تحتل الجانب الأقرب للباب بالفعل. عندما وصلت إلى عتبة الباب، كانت النوبة قد زالت تمامًا ولم أعد أتعرق.

فتحت «كريستين» الباب قبل أن أخرج مفاتيحي. كانت تحمل «صوفي» على الجانب الأيسر من خصرها، وتمسك زجاجة حليب في يدها اليمنى. ابتسمت. يداها مشغولتان لذلك لم تستطع أن تشير لي بعلامة «مرحبًا". ناولتني الطفلة، حملتها بصعوبة لأنني كنت أحمل حقيبتي الطبية ومعطفي وكيس «تيسكو» وضعت فيه البقالة كلها بإهمال. وللتسهيل، وضعت زجاجة النبيذ في جيب سترتي. برزت ومالت من السترة وكأنها رجُل يستعد للقفز من نافذة

فندق لينتحر. شعرت بوزنها يكتسب قوة وكأنها على وشك السقوط. حسنًا، سأعدُّ "صوفي" شيئًا آخر عليَّ حمله. لا أعرف كيف استطعت أن أحملها بذراعيَّ، ثنيت ذراعي وثبتها بمرفقي وكأنه مرساة.

كل ما حدث خلال اليوم كان تمهيدًا لهذه اللحظة، لحظة لقاء ابنتي الصغيرة في المساء. تفوح منها رائحة اللبن وبول الأطفال وعطر «كالفين كلين»، لأن «كريستين» ظلت تحملها طوال اليوم. تركت الحقائب والأكياس على الأرض، ورفعت ابنتي إلى وجهي وقبلت شعرها الداكن وظهر يدها وخدها بالقرب من فمها. إنها تعشق الحليب، ما زال فمها يتحرك وكأنها تمص زجاجة حليب وهمية.

نظرت إلى شفتيها، إلى لونهما الوردي واستدارتهما وهي تتثاءب، وإلى الثنيات الموجودة في شفتيها بانتظار أن يتمدد الجلد. لمست شفتيها بطرف إصبعي الصغير. تذكرت ذلك الرجل من الإنجيل، العهد القديم على الأرجح. لقد أحرق ملاك شفتيه بفحم مشتعل. العبرة من القصة هو اكتساب القداسة، أو ربما عدم التحدث كثيرًا أمام الرب، وربما مزيج من الاثنين. لمست شفتي "صوفي» مجددًا، وتساءلت كيف يمكن لشيءٍ بهذا الصغر، لا يزيد على حجم صَدفة صغيرة، أن يسبب هذا الخراب؟

عادت «كريستين» ومعها مفكرة ثم أمالت رأسها نحو المطبخ، وكأنها تقول: «اتبعني». استندنا على مائدة الطعام بينما تكتب لي تفاصيل اليوم. كان يومًا عاديًّا؛ وجبات منتظمة، فترات نوم منتظمة، لا يوجد ما يُقلِق بخصوص فضلاتها في الحفاضات. رسمت وجهًا مبتسمًا صغيرًا بيدي اليسرى. لكنه بدا مثل شخصٍ مصاب بسكتةٍ دماغية، فالابتسامة بدت أشبه بتجعيدة. نقلت «صوفي» إلى يدي اليسرى لأكتب باليمنى.

"هل من شيءٍ آخر؟"

كتبت «كريستين»:

"هل علمت أنهم أمسكوا بـ»مشعل النيران»؟ أعلنوا هذا في أخبار الظهيرة»

كتبت:

"لا"

لقد كنت مشغولًا جدًّا بأمر «صوفي» اليوم، فلم أتابع الأخبار ولم أستمع لمناقشات الموظفين المعتادة. كتبت لها:

"من هو؟"

تذكرت فجأة «سامي» بملابسه الرياضية غير المتطابقة، وهو يميل على مكتبي ويعجز عن كبح حزنه.

“شاب صغير اسمه مارك آآ...”

“أجنيو؟”

“نعم، أجنيو! هذا هو اسمه. كيف عرفت؟”

فكرت بسرعة، الكذب يأتي لي بسهولة هذه الأيام، ثم كتبت:

“لا بد أنني سمعته في الراديو دون أن أدرك”

كتبت «كريستين»:

“هذا يحدث لي دائمًا، لكن مع التليفزيون”

وبدأت تكتب أنها دائمًا تترك التليفزيون على الأخبار المكتوبة، ثم تكتشف أنها تعرف أشياء لم تكن تعرف أنها تعرفها! مثل أن «أنجيلا ميركل» هي مستشارة ألمانيا، وكل القصور التي تملكها الملكة، ومعلومات أخرى لا تهمها أصلًا. عندما تكون في الخارج مع صديقاتها وتشترك في إحدى مسابقات الأسئلة العامة الموجودة في المقاهي، تأتي إجابات الأسئلة إليها تلقائيًّا.

“وكأن المعلومات تتسرب إلى عقلي مباشرةً من التليفزيون”

لا أستطيع التركيز على ما تكتبه. فأنا شاردٌ عنها بالتفكير في «سامي». هل استطاع النوم ليلة أمس؟ هل انزاح الحمل من على كاهله بمجرد أن اتخذ الخطوة الأصعب؟ هل ما زال يشعر بالمسؤولية تجاه ما حدث لابنه؟

كتبت لها:

“عليكِ أن تذهبي الآن”

من الصعب أن تتفادى الكلام المباشر الصريح عندما تتكلم بالكتابة، لكن لن تشعر «كريستين» بالإهانة. فنحن نلخص محادثاتنا دائمًا بأبسط الكلمات. ومن باب الاحتياط، رسمت وجهًا مبتسمًا لأريها أنني استمتعت بكلامها. رفعت لي إبهامها بتحية وقبلت جبهة «صوفي». أتساءل إن كانت لحظات المطبخ البسيطة هذه ستتكرر مجددًا. بدأت أتحرك في المطبخ بسرعة؛ أرتب البقالة، وأضع حقيبتي على الطاولة، وأجهز زجاجات حليب «صوفي» من أجل تعقيمها. أحاول أن أبقي نفسي مشغولًا لكيلا يجد الحزن فرصة ليغرز أنيابه فيَّ. عدت للمفكرة وكتبت:

“سأسافر الأسبوع القادم، لذلك لن نحتاجكِ”

رسمت «كريستين» وجهًا حزينًا.

كتبت لها:

“ما زلت سأدفع لكِ”

فابتسمت بوجهها الحقيقي ثم كتبت:

“لم أقصد المال، بل سأفتقد صوفي»

وصلت محادثتنا لنهاية الصفحة. ترددت قليلًا ثم مزقت الصفحة ورميتها، ثم بدأت في صفحةٍ جديدة. لو كنت أخوض هذه المحادثة بالكلام لقلت: «اسمعي يا «كريستين». لا أعرف كيف أشرح ذلك، فالأمر معقد، لكن من المحتمل أن تمرض «صوفي» لفترة، وسأضطر لرعايتها بنفسي. لحسن الحظ أنني طبيب. لا تقلقي. وبالطبع سأحرص على تعويضكِ تمامًا في الفترة التي سنستغني فيها عن خدماتكِ. لا أستطيع إخبارك أكثر من هذا. لقد كنتِ خير عونٍ لنا. لا، لم تكوني مجرد عون، بل كنتِ صديقة لي ولـ»صوفي»، ونحن نقدر مجهودكِ ودعمكِ. للأسف لا يمكنني إخبارك بمدة زمنية محددة لأنني لا أعرف، قد يكون أسبوعًا أو ستة أشهر. هذا يعتمد على «صوفي». أتمنى أن تفهميني وتعودي لرعايتها بمجرد تعافيها، لكنني سأتفهم لو فضلتِ البحث عن عملٍ آخر”.

لو بكت أو لاحظتُ أنها على وشك البكاء، فعلى الأرجح سأعانقها عناقًا أبويًّا. سأتجنب ملامسة صدرها، وسأنهي العناق أولًا لكيلا تظن أنني أستمتع به كثيرًا. لكن لا يمكنني التحدث مع «كريستين». أنا جبان، لهذا لم أذكر أي مرض ولم أغيِّر الخطة الأصلية. بل كتبت لها:

“أراكِ يوم الإثنين”

على الرغم من علمي بأن هذا لن يحدث على الأرجح.

كتبت لي:

“لا مشكلة”

ثم أخذت معطفها من على الدرابزين، وحملت كتبها وحقيبتها وخرجت قبل أن ألمِّح لها بأي شيء. شعرت أنني سرقت منها شيئًا ما.

حملت «صوفي» للنافذة الأمامية، ولوحت بيدي بقوة حتى انتبهت لي. فصنعت بيدي إشارة وداعًا، ثم صنعت إشارة أحرف اسمها. تعلمت هذا من الإنترنت. كنت أدخره لمناسبةٍ خاصة، مثل عيد ميلاد أو شجار. لكنني أستخدمه الآن للتعويض. قد لا ترانا «كريستين» مرة أخرى، لكن أليس رائعًا

أنني تعلمت عمل إشارة اسمها بنفسي؟ ابتسمت عبر نافذة سيارتها، ورأيتها عبر نافذة بيتي. قامت بإشارة «وداعًا، صوفي. وداعًا جوناثان». شعرت بالحاجة إلى الجلوس بسرعة. لم يصبني الدوار، بل الحزن. شعرت بثقلٍ على صدري، إنه ثقل حياتي التي أخيرًا أصبحت جميلة، ثم خربت فجأة.

وضعت «صوفي» على الطرف البعيد من الأريكة، ووضعت بجانبها بطانية مطوية لتسندها. نظرت إليَّ مباشرةً، ثم أدارت وجهها الصغير البدين لتنظر خلفي. ركزت عينيها على شيءٍ خلف المصباح بالضبط. استدرت لأرى. لا يوجد ما يثير هناك. إنه فقط شعار «أيكيا» مطبوع على الأريكة. رفعت كتفيَّ وفردت يديَّ بحيرة، بينما تسألها تعابير وجهي: «إلام تنظرين؟»، لكن لم أنطق سؤالي بالكلمات. لم ترد «صوفي»، إنها لا ترد أبدًا.

ليست المرة الأولى التي ألمحها تنظر بانتباهٍ لشيءٍ لا أراه. أتساءل إن كان هذا طبيعيًّا بالنسبة للأطفال، ربما عيونهم الشاردة التي لم تتعلم التركيز بعد تكون أكثر حساسية لموجات الضوء والظلال، أو ربما «صوفي» ليست طبيعية. قد تظل دومًا حساسة تجاه الخوارق غير المرئية، مثل الأشباح والرؤى والنبوءات. لا أحتمل المجهول، لا أحتمل التساؤل. هذا ما جعلني أراقب نمو «صوفي» باستمرار بحثًا عن علامات أو أدلة:

اليوم بكت في الحمام لأنها انزعجت من سكب الماء على رأسها لغسل الشامبو. هذه نقطةٌ جيدة، نقطة لصالح الجانب البشري.

اليوم نما شعرها ضعف ما كان بالأمس، ونزل على ظهرها مثل شلال أسود طويل. بدا مثل ذيل أكثر منه شعر، مثل شيء خرج من حكايةٍ خيالية. هذا ليس جيدًا أبدًا.

اليوم لديها شهية شرهة للسوائل لم أجدها في أي طفلٍ عالجته، هذه تبدو مشكلة. من المفترض أن ترغب في اللبن وليس الماء. حتى أصغر تلميذ يعرف أن صغار الثدييات تشرب اللبن، على عكس الكائنات البحرية، باستثناء الحوت بالطبع، لكنني لن أستثنيه.

اليوم كانت تشبه أمي حين تكون مضطربة. نقطة لصالح الجانب البشري، لكن بشكلٍ مؤسف.

لم أعد أحتمل. ليس الانتظار هو ما يرهقني. فأنا انتظرت طوال حياتي لأن يحدث شيءٌ لا أعرفه. لن يضرني الانتظار سنة أو سنتين. المشاهدة هي ما لا أحتملها.

حملت «صوفي» إلى المطبخ ورفعتها أمام النتيجة. أشرت إلى النجمة الصغيرة المرسومة في المربع لتحدد يوم الجمعة التاسع والعشرين من

أغسطس. أعلم أنها لا تفهم معناها. بدت الخطة حاسمة، وكأنها عرض معي تذاكره وأنتظر دخوله، لكنني لن أنفذ شيئًا إلا بعد حلول الظلام. ليس رغبةً في تأجيل الخطة، بل لأنني شعرت بالعار. لم أستطع تخيل نفسي أؤذيها في وضح النهار. لكن في الظلام والستائر مسدلة، سيكون القطع والخياطة والفوضى الدامية مناسبة أكثر للأجواء المظلمة. سأتخيل أنني أفعل هذا لشخصٍ آخر في الظلام.

أريد أن أشرب بعض الويسكي لأهدأ وأطرد الخوف، لكن لا يمكنني أن أشرب ويسكي. يجب أن تكون يدي ثابتة كالحديد وعضلاتي مشدودة هذه الليلة. شغلت الغلاية وأعددت لنفسي بعض الشاي في كوب «جارفيلد» الذي سرقته، وانتظرت حلول الظلام. ساورني الخوف بقوة، هاجمتني مخاوف قديمة وجديدة وسببت لي ألمًا عنيفًا. تلاحقت أنفاسي وسال عرقي، شعرت بالغثيان، خفت من الفشل ومن النجاح، خفت من إفساد شيءٍ طيب وسليم، خفت من الناس ومن قلة الناس، خفت من التسرع في القطع أو التعمق أكثر من اللازم أو من عدم التعمق كفاية، وخوفي الأشد هو خسارة ابنتي الصغيرة.

حلمت بوالدة «صوفي» ليلة أمس. لم أرَ هذا الحلم منذ شهور، ظننتني انتهيت منه. ما زلت لست واثقًا إذا كانت حلمًا أم لا، لكن فكرة وجودها في البيت مجددًا مرعبة. إن كانت قادرة على القدوم والذهاب عبر الأبواب المغلقة، والزجاج العازل كما يحلو لها، من خلال مواسير المياه كما أظن، فستكون أيضًا قادرة على خطف «صوفي». ليس لديَّ طاقة للتعامل مع هذا الاحتمال الليلة. فكل انتباهي مركز على القطع أولًا والتنظيف لاحقًا. اخترت أن أسميه حلمًا الآن. بعد العملية ستصير «صوفي» ابنتي مائة بالمائة. أمها وقومها لن يرغبوا في طفلة بلا لسان. هذا لصالحها، هكذا أخبرت نفسي وأضفت ذلك العذر لقائمة أعذاري الصغيرة.

حاولت إبعاد تفكيري عن الحلم، لكنه رفض أن يتركني. لقد بدأ الحلم بمكالمة وبصوتها المألوف يقول: «أنا أحتضر، يجب أن تأتي وتنقذني».

نمت رغبة بداخلي وعجزت عن التصرف بمنطقية، سمعت نفسي أقول: «أنا في الطريق. أين أنتِ؟»، ضحكت بصوتها الرنان الذي يشبه تلامس كريستالات نجفة بدلًا من صوت البشر العادي، وقالت: «لا تحتاج اتجاهات. اتبع مجرى النهر».

بعدها ركبت سيارتي، أم كان قاربًا؟ الشكل ليس واضحًا وكأنه مصنوع من السحاب أو الضباب. وجدت نفسي في نهر «لاجان»، أقود أو أسبح أو أطير إليها.

لم أستطع تفريق صوتها عن صخب المدينة؛ سرينات النجدة، الضوضاء، محركات السيارات على الطريق الدائري. كل هذه الأصوات اندمجت في تشويش واحد، أتساءل إن كان هذا صوت غنائها. اتبعت نهر «لاجان»، وجدت بلفاست تشتعل على ضفتيه القذرتين؛ ألسنة لهبٍ طويلة تلمس عنان السماء، ينعكس هذا الجحيم الأحمر على الناس فيبدون كالظلال، يقفزون من على جسر «ألبرت» إلى النهر، بينما يغطون وجوههم بأيديهم. الحرارة لا تحتمل، وكذلك صوت بكاء الناس. إنه جحيم من نوع خاص، وهي تقع في وسطه تمامًا. تجلس عارية على ضفة النهر بجسدها الشاحب. يا لها من حورية جريئة! شعرها منسدل بحرية على ظهرها.

قالت لي بنبرة تخلو تمامًا من الخجل: "أنا فعلت كل هذا، رفعت صوتي وخربت كل شيء». نفسي التي في الحلم عرفت أنها لا تكذب، شعرت بمزيجٍ من الخوف والرغبة مثل أول مرة رأيتها، وكأن هناك عقدة تنقبض وترتخي في صدري. راودني هذا الشعور في كل ثانية قضيتها معها. شعرت بثقل وجودها وانعدام وجودي. أكرهها كما لم أكره إنسانًا أو مخلوقًا من قبل، ومع ذلك جلست بجانبها وسط الوحل. مذاق فمها كالماء المالح، لكنه مختلط برائحة نفاذة تشبه رائحة الجثث في ثالث أو رابع يوم من الوفاة.

سألتها: «ماذا تريدينني أن أفعل؟»، تمنيت ألا تجيب لأنني لن أكون قادرًا على منع نفسي، سأفعل أمورًا بشعة لو طلبت مني، أفقد السيطرة على نفسي حين تتكلم.

قبلتني بعمق فاستيقظت مفزوعًا وذهبت لأتقيأ. أصدرت جلبة كبيرة بينما أجري في الممر إلى الحمام. رفعت غطاء الحمام وأفرغت ما في جوفي. تقيأت قطعًا من الجزر والبطاطس المسلوقة، نزلت كلها في الحمام وسبحت بين بولي الذي لم يتدفق مع الماء بعد. لم أشعل الضوء خوفًا من ألا أستطيع العودة إلى النوم. تمضمضت بماءٍ بارد وبصقت. مسحت العرق عن وجهي واستدرت لأخرج من الحمام.

عندها لاحظت أن البانيو امتلأ عن آخره بالماء وفاض. رأيت شعرها الأسود يسبح في الماء، كانت ملامحها مشوشة وكأنني أراها من وراء حجاب. تراجعت بحدة فاصطدمت قدمي بالمدفأة. لم أنزف، لكن جرحت جزءًا من جلدي. جلسَت فجأة والماء يندفع على رأسها وصدرها، ويقطر على سجادة وأرضية الحمام. حتى زجاجات الشامبو تفاجأت من ظهورها وسقطت في البانيو.

سألتها وأنا أجد صعوبة في مقاومة رغبتي في الانضمام إليها في البانيو:

- ماذا تريدين؟

- ليس أنت بالتأكيد.

نظرت إليها بتمعن وكأنها تشتري سيارة مستعملة، شعرت بالإهانة والرغبة في الوقت نفسه.

قالت:

- أردت الاستحمام.

- ها قد حققتِ أمنيتكِ. والآن غادري منزلي.

- لقد تركت شيئًا. هل احتفظت به من أجلي؟

سألتها محاولًا المماطلة:

- هل تعنين ملابسكِ؟ لم يكن معكِ شيء غير الملابس التي كنتِ ترتدينها.

- ربما، من الصعب أن أتذكر التفاصيل حين أكون دائمًا على وشك الموت. لكنني أشعر أنني تركت شيئًا آخر هنا. شيء أهم بكثير.

- لا. أنتِ مخطئة.

استجمعت كل قواي العقلية للتركيز على الكذب عليها. اشتعل دمي وصعد إلى وجهي. بالكاد تمالكت نفسي. فكرت في «صوفي»، وكيف أنها أصبحت لي الآن للأبد. سنقضي معًا أعياد الميلاد، ونذهب إلى الشاطئ في الإجازات. وحتى الأيام العادية سنعيشها معًا. سنذهب في مشاوير إلى السوبر ماركت، ونكتب الواجبات المدرسية معًا. سأداويها في نزلات البرد، وأتحمل نوبات عصبيتها. لم أعد أتخيل حياتي بدونها. فكرت في «صوفي» كدرعٍ يحميني منها وكإلهاءٍ يشتت ذهني عنها. شعرت بها تحاول السيطرة عليَّ باستماتة. أصبحت تائهًا بين الخطأ والصواب كأنني في حرب.

قالت:

- إنها ليست لك لتحتفظ بها. إنها واحدة منا.

قلت بارتجافةٍ بسيطة في صوتي:

- لا، إنها ليست مثلكِ. إنها فقط طفلة صغيرة بريئة خالية من الشرور.

- انتظر حتى تبدأ بالكلام. سيمكنها تدمير أي رجلٍ في هذه المدينة لو أرادت.

- أنتِ مخطئة.

قلتها لكن بدون أي ثقة أو إقناع.

استدرت بعيدًا عن البانيو وأبعدت نظري وغطيت أذنيَّ. إنها مجرد شيء شرير. حورية.. وحش. لم أعد أعتبرها والدة «صوفي». إنها مجرد كائن غريب. إنها ليست مثل ابنتي الصغيرة. ومع ذلك لا أستطيع الثقة بنفسي في وجودها. ليس إن نهضت من البانيو وهي عارية. ليس إن وقفت أمامي ببشرتها البيضاء المبتلة. ليس إن غنت، لست قويًّا كفاية لمقاومتها. لا رجل يمكنه.

أجبرت نفسي على الابتعاد، قدماي ثقيلتان جدًّا. ما زلت أشعر بجذبها لي عبر عظامي. إنها تشدني، تسحبني، تثني إرادتي. أشعر بجسدي ينقسم نصفين، لكنني واصلت المقاومة. خرجت من الحمام إلى الصالة ومررت بغرفة «صوفي» حيث تنام بهدوءٍ على ظهرها. عندما استدرت إلى الحمام وجدته خاليًا. لقد تركتني مجددًا. تنفست بارتياح ثم زفرت بقوة.

قلت لنفسي إن كل هذا كان جزءًا من الحلم، وعدت إلى السرير. لم أستغرق في النوم إلا قبل الفجر بقليل، واستيقظت في الخامسة والنصف على صوت «صوفي» في الغرفة المجاورة. ما زال موكيت الحمام رطبًا، لكن هكذا يكون موكيت الحمام عادةً، إلا إذا علقته على المدفأة. زجاجات الشامبو مرصوصة على حافة البانيو، لكن ربما هي من أعادتها لمكانها حتى تربكني. أخذت أشمُّ في الحمام بحثًا عن رائحة مالحة. شممتها على المناشف، أو ربما أنفي يخدعني. فكرت في أن أتأكد من جرح كاحلي لكن لم أفعل. من الأفضل أن أصدق بأن كل هذا مجرد خيال، خاصةً اليوم. كل جزءٍ في جسدي يرغب في الهروب.

حل الظلام. نهضت وأغلقت الستائر. ارتديت بالفعل قميصًا أبيض نظيفًا، وبنطالًا رياضيًّا أخذته من الغسيل النظيف مباشرةً. تفوح مني رائحة المنظفات، ومن تحتها رائحة العرق. فصلت التليفون الأرضي، وضبطت التليفون المحمول على وضع الصامت. شعرت أنني في فيلم إثارة، والعصابات والشرطة يحيطون بي. إنه شعورٌ لطيف، لأنه يخرجني من الواقع إلى عالمٍ خيالي يمكنني فيه الإمساك بالمشرط وقطع لسان ابنتي، ثم إراحة ضميري بقول إن كل هذا مجرد خيال، بما فيه الألم.

جمعت عدتي الطبية من الأماكن التي خبأتها فيها في المنزل؛ ضمادات، مخدر، مشارط، إبر معقمة، خيوط جراحة، وكمامة طبية لمنع أنفاس الطبيب عن المريض، وغطاء رأس طبي ليبعد شعري. وضعت كل الأغراض على طاولة في الغرفة الإضافية. أخرجت كل شيء من كيسه البلاستيكي، ووضعته في طبق معدني عميق. اشتريت علبة بلاستيكية جديدة من أجل لسان «صوفي». أصغر حجم وجدته في «تيسكو». مكتوب على العبوة إنها تستخدم لتخزين التوابل، أو كمية صغيرة من الفواكه المجففة، أو البهارات. لهذا هي

مناسبة تمامًا لتحمل لسان طفل. بعد ذلك، أخطط لرميها في البحر. أرى هذا الفعل مناسبًا إلى حدٍ ما.

“صوفي” نائمة في سريرها. إنها خاملة منذ ذهاب «كريستين». لقد أعطيتها مسكنًا وخافضًا للحرارة. إنها لم تمرض أو تتألم بعد، لكن الأدوية ستبقيها هادئة بينما أقوم بتجهيز المخدر. أخذت ابنتي من السرير وهززتها برفقٍ حتى استفاقت تمامًا. إنها طفلة جميلة، تستيقظ سعيدة حتى بعد ساعات النوم الطويلة. في ثوانٍ أصبحت تضحك وتلعب بأطراف أصابعها وتعض أصابع قدميها بينما تصدر أصواتًا طفولية سعيدة. لا أستطيع إبعاد عينيَّ عنها؛ إنها أكثر شيء مثالي رأيته في حياتي، وأنا على وشك سرقة هذا منها، على وشك أن أشوهها لباقي حياتها. ابتسمت لي ومدت يديها لوجهي. لكان أسهل عليَّ لو صرخت.

خلعت ملابسها ووضعتها في بانيو الأطفال. وضعت يدًا خلف عنقها لأسند رأسها، وبدأت أحممها بالصابون برفق باليد الأخرى. استخدمت قماشة قطنية ناعمة ومررتها على بطنها وظهرها وساقيها. من المهم أن تكون نظيفة الليلة. يجب أن تكون معقمة. العملية في حد ذاتها ليست خطيرة، لكن هناك مخاطرة رهيبة أن يحدث التهاب بعد العملية. وبالطبع ليس عندي التجهيزات اللازمة في البيت. أي تدخل خارجي معناه فقدان «صوفي». لن يعيدوها لي أبدًا بعدما يرون ماذا فعلت بها. ولماذا قد يفعلوا؟ لا يمكن أن يقتنعوا إذا قلت إنها حادثة. القطع مثالي، الخياطة مثالية وفي المكان الصحيح، المخدر يسير في جسدها. كلها أدلة على أن الأمر تم مع سبق الإصرار والترصد. يجب أن تسير الخطة على ما يرام الليلة، فليس لديَّ خطة احتياطية.

حملت «صوفي» من البانيو وجففتها بالمنشفة ثم ألبستها حفاضة نظيفة. تكورت بين عنقي وكتفي، وكأنها قطة تطلب الدفء. عندها كدت أوقف نفسي. تراخت عزيمتي. رفعتها حاليًا تحت ضوء الحمام وأجبرت نفسي على رؤية الحورية التي بداخلها.

الشعر الأسود اللامع، لقد جففته ومع ذلك يبدو كأنه رطب.

الجلد الأملس على كعبيها وكفيها، إنه ناعمٌ كحصاة على شط البحر.

حبها للماء.

تقارُب عينيها من بعضها. الطريقة التي تتحركان بها بلا توقف، مثل عيني والدتها عندما كانت تنظر لي وهي في البانيو.

جمالها الساحر الذي لا يمكن إبعاد النظر عنه.

تلوت صلاة لأتسلّح بشجاعةٍ زائفة. تمنيت بعض الويسكي مجددًا. لا يوجد ما يثبتني إلا فكرة أن كل هذا في مصلحتها. حملتها للغرفة الإضافية حيث عقمت كل شيء، وغطيت المكان بمناشف بيضاء نظيفة. علقت مجموعة من مصابيح المكتب فوق المنطقة التي سأعمل عليها، فأضاءت كل بوصة في رأس «صوفي». هناك الكثير من الضوء في الغرفة لدرجة تبدو وكأنني انتقلت للمستقبل.

وضعت «صوفي» على السرير تحت المصابيح مباشرةً. انزعجت من شدة الضوء، فحاولت الابتعاد عنه. عيناها غاضبتان وتطرفان. حجزتها بوسائد حتى لا تستطيع التحرك. وعندما تستسلم للمخدر سأثبت رأسها بشريطٍ طبي لتظل ثابتة طوال العملية. استدرت لأجهز المخدر وتوقفت أمام المرآة لأضبط القبعة الطبية على رأسي والكمامة على فمي. لم يعدِ مرئيًّا مني إلا عينيَّ. لم أتعرف على نفسي، وهذا مريح. سيبدو كأن رجلًا آخر هو من سيفعل هذا الشيء الفظيع لـ»صوفي». وعندما تراني مجددًا، لن تربط في عقلها بيني وبين الألم ومذاق الدم في حلقها. لن تتذكر شيئًا ضدي عندما تكبر.

أخذت أول إبرة في العملية ورفعتها في النور وضغطت على المُحَقِن حتى تناثر السائل المخدر من رأس الإبرة، ثم نقرت على الأنبوب مرتين لتفريغ الهواء. حاولت إلهاء نفسي بهذه الحركات الروتينية. كم مرة حقنت شخصًا خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية ورأيته يجفل؟ عشرات، مئات، آلاف المرات. لكن لم تكن أي حقنةٍ منها مهمة بقدر هذه. لم تكلفني تلك الحقن شيئًا، بعكس هذه.

عدت إلى السرير ووقفت أمام ابنتي الجميلة بينما تنظر إليَّ وتطرف بعينيها. إنها تقريبًا عارية ومرعوبة. رفعت معصمها وأمسكت المكان الذي سأحقن فيه الإبرة عبر وريدها الصغير. نظرَت إليَّ وكأنها لا تراني، بل ترى وحشًا. فتحت فمها وهدرت. الصوت الذي خرج منها كاد يقتلني بقوته.

مقطع واحد، «با...".

ما زال يمكن أن يخرج عدد لا نهائي من المقاطع.

الآن، هذا المقطع الواحد بدا مثل رصاصة اخترقت صدري ورئتي وقلبي. كل جزءٍ مني شعر بالاستسلام. شعرت بمزيج من الرهبة والخوف ينبض بداخلي، مثل قبضة تعتصر أحشائي وترتخي. هذا تمامًا ما جعلتني والدتها أشعر به. إحساس حلو ومر، هذا هو ما سيدمرني. يا له من شعورٍ فظيع أن أعرف أنني بهذا العجز! لكنه أيضًا شعورٌ مهيب. من المستحيل أن أوقفه الآن. أشعر وكأنني أحمل نهر «لاجان» بيدٍ واحدة. كان عليَّ تغطية أذنيَّ لكن فات الأوان.

لقد سمعتها بالفعل، ولن تسير حياتنا ببساطة بعد الآن. سيسير كل شيء حسب رغبة «صوفي». لن أستطيع عصيان أمرٍ لها. لا حدود أو منطق لما قد تطلبه مني. أوقعت الحقنة، وتدحرجت تحت السرير. سحبت الكمامة عن أذني اليسرى، فتدلت على جانب وجهي وكأنها باب موارب. شعرت بكل جزءٍ في جسدي يتراخى ويخضع لابنتي.

رفعتها من على السرير وقربتها من وجهي وقلت:

- "صوفي"، تحدثي إليَّ يا «صوفي». بابا هنا.

أعلم أنها ستدمرني، لكنني لن أقبل بأي خيارٍ آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر وتقدير

أشعر بأنني محظوظة لأن لديَّ الكثير من الناس لأشكرهم.

شكرًا لكل من ساعد على إخراج هذا الكتاب إلى النور، مهما كانت المساهمة بسيطة أو كبيرة. شكرًا للثلاث سيدات الرائعات اللواتي رأين أهمية هذا الكتاب وشجعنني في كل خطوة؛ «فيونا مورفي» في «دابلداي»، و»أليس يويل» (ألطف محررة في العالم)، ووكيلتي المذهلة «كايت جونسون»، التي كان من دواعي سروري معرفتها والعمل معها منذ لقائنا الأول.

شكرًا لمن قدموا لي صداقتهم وتشجيعهم ودعمهم لسنوات؛ «سينيد موريسي»، و»داميان سميث»، و»بيجي هيو»، و»مايكل نولان»، و»بول مادرن»، و»جين بليكني»، و»بيرني ماكجيل»، و»نايت جرابس»، و»ديفيد تورانس»، و»أندرو إيتون»، و»إيما رايت»، والكثير غيرهم. أقدر كل نصيحة قالوها لي.

شكرًا لمئات الفنانين والجمعيات الفنية التي جعلت بلفاست أفضل مكان لممارسة الفنون وسط أشخاص يشاركون الاهتمام نفسه. من المريح أن يكون لديَّ صحبة طيبة أنتمي إليها وأرجع لها في أي شأن. أنا ممتنة بشكل خاص لصداقة ودعم مؤسسة «إيستيد للفنون»، ومكتبة «نو أليبيس» و»لايفبوت»، وسينما «كوينز فيلم»، ومركز فنون «كرسينت»، وجمعية «جون هيويت».

وأشكر بشدة السيدات اللواتي يمددنني بالطاقة ويشجعنني يوميًا؛ «إيما ماست»، و»هيلاري كوبلاند»، و»أورلا ماك آدم»، و»إيميلي ديداكيس»، و»كايلين لين»، و»كيلي ماكجوراين»، و»هانا ماكفيليمي»، و»كريستين كيرناهان»، و»أولوين دولينج». كنت سأفشل بدونكن.

شكرًا لمجلس فنون أيرلندا الشمالية وجمعية «سيد بيد» لدعمهم المالي وإرشادهم في السنوات الماضية.

شكرًا لعائلتي لأنها تتحمل الكثير مني ولا تمل.

وشكر خالص أخير لاثنين من موظفي البار في «كوستا» في محطة «ويفرلي» في «إدنبره». لأنهما وجدا «اللاب توب» الذي يحتوي على مسودة الرواية بعد ثلاثة أيام من ضياعه. هذا الكتاب ما كان ليرى النور أبدًا لولاكما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

يونيو

"جوناثان"

1

هذه بلفاست

2

بلفاست للعشاق

3

سيارات مشتعلة

الفتاة التي لا يسعها إلا السقوط

4

حورية

5

الابن الصعب

الفتى ذو العجلات بدلًا من الأقدام

6

التسمية

يوليو

"سامي"

7

النيران العالية

الفتى الذي يرى المستقبل على أي سطح سائل

8

أحد عشر، اثنا عشر، ثلاثة عشر

9

الأخبار

الفتاة التي تتحول لقاربٍ أحيانًا

10

رجل شرير جدًّا

11

أجنحة صغيرة

"لويس"، مصاصة الدماء النهارية

12
أحاديث
13
"الأطفال المنحوسون" في شرق بلفاست
أغسطس
"جوناثان"
14
الأمطار
15
الفوضى
16
الفيضان
17
اعتراف
18
العشاء الأخير
19
جرح
شكر وتقدير